سلسلة تصحيح مفاهيم خاطئة

آيات مظلومة

بين جهل المسلمين وحقد المستشرقين

(١)

تأليف
عمر بن عبد العزيز قريشي

دار نور الإسلام
بجوار جامعة الأزهر بالمنصورة
ت: ٣٦٤٩٠٥

الطبعة الأولى
١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

دار نور الإسلام

بجوار جامعة الأزهر بالمنصورة
ت: ٣٦٤٩٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره،ونتوب إليه، ونعوذ با لله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. إنه من يهد ا لله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا ا لله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا ا لله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء؛ واتقوا ا لله الذى تسألون به والأرحام إن ا لله كان عليكم رقيبا﴾.

﴿ياأيها الذين آمنوا اتقوا ا لله وقولوا قولا سديدا. يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع ا لله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾.

أما بعد ...

فإن أصدق الحديث كتاب ا لله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، فكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلاله فى النار.

وبعد .. فهذا كتابنا الجديد، نتناول فيه قضية ذات بال، ألا وهى قضية تصحيح المفاهيم الخاطئة فى حياة المسلمين، ذلك أنه كثرت تلك المفاهيم الخاطئة؛ خاصة فى هذا الزمان، وهذه المفاهيم منها ما يرتبط بالقرآن أو السنة أو الأصول والمبادئ.

وهذه المفاهيم منها ما يردده المسلمون، أو ما يردده المستشرقون أو المستغربون.

وخطورة هذه المفاهيم الخاطئة فى حياة المسلمين أنها جهلتهم بمعالم دينهم، وجهلتهم بطبيعة هذا الدين، فتفرقت الأمة شيعا وأحزابا.

ويكفى فى خطورة المفاهيم الخاطئة أن تتفرق الأمة، إذ معناه لن تقوم للإسلام قائمة، ومعناه أيضا أن يفعل الأعداء ما يشاءون بالأمة، لأن ضعف الأمة الإسلامية قوة لأعدائها، وتفرق هذه الأمة هو أعظم سلاح علينا، نعطيه ونهديه لأعدائنا.

ومعلوم أنه ما انتصر الأعداء على المسلمين فى يوم ما، إلا وللفرقة دور رئيسى فى ذلك، واسألوا التاريخ.

ومعلوم أن سياسة أعداء الإسلام - خاصة أشد الناس عداوة للذين آمنوا - هى" فَرِّق تَسُد"، إذن خطورة المفاهيم الخاطئة - التى نريد أن نتحدث عنها - أنها أورثت الأمة ضعفاً وانقساماً وفرقة وهزيمة.

وإذا استطعنا أن نصحح تلك المفاهيم، وأن نجمع الأمة الاسلامية عليها، لاسيما إذا خلت النفوس من أغراضها، والقلوب من أمراضها، فإن هذه الأمة ستتحد - بإذن الله تعالى - وإذا اتحدت فقد أخذت طريقها إلى النصر.

ولكن طالما الأمة متفرقة فإنه لا سبيل إلى نصرها، وذلك أن الفرقة والتنازع يورثان الفشل والهزيمة، قال تعالى :**﴿ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾**. (الأنفال:٤٦.)

والمفاهيم الخاطئة - من وجهة نظرى على الأقل - لها أكبر الأثر السيئ فى حياة المسلمين، ولها أكبر الدور فى فرقة المسلمين، ومن أخطر الأسباب فى إضلال كثير من المسلمين.

ونحن إذ ننشد صحوة إسلامية راشدة، وننشد وحدة إسلامية صحيحة، منضبطة بضوابط الشرع الحنيف.

فلنا مع هذه المفاهيم الخاطئة وقفات ووقفات إن شاء الله تعالى، نضع لبنة على طريق البناء الصحيح، نوضح المعالم ونصحح الأخطاء، ونقوم المعوج، ونضع الأمور فى نصابها ونزنها بالميزان الصحيح، إن شاء الله تعالى.

نسأل الله عز وجل أن يوفقنا لما يحب ويرضى، وأن يتقبل منا صالح العمل، وأن يجنبنا الزلل، فى القول أو العمل، وأن يهدينا لما اختلف فيه من الحق بإذنه، إنه على ما يشاء قدير، وبالإجابة جدير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

المؤلف

أبو عبد الله

عمر بن عبد العزيز

" آيــات مظلومة "

ماذا نعنى بالآيات المظلومة؟

أى أنها التى ظُلمت - من قِبلِ المسلمين أو غير المسلمين، من المستشرقين والمستغربين - فغُيرَ معناها، ووضعت فى غير موضعها. أو فسرت على غير وجهها، أو تنزلت من عليائها لتوضع فى الحضيض، أو تمرغ فى التراب، فهذا ظلم شنيع لكتاب الله جل وعلا.

وهذا النوع تحريف للكلم عن مواضعه، وإن لم يكن تحريفا للفظه، لأن الله قد حفظه بنفسه، فهو تحريف لمعناه بما يخالف منهج الله، ويغير معالم الدين.

فهى آيات مظلومة ومقلوبة، مع أن القرآن حق كله، ولكن كم من حق أريد به باطل، فهذا الذى نعنيه بالآيات المظلومة، (الآيات حق) لكن أريد بها باطل.

فهذا قوله تعالى: **﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾** يفهم بمعنى تحريم الجهاد والاستشهاد.

وهذا قوله سبحانه: **﴿لا إكراه فى الدين﴾** يراد به الخروج عن الدين، وترك طاعة رب العالمين.

وهذا قوله عز من قائل ﴿**الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم**﴾ يفسر على أنه تلك الحركات البهلوانية الرعناء.

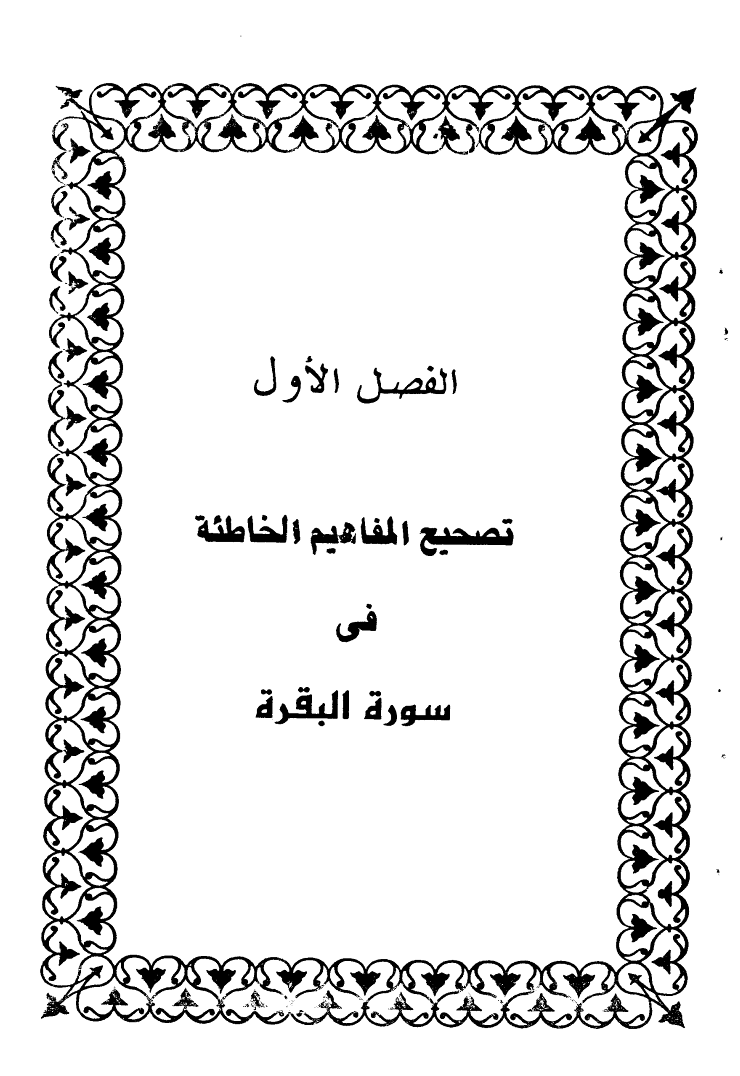
وهذا قول ربنا جل فى علاه ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ يفسر بالأنانية وترك الدعوة.

وهذا كلام الله يقول :﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾ فيفهم على أنه منزلة إذا وصل عندها العبد سقط عنه التكليف.

وهذا قول ربنا: ﴿**قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجدا**﴾ اتخذ مطية لبناء المساجد على القبور، وعبادة أصحابها من دون الله العزيز الغفور، وهذا...، وهذا..، كثير، بل كثير جدا.

على نحو ما سترى من ظلم بيِّن للآيات، وتحريف لكلام فاطر الأرض والسموات، وانحراف عن المنهج، بل خروج عن الدين باسم الآيات البينات.

والآن مع نماذج من الآيات المظلومة، مرتبة بترتيب سور القرآن، بدءاً بسورة البقرة ثم آل عمران .... الخ.



الفصل الأول

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة البقرة



الفصل الأول

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى " سورة البقرة "

وقد اشتملت تلك السورة على بعض الآيات التى أساء الناس فهمها، وأخطأوا فى تفسيرها، أو حشوها بالإسرائيليات، أو استشهدوا بها فى غير محلها، ومن ذلك، حسب ترتيب الآيات:

" سؤال الملائكة "

(١) قوله تعالى: ﴿**وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون**﴾ (١).

فزعموا أن ذلك من قبيل الاعتراض على الله - ونسوا أن الاعتراض على الله ليس مجرد معصية فقط وإنما ذلك هو الكفر البواح الذى وقع فيه إبليس - عليه لعنة الله - كما زعموا أن قولهم هذا فيه سب لآدم وذريته، ومدح وتزكية لنفوسهم، واعتراض على حكم ربهم !!

ونبادر فنقول : إن زعمهم هذا من نسج الخيال، وشبهتهم هذه تدل على الجهل والخبال، فإن عصمة الملائكة ثابتة بالقرآن والسنة، وعليه إجماع الأمة.

١- سورة البقرة : ٣٠.

فالله عز وجل خلق الملائكة، وجبلهم على طاعته، وعصمهم من

معصيته، فهم كما وصفهم بقوله :﴿ **لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ (١)، وقال: ﴿**ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون**﴾، ﴿**يسبحون الليل والنهار لا يفترون**﴾ (٢)، وكما قال عنهم: ﴿**عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون. يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون**﴾.(٣) ، وقال عنهم ﴿**يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾(٤) ،ومن كان هذا حالهم، وتلك صفاتهم، فإنهم لا يعصون ربهم، فكيف يعترضون على حكم خالقهم وينفون حكمة ربهم ؟ ويتطاولون أمام الله بتزكية نفوسهم ؟ كلا وألف كلا.

ولعل الحكمة من إخبار الله عز وجل للملائكة عن هذا المخلوق وذريته ما سيكون بينه وبينهم من صلة فقد أمروا بعد خلقه بتكريمه وتعظيمه بالسجود له، امتحانا لطاعتهم.

وقدر الله سبحانه أن يكون منهم الحفظة والكتبة، وملائكة الوحي، والمطر والنبات، والعذاب والموت ... وكلها متعلقة بحياة البشر ومقاديرهم

١- سورة التحريم : ٦.
٢- سورة الأنبياء : ١٩،٢٠.
٣- سورة الأنبياء : ٢٦،٢٨.
٤- سورة النحل : ٥٠.

ومصائرهم. هذا .. ولم يكن جواب الملائكة على هذا الإخبار الإلهى بخلق آدم من قبيل الاعتراض مطلقا، وقد علمت أن الاعتراض على الله ليس مجردمعصية فقط - كما زعموا - وإنما ذلك هو الكفر البواح الذى وقع فيه إبليس عليه لعنة الله.

وإنما كانت حكمة هذا الخلق الجديد خافية عليهم فأرادوا معرفتها، لماذا يخلق الله خلقا غيرهم؟ وهل بدر منهم تقصير أو قصور فى مهمتهم، لذلك أراد الله أن يخلق غيرهم؟

فكان سؤالهم واستفسارهم. وكونهم وصفوا الإنسان بالفساد فى الأرض وسفك الدماء قبل أن يوجد، لأن الله بذلك أعلمهم، ولأنهم أدركوا أنه مادام هذا المخلوق سيكون من طين ويعيش فى الأرض فلابد أن تكون له طبيعة قابلة للخير والشر، وحينئذ لابد أن يقع التنازع والصراع بين ذريته، فيحصل الفساد وتسفك الدماء.

ولكن حين أدرك الملائكة خصائص هذا المخلوق وعرفوا ما زوده الله به من الاستعداد للمعرفة والتزود من العلم.

سجدوا سجود تحية وتكريم امتثالا لأمر الحق تبارك وتعالى.

"هل كان إبليس من الملائكة"

(٢) ﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين﴾(١).

وحتى هذه الآية الكريمة الأخرى جعلوا منها شبهة ثانية فى عدم عصمة الملائكة، لأن إبليس - وهو من الملائكة !! - لم يمتثل لأمر الله، واعترض على حكمه، وقاس بعقله الفاسد بينه وبين آدم، وقال **﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين﴾**(٢) فاستحق بذلك الغواية والطرد من رحمة الله ومن جنته، كما حكته الآيات فى غير موضع فى القرآن الكريم.

فنقول - وبالله التوفيق: إن من زعم أن إبليس كان من الملائكة فقد أبعد النزع، وأخطأ الفهم، وضل الطريق، وذلك لأن الله عز وجل فصل فى القضية - ولا يجوز التقديم بين يدى الله ورسوله - وذلك بآية كريمة فى سورة الكهف، فقال: **﴿وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا﴾**(٣).

١- سورة البقرة : ٣٤. ٢- سورة ص : ٧٦ .
٣-سورة الكهف : ٥٠ .

فهل بعد هذا الحق الناصع، والوضوح القاطع، يقول أحد بأن إبليس من الملائكة؟! أو يردد تلك الإسرائيليات بأن إبليس كان طاووس الملائكة ،

وأعلم الملائكة، وأعبد الملائكة، ونحو ذلك، كيف؟ وقد اختلف عنهم خلَقاً وخُلقاً، وبداية ونهاية، وحياة ومصيرا.!

أى وجه للشبه بين إبليس والملائكة؟ وهم مخلوقون من نور، وقد خلق من نار، وهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهو قد فسق عن أمر ربه، واعترض على حكم خالقه، وهم لا يتزوجون ولا يتناسلون، وهو له أزواج وذرية على شاكلته أعداء لله رب العالمين، وهم الذين لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون، وهو الذى أبى واستكبر وكان من الكافرين، وهم الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون وهو الذى لا يفتر ولا يتوانى فى إضلال خلق الله بعد ما أقسم بعزة الله على إغواء الخلق أجمعين، إلا من لا يستطيع الوصول إليه من المخلصين، وهو الذى لا يدع وسيلة ولا باباً إلى إغوائهم إلا سلكه إليهم **﴿فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين﴾** (١).

فكل هذه فروق بين الملائكة وإبليس، تحول أن يكون إبليس من الملائكة طرفة عين، فضلا عما حكم الله عز وجل به عليه من مصير

١- سورة الأعراف : ١٦،١٧

﴿قال أخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين﴾(١).

لكن يبقى هنا استفسار: ما وجه الحكمة فى استثناء إبليس من السجود مع أن الأمر به للملائكة؟

نقول – وبا لله التوفيق: أولا: هذا الاستثناء منقطع، كما يقول أهل اللغة، يقال: جاء القوم إلا حماراً، وأكلت التفاح إلا برتقالةً.

وهنا يقال سجد الملائكة إلا إبليس.

كذلك يقال: صدر الأمر للملائكة بالسجود لآدم وإبليس كان معهم ولم يكن منهم، كما علمت فبحكم معيتة للملائكة، وهو فرد بين أمم الملائكة كان عليه أن يسجد ولكنه أبى لأنه خانه أصله النارى وطبعه الفاسد إذ قاس وقارن، فضل وهلك، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

١-سورة الاعراف :١٨.

" وسوسة إبليس لآدم "

(٣) قال تعالى : ﴿وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منهـا رغدا حيث شئتما ولا تقربا هـذه الشـجرة فتكونـا مـن الظـالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطـوا بعضكـم لبعـض عـدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾(١).

والفهم الخاطئ يتمثل فى إسرائيليات ذكرت فى قصة آدم عليـه السـلام متمثلة فى تفسـير الشـجرة، هـل هـى التـين أم العنـب أم الحنطـة، أم مـاذا؟ وتتمثل فى تفسير وسوسة إبليس لآدم، بأنه لم يسـتطع وسوسـته إلا بعـد أن دخل فى فم الحية، وقد كانت الحية ذات قوائم أربع، كالإبل الخرسانية!!

ولما دخل إبليس الجنة بهذه الحيلة استطاع أن يغرى حواء، والتى أغوت بدورها آدم !! فأكلا فتعريا، فاختبأ آدم داخل شـجرة، حتـى قـال الـرب : أين أنت يا آدم؟!!

فقال : أستحى منك يا رب لأنى عريان، فقال لـه : لعلـك أكلـت مـن الشجرة التى نهيت عنها ؟!! فغضب الرب على الحية التى أدخلـت إبليـس، أو دخل إبليس فى فمها، وقـال لهـا : ملعونـة أنـت، مـن الآن قوائمـك فـى بطنك، تزحفين على الأرض، ورزقك من التراب، والعداء بينـك وبـين بنـى آدم إلى الأبد.

١- سورة البقرة : ٣٥، ٣٦.

ثم نظر إلى حواء فقال لها: ملعونة أنت، أغريت عبدى آدم بالأكل من الشجرة التى نهى عنها، من الآن تحملين كرها، ولا تضعين حتى ترين الموت مرات ...!!

والحق يقال : أن هذا كله من جنس الإسرائيليات، وأصله فى التوراة المحرفة، فليس فى القرآن ما يدل على أن حواء أغرت آدم، ولم ينسب إليها الاتهام، بل قال ﴿**فأكلا منها ...**﴾ كلاهما معا، وليس شرطا فى وسوسة إبليس لآدم وحواء أن يدخل الجنة فى فم الحية أو غيرها، لأن الوسوسة لا يشترط فيها التقارب والتجانس. بل يمكن أن تتم الوسوسة من بُعْد، كما تتم عن قرب.

وهذه الحية هى على ما هى عليه منذ أن خلقها الله، ما كان لها قوائم ولا أرجل ولا أنها صارت داخل بطنها، بل هى كما قال الله تعالى: ﴿**والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ..**﴾(١).

فهذا كله من جنس الإسرائيليات التى ملئت بها كتب التفسير التى يجب أن يحذرها المسلم.

١- سورة النور : ٤٥.

"ما هي الكلمات التي تلقاها آدم"

(٤) قال تعالى : ﴿**فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم**﴾(١)

والفهم الخاطئ فى هذه الآية هو مجموعة من الإسرائيليات والموضوعات فى تفسير هذه الآية، انبنت عليه أحكام خاطئة توقع الناس فى ألوان من الكفر، وصور من الشرك.!!

ومن ذلك أنهم أوردوا أن آدم لما عصى وأكل من الشجرة، نظر إلى قوائم العرش، فرأى اسم محمد ﷺ بجوار اسم الله، أو مكتوبا **"لا إله إلا الله محمد رسول الله"** فنادى آدم : يارب بحق محمد إلا غفرت لى، فناداه الله : ومن أدراك بمحمد؟ أو يا آدم وكيف عرفت محمدا و لم أخلقه؟ قال : يارب لما خلقتنى بيدك ونفخت فيَّ من روحك رفعت رأسى فرأيت على قوائم العرش مكتوبا "لا إله إلا الله محمد رسول الله" فعلمت أنك لم تضف إلى اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله : صدقت يا آدم، إنه لأحب الخلق إلىَّ، ادعنى بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك" وقد أوردوه بأكثر من رواية،

١- سورة البقرة : ٣٧.

وهو حديث موضوع بإجماع أهل العلم، ولا عبرة بقول من حاول تصحيحه... وهو يكذبه القرآن، لأن الله تعالى قال: ﴿ **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه** ﴾ .

فالكلمات تعلمها آدم وتلقاها من ربه، و لم يخترعها هو من عنده، ولا اجتهد فيها من تلقاء نفسه، وهذه الكلمات لم تكن "بحق محمد إلا غفرت لى، ولا بحق الابن اغفر للأب، ولا بغيرها مما زعموه، وإنما هى التى قالها الله تعالى: ﴿**قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين**﴾(١).

وهذا هو الذى قاله أهل العلم، وأجمع عليه المحققون من أهل التفسير، وكما قيل: خير ما يفسر به القرآن هو القرآن، فآدم تلقى الكلمات من ربه، وقد وضحها ربنا فلا مجال للادعاء أو الاجتهاد.

ثم الذى انبنى على زعمهم هذا من لغط ووقوع فى الشرك، وما جاءوا به وقالوه ﴿.. **شيئاً إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا**﴾(٢).

فراح الناس يدعون بحق محمد، وباسم محمد، وبجاه محمد، بل وغيره من الأنبياء والأولياء متناسين حق الله تعالى، وميثاقه، وتوحيده!!.

١- سورة الأعراف : ٢٣.   ٢-سورة مريم : ٨٩

" هـاروت ومـاروت "

(٥) قال الله تعالى: حكاية عن بنى إسرائيل ﴿ولما جـاءهم رسـول مـن عند الله مصدق لما معهم نبذ فريـق مـن الذيـن أوتـوا الكتـاب كتـاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون. واتبعـوا مـا تتلـوا الشـياطين علـى ملـك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمـون النـاس السـحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان مـن أحـد حتـى يقولا إنما نحن فتنة فـلا تكفـر فيتعلمـون منهمـا مـا يفرقـون بـه بـين المـرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شـروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون﴾(١).

فقد زعموا عدم عصمة الملائكة، مستدلين فـى ذلـك بقصـة "هـاروت ومـاروت" كمـا ذكـرت فـى الإسـرائيليات، وبعـض الروايـات والأكـاذيب والخرافات عما لا يستحق ذكره.

والحق يقال أنه قد أورد كثير من المفسرين فى تفسير هذه الآيـة الكريمـة روايات كثيرة وقصص عجيبة كلها من خرافات بنـى إسـرائيل، وأكـاذيبهم التى لا يشهد لها عقل ولا نقل، ولاشئ من شرع أو قول فصـل، ولم يقـف بعض رواة القصص الخرافى الباطل عند روايته عن بعض الصحابة والتابعين،

١- سورة البقرة: ١٠١، ١٠٢

ولكنهم أوغلوا باب الإثم والتجنى الفاضح فألصقوا هذا الزور إلى النبى ﷺ ورفعوه إليه، سبحانك ربى هذا بهتان عظيم. هذا.. وقد حكم بوضع هذه القصة علماء كثيرون منهم الإمام أبو الفرج بن الجوزى، وابن كثير، والقاضى عياض، وغيرهم، ونص الشهاب العراقى على أن من اعتقد فى هاروت وماروت أنهما ملكان يعذبان على خطيئتهما فهو كافر با لله العظيم.

وقال الإمام القاضى عياض فى "الشفا": وما ذكر أهل الأخبار ونقله المفسرون فى قصة هاروت وماروت، لم يرد فيه شىء لا سقيم ولا صحيح عن رسول الله ﷺ، وليس هو شيئاً يؤخذ بالقياس(١).

وقال الحافظ عماد الدين ابن كثير: المرفوع من هذه القصة موضوع وأما ما ليس مرفوعا فمنشؤه روايات إسرائيلية، أخذت عن كعب وغيره، ألحقها زنادقة أهل الكتاب بالإسلام(٢).

وكذا ردها المحققون من المفسرين الذين مهروا فى معرفة أصول الدين وأبت عقولهم أن تقبل هذه الخرافات كالإمام الرازى وأبى حيان وأبى السعود والألوسى وغيرهم.

ثم هذه من ناحية العقل غير مسلمة، فالملائكة معصومون عن مثل هذه الكبائر التى لا تصدر من عربيد - إذ أوردوا أنهما وقعا فى الزنا، وما زنيا إلا بعد سجودهما للصنم كشرط لتحقق ذلك، بخلاف السحر وقد أخبر الله

١- عالم الملائكة ص٣٠ بتصرف. ٢-تفسير ابن كثير ج١ ص١٤١ .

عنهم بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، فكيف بالشرك، والزنا، والسحر، وما أوردوه من روايات. ذكرها بعض المفسرين بطولها، رد لكلام الله.

ففي رواية: أن الله قال لهما لو ابتليتكما بما ابتليت به بني آدم لعصيتماني، فقالا: لو فعلت بنا يارب ما عصيناك!! ورد كلام الله كفر، ننزه عنه من له علم با لله وصفاته، فضلا عن الملائكة.

ثم كيف ترفع الفاجرة المشركة الزانية إلى السماء وتصير كوكبا مضيئا، باسمها "الزهرة"؟ وما النجم الذى يزعمون أنه "الزهرة" وزعموا أنه كان امرأة، فمسخت!! إلا فى مكانه من يوم أن خلق الله السموات والأرض؟

فهذه الخرافات التي لا يشهد بها نقل صحيح ولا عقل سليم، هى كذلك مخالفة لما صار عند العلماء المحدثين أمراً يقينيا، ولست أدرى ما الداعى لكل هذه الأكاذيب - فنجد بضع صفحات فى كتب التفسير - عن هذه الآية - من هذا الهراء، وتلك السموم.

والآية الكريمة نفت كل ما زعموه من أصله، فى قوله تعالى:

﴿... ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت﴾

قال بعض المفسرين: "ما" نافية وليست موصولة،

يعني: لم ينزل الله علم السحر على الملكين، قاله ابن كثير ورجحه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لم ينزل الله السحر، وعن الربيع بن أنس قال: ما أنزل الله عليهما السحر.

قال ابن جرير: فتأويل الآية على هذا: واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين،ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت.فيكون قوله :"ببابل هاروت وماروت" من المؤخر الذي معناه المقدم، قال : فإن قال لنا قائل: كيف وجه تقديم ذلك؟قيل : وجه تقديمه أن يقال:﴿واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان من السحر، وما كفر سليمان، وما أنزل الله السحر على الملكين، ولكن الشياطين كفروا، يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت﴾.

فيكون معنيا بالملكين: جبريل وميكائيل عليهما السلام، لأن سحرة اليهود – فيما ذكر – كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود، فأكذبهم الله بذلك، وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر، وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر، وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين، وأنها تعلم الناس ذلك ببابل، وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت، واسم الآخر ماروت، فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم.هذا لفظه بحروفه

ونقول أيضا : وحتى على اعتبار أن "ما" موصولة، بمعنى"الذى"،

فيكون المراد بما أنزل هو: علم السحر الذى نزل ليعلماه الناس حتى يحذروا منه،

فالسبب فى نزولهما هو: تعليم الناس أبوابا من السحر، حتى يعلم الناس الفرق بين السحر والنبوة، وأن سليمان لم يكن ساحراً، وكانا فى غاية الاحتياط، فما كانا يعلمان أحداً شيئا من السحر حتى يحذراه، ويقولا له: إنما نحن فتنة، أى بلاء واختبار، فلا تكفر بتعلمه والعمل به، وأما تعلمه للحذر منه، وليعلم الفرق بينه وبين النبوة والمعجزة، فهذا لا شىء فيه، بل هو أمر مطلوب، مرغوب فيه إذا دعت الضرورة إليه، ولكن الناس ما كانوا يأخذون بالنصيحة، بل كانوا يفرقون به بين المرء وزوجه وذلك بإذن الله ومشيئته.

وقد دلت الآية : على أن تعلم السحر لتحذير الناس من الوقوع فيه والعمل به مباح، ولا إثم فيه، وأيضا تعلمه لإزالة الاشتباه بينه وبين المعجزة والنبوة مباح ولا إثم فيه، وإنما الحرام والإثم فى تعلمه وتعليمه للعمل به، فهو مثل ما قيل : عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه، ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه.

وهذا تفسير آخر، وكلاهما ليس فيه ما زعمه الزاعمون، والأمر محتمل، والخلاصة أنه يجب على القارئ أن يحذر من هذه الإسرائيليات، سواء وجدها فى كتاب تفسير أو تاريخ أو مواعظ أو أدب، وأن يكون على يقين من عصمة الملائكة كعصمة الأنبياء. وأنهم عباد الله اختارهم واصطفاهم، لهم مكانة عند ربهم.

" مـقام إبـراهيــم "

(٦) قال تعالى: ﴿وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى .. ﴾(١).

والفهم الخاطئ هو ما زعمه بعض القبوريين أن الله تعالى أمرنا أن نصلى عند مقابر الأنبياء والصالحين، بدليل ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى﴾.

وقد زعموا أن المقام هنا هو كسائر المقامات والأضرحة التى رفعت فوق قبورهم !! وتغنوا بهذا الفهم الخاطئ، وظنوا أنهم وجدوا حجة ساطعة قاطعة، يقطعون بها ألسنة من يحرمون بناء المقامات والتوابيت والأضرحة، ويحرمون الصلاة عندها، وحجة قاصمة، يقصمون بها ظهور أهل السنة والجماعة !!

والعجب أنهم فى حالهم هذا كمن بنى بناء ورفعه ولكنه كان على أساس هش، أو على حرف هار فانهار به فى نار جهنم، أو كان كحال الذى أخذ يجرى فى الوادى يظن أن به ماءا، فلما جاءه لم يجده شيئا ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾(٢).

ذلك أن مقام إبراهيم ليس القبر الذى دفن فيه، ولا الضريح الذى وضع عليه، لا وإنما هو الحَجَرُ الذى كان يقوم عليه، ويناوله إسماعيل الحجارة،

١- سورة البقرة : ١٢٥.   ٢-سورة النور :٣٩ .

لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار وقد أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار، وكلما كمل ناحية انتقل إلى الناحية الآخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه، كلما فرغ من جدار نقله إلى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة.

ومن شك فى ذلك فليراجع كتب التفسير من ناحية، وليذهب إلى الحرم ليرى الحجر الذى هو المقام من ناحية أخرى، فليس الأمر كما زعم المتصوفة أنه مقام كمقامات الأولياء عندهم ..!!

وأما سبب الصلاة عنده ما صح عن جابر -رضى الله عنه- يحدث عن حجة النبى ﷺ قال: لما طاف النبى ﷺ قال له عمر، هذا مقام أبينا؟ قال نعم، قال : أفلا نتخذه مصلى؟ فأنزل الله عز وجل ﴿**واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى**﴾(١)، وقد جاء بروايات كثيرة منها المطولة ومنها المختصرة.

وإنا لنتساءل : أين هذا المقام من تلك المقامات؟

وأين ما دل عليه الشرع مما حرمه الشرع، فأين الثرى من الثريا؟ ولكن القوم يهرفون بما لا يعرفون.

١- رواه مسلم فى الحج (١٢١٨) وغيره.

"الطواف بين الصفا والمروة"

(٧) قال تعالى: ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم**﴾(١).

فهذه الآية من الآيات التي يمكن أن تفهم خطأ، لأن ظاهرها يوهم أن السعي بين الصفا والمروة ليس واجبا، في حج أو عمرة، وإنما أقصى ما في المسألة أن يكون من جنس المباح، فلا بأس بفعله، ولا جناح على من طاف أو سعى بينهما، وهذا ليس على وجهه، ولا مرادا على هذا النحو.

ويوضح هذا المعنى ما رواه الإمام أحمد، عن عروة عن عائشة، قال: قلتُ أرأيتِ قول الله تعالى ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما**﴾ قلت: فوا لله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما، فقالت عائشة: بئسما قلت يا ابن أختي، إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ولكنها إنما أنزلت إذ الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشلل، وكان من أهَلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقالوا يا رسول الله، إنا كنا

١- سورة البقرة : ١٥٨.

نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة فى الجاهلية فأنزل الله عز وجل ﴿**إن الصفا والمروة** ...الآية﴾ قالت عائشة : ثم قد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما (١) .

وروى البخارى عن عاصم بن سليمان، قال : سألت أنسا عن "**الصفا والمروة**" قال: كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية، فلما جاء الإسلام أمسكنا عنهما، فأنزل الله عزوجل ﴿**إن الصفا والمروة من شعائر الله**﴾(٢).

وقال الشعبى: كان "أساف" على الصفا، وكانت "نائلة" على المروة، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الإسلام من الطواف بينهما، فنزلت هذه الآية (٣).

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل - فى وصف حجة النبى ﷺ - وفيه: أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول: "**إن الصفا والمروة من شعائر الله**" ثم قال : أبدأ بما بدأ الله به(٤).

١- أخرجه البخارى فى الحج (١٦٤٣)، ومسلم فى الحج (١٢٧٧).
٢- رواه البخارى، فى الحج (١٦٤٨). ٣-تفسير القرطبى.
٤-أخرجه مسلم فى الحج (١٢١٨).

وفى رواية النسائى"ابدأوا بما بدأ الله به"

وفى رواية الامام أحمد بن حنبل : قوله ﷺ - وهو يسعى ويشتد في السعى : اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى"(١) وقد استدل بهذا الحديث من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن فى الحج. كما هو مذهب الشافعى ومن وافقه.

وقيل : إنه واجب وليس بركن، فإن تركه عمدا أو سهواً جُبَر بدم، وقيل بل مستحب، والقول الأول أرجح، وا لله أعلم.

١- اخرجه احمد (٦/٤٢١) ، والدارقطنى (٢/٢٥٥) ، والبغوى فى شرح السنه (١٩٢١).

" مـا معنـى التهلكـة؟ "

(٨) قال تعالى :﴿**وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكـة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**﴾(١).

فهذه الآية الكريمة من بين الآيات التى فهمـت فهمـا خاطئـا، ووضعـت فى غير موضعها، وقيلت فى غير مجالها، ومثاله : إذا قام رجل يريد أن ينفـق فى سبيل الله أو يتصدق، فيمسك الشيطان بيده، ويقول لـه : عنـدك أولاد، والبيت محتاج لذلك، والزيت يحتاجه البيت فيحرم على الجامع، وا لله يقـول: ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ فلا تلق بنفسك وأولادك إلى التهلكة.

وهذا داعية قام يدعو إلى الله. ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ومـن وراء ذلك ابتلاء يحتاج إلى صبر، كمـا فـى قولـه تعـالى: ﴿**وتواصـوا بـالحق وتواصوا بالصبر**﴾(٢)

ونحو قوله تعالى - على لسان لقمان الحكيم ﴿**يابنى أقم الصـلاة وأمـر بـالمعروف وانـه عـن المنكـر واصـبر علـى مـا أصـابك إن ذلـك مـن عـزم الأمور**﴾(٣) وغير ذلك.

١- سورة البقرة : ١٩٥.

٢-سورة العصر : ٣.

٣- سورة لقمان : ١٧.

فتجد من يقول له بلسان الناصح الأمين، والواعظ الشفوق : مالك أنت والناس، تعرض نفسك للإيذاء - بالاعتقال أو غيره - والله تعالى يقول: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾.وذلك إنسان يريد الجهاد في سبيل الله - والجهاد فيه بُعد عن الأهل، وترك للوطن، وفيه احتمال المصاعب، ومظنة الإصابة، واحتمال الشهادة، وذهاب المال، أو النفس والمال جميعا.

فتجد انسانا - بل شيطانا فى صورة انسان - يقول له : تذهب فتقاتل فتقتل ، وتترك أولادك ، فتتزوج زوجتك بغيرك ، ويقسم مالك، فمالك أنت وهذا،ألم يقل الله تعالى:﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾..الخ

فياسبحان الله : انظر - أخا الإسلام - كم ظلمت الآية؟ كيف لوى عنقها حتى استشهد بها فى هدم معالم هذا الدين؟ كيف نزلت من قمتها السامقة إلى هذا الحضيض والسفل ؟!!

إن هذه الأمثلة موجودة فى حياة الناس، ونحوها. وربما كان لها أصل من قديم، إذ ظن بعض الصحابة - من ظاهر الآية - أن الرجل لو ضحى بنفسه فى القتال يكون قد ألقى بنفسه إلى التهلكة.

وكما جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى، عن أسلم أبى عمران قال: حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصارى، فقال ناس : ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب : نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله ﷺ

وشهدنا معه المشاهد ونصرناه، فلما فشا الإسلام وظهر، اجتمعنا - معشر الأنصار - نجيا، فقلنا : قد أكرمنا الله بصحبة نبيه ﷺ

ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد، وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا ﴿**وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ فكانت التهلكة فى الإقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد(١).

ولفظ أبى داود: كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر "عقبة بن عامر" وعلى أهل الشام رجل يدعى "يزيد بن فضالة بن عبيد" فخرج الناس إليه، فقالوا: سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل، وإنما نزلت فينا معشر الأنصار، إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه، قلنا فيما بيننا: لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها، فأنزل الله هذه الآية".

وروى البخارى عن حذيفة - فى الآية ﴿وأنفقوا فى سبيل الله...﴾ قال: نزلت فى النفقة .

وسأل رجل البراء بن عازب: إن حملت على العدو وحدى فقتلونى،

١- أخرجه أبو داود فى الجهاد (٢٥١٢)، والترمذى فى التفسير (٢٩٧٢) والحاكم (٢٧٥/٢) وصححه ووافقه الذهبى، والبهيقى (٩٩/٩)، وابن حبان (٤٧١١) الإحسان بسند صحيح، وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح أبى داود (٢١٩٣).

أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة، قال: لا، قال الله لرسوله ﴿**فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك**﴾(١) إنما هذه فى النفقة(٢). وزاد الترمذى: ثم قال: ولكن التهلكه أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب.

وقال النعمان بن بشير: أن يذنب الرجل الذنب فيقول لا يغفر لى، فأنزل الله ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾ وقال الحسن البصرى: هو البخل...(٣).

فالآية إذا، ليست كما فهمها الناس، أو تأولوها على غير وجهها

إن التهلكة فى ترك الإنفاق فى سبيل الله، إن التهلكة فى ترك الجهاد فى سبيل الله، إن التهلكة فى ارتكاب الذنوب، إن التهلكة فى التألى على الله، تقول: لا يغفرلى، وفى العجلة، تقول: دعوت فلم يستجب لى، والتهلكة بحب الدنيا وكراهية الموت فى سبيل الله، إن التهلكة فى ترك الطاعات والتقاعس عن الجهاد وعدم الإحسان . وهى -على الجملة- فى البعد عن الالتزام بأحكام هذا الدين، وعدم التمسك بسنة خاتم النبيين.

ليست التهلكة بفعل الطاعات، كالجهاد والتصدق، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر. فهذا هو الفهم الصحيح لتلك الآية الكريمة، وليست كما زعم الجاهلون، أو تأوله المبطلون.

١- سورة النساء: ٨٤.
٢- أخرجه الحاكم فى المستدرك (٢/٢٧٥) وصححه ووافقه الذهبى.
٣- راجع:ابن كثير فى تفسير الآية بتوسع جـ١ ص٢٢٨، ٢٢٩.

" ما معنى السكينة والتابوت ؟ "

(٩) قال تعالى: ﴿**وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون تحمله الملائكة إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين**﴾(١).

والفهم الخاطئ في الآية مرتبط بالإسرائيليات التي ذكرت حول معنى التابوت وما يحتوي عليه، ومعنى السكينة، وبقية ما تركه آل موسى وآل هارون.

فزعموا أن التابوت طوله كذا، وعرضه كذا، وبالغوا في وصفه، وأطالوا في ذلك، وأن هذا التابوت كان مع كل الأنبياء والرسل، وظل ينتقل من أيام سيدنا آدم حتى وصل سيدنا إبراهيم، وحتى وصل سيدنا موسى ... الخ.

وأما الذي بداخل التابوت "فيه سكينة من ربكم" يقولون : هي طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء أعطاها الله موسى فوضع فيها الألواح. وقيل : السكينة لها وجه كوجه الإنسان، ولها رأسان، وقيل لها جناحان وذنب، وقيل هي ريح خجوج، وقيل : بل رأس هرة ميتة إذا صرخت في التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح ... الخ!!!.

وأما بقية ما ترك آل موسى وآل هارون فقد قالوا هي عصى موسى وثيابه وثياب هارون ورضاض الألواح،ويقال قفيز ويقال:العصا والنعلان...!!.

١- سورة البقرة: ٢٤٨.

كما زعموا فــي حمـل الملائكـة لـه أنهـا نزلـت مـن السـماء إلى الأرض ووضعتـه أمـام طـالوت، واسـرائليات تقـول التـابوت هـذا أخــذه العمالقــة واستولوا عليه، فابتلاهم الله، فقالوا لابد من الخلاص منه فوضعوه على عربة تجرها بقرة أو بقرتان حتى وصلوا إلى طالوت، ففرح هو وجنوده... الخ(١).

والحق يقال : ليس مما زعموه شئ يصح، ولا يحتاج إلى هذا، فالسكينة هنا طمأنينة القلب، ووقار وجلالة، كما أنها الرحمة كذلك.

وفى القـرآن شـواهد على ذلـك، ومنهـا: ﴿**فـأنزل الله سـكينته علـى رسوله وعلى المؤمنين وألـزمهم كلمة التقوى**﴾ (٢).

وفى السنة "**مـا اجتمـع قـوم فى بيت من بيـوت الله يتلـون كتـاب الله ويتدارسـونه بينهـم إلا نزلـت عليهـم السـكينة وغشـيتهم الرحمــة، وذكـرهـم الله فيمـن عنـده**" (٣).وليس فيها ريـح، ولا فيهـا هـرة، ولا طست ولا نحو ذلك.

وهذا الإطناب فى وصف التابوت والبقيـة، وكيـف حملتـه الملائكـة فـى غـير موضعـه، لأن الله تعـالى أراد العــبرة والموعظــة، ومــا أراد الحكايــات والقصص والروايات.

١-راجع كتب التفسير بتوسع ٢-سورة الفتح :٢٦.
٣-أخرجه مسلم فى الذكر (٢٦٩٩) ، وأبو داود فى الصلاة(١٤٥٥) ، والترمذى (٢٩٤٥) .

" داود وجالوت "

(١٠) قال تعالى: ﴿**ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فهزموهم بإذن الله وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ..**﴾ "(١).

وفى نفس السياق القرآنى فى قصة الملأ من بنى إسرائيل - يأتى الكلام عن نبى الله "**داود**" عليه السلام.

وعلى طريقة اليهود فى تشويههم لصورة الأنبياء والمرسلين تضع الإسرائيليات فى هذا الجانب الذى تصور به الأنبياء للناس على أنهم طلاب شهوة وشهرة، يبحثون عن المناصب، ويطلبون الملك ومن ذلك ما ذكر فى قصة داود عليه السلام فى أكثر من موضع.

وفيما يرتبط بهذا السياق قصة قتل داود لجالوت، فذكروا أن جالوت كان من القوة بمكان، والذىأخذ ينادى على طالوت وجنوده : من يخرج لمبارزته، فخاف طالوت، ثم نادى فى جنده من يخرج لمبارزة جالوت ويقتله فأزوجه ابنتى، وأشاطره مالى، وأشركه فى أمرى وملكى، فتهيب الجنود و لم يخرج لمبارزته أحد، فأوحى الله لنبى من أنبياء بنى إسرائيل أن الذى يقتل جالوت ولد من أولاد أشعيا - أبو داود - فجئ به وبولده، يعنى بأولاده، وكانوا اثنى عشر ولدا، كلهم فارس همام، وقد جعل لهم نبيهم علامة فلم

١- سورة البقرة: ٢٥٠ - ٢٥١.

تظهر على واحد منهم، فقال جالوت : ليس فيهم واحد ظهرت فيه العلامة، وإنه يزعم أنه لا ولد له سواهم، فأوحى الله إلى هذا النبى أن كذب، فإن له ولدا، فقيل له يا أشعيا : إن الله كذبك، يقول : إن لك ولدا، قال : نعم لى ولد، لكنه صغير وقصير وحقير - يذكر هذا فى صفات داود، وهكذا يحرص اليهود على أن يشوهوا صورة الأنبياء ويذكرونهم بصفات قبيحة - يقول : كرهت أن آتى به لوقاحته، وقصر قامته، وسوء منظره، فأتى بداود وظهرت فيه العلامة، وخرج داود لمقاتلة جالوت، وكان لا يحسن فن المبارزة، ولكنه يتقن الرمى، فجاء بمقلاع وحمل فيه ثلاثة أحجار، باسم إله إبراهيم، وباسم إله إسحاق، وباسم إله يعقوب، فصارت الأحجار حجراً واحداً،

وبعد مراوغة مع جالوت ضربه بمقلاعه الذى اخترق الجُنة التى كانت على رأسه، وقالوا : كان وزنها ثلاثمائة رطل حديد، فاخترقته، ودخلت فى جبهته وخرجت من قفاه، ثم قتلت ثلاثمائة رجل خلفه ...!!!

فهذه واحدة من الإسرائيليات فى قصة داود، ذكرت فى تفسير هذه الآية التى نحن بصددها، وليس الأمر كذلك، بل كل هذا من الكذب والاختلاق، والهراء والنفاق.

وإنما أراد الله العبرة فى القصة، أنه لما واجه حزب الإيمان - وهم قليل - من أصحاب طالوت، لعدوهم أصحاب جالوت - وهم عدد كثير -

﴿**قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وثبت أقدامنا**﴾ - أى عند لقاء الأعداء - وانصرنا على القوم الكافرين،

فكانت النتيجة لهذا الإيمان والدعاء والتوكل على الله، ﴿**فهزموهم بإذن الله**﴾، أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم، وقتل داود جالوت، ولا يهمنا كيف قتله، ولكن الله أراد رفعة داود - فى الوقت الذى أراد اليهود ضعته - وآتاه الله الملك الذى كان بيد طالوت، والحكمة التى هى النبوة، قيل بعد "شمويل" وعلمه مما يشاء، و﴿.. **ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم**﴾(١).

١- سورة الحديد: ٢١.

" لا إكراه في الدين "

(١١) يقول الله تعالى: ﴿**لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن با لله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها وا لله سميع عليم**﴾(١).

فهذه الآية الكريمة واحدة من بين عشرات الآيات المظلومة، فكم وضعت في غير موضعها، واستدل بها في غير محلها.

ومثاله: سمعنا بمن يرتد عن دين الإسلام - والعياذ با لله - ثم وجدنا من يدافع عنه باسم "لا إكراه في الدين" ويقول: ما دام لا إكراه في الدين فلا يضيره أن يرتد عن الإسلام وأن يختار ما يشاء من دين، ويردفها بقوله تعالى: ﴿**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**﴾(٢).

وهذا مسلم لا يصلي- مثلا، فنقول له: لم لا تصلي؟ فيقول: لا إكراه في الدين.

وهذه مسلمة لا تتحجب مثلا، فنقول لها: لماذا لا تتحجبين يا أمة الجبار؟

فتقول لك: لا إكراه في الدين، أنا حرة.

وهناك من يرضى من الإسلام بالعبادات دون المعاملات، أو بالشعائر دون الشرائع، فنقول له: أين أنت من شمولية الإسلام؟

فيقول: أنا حر، أحب ما أشاء، وأكره ما أشاء، آخذ ماشئت، وأدع

١- سورة البقرة: ٢٥٦. ٢-سورة الكهف : ٢٩ .

ما شئت، إذ "**لا إكراه فى الدين**".

ويهدم الدين لبنة لبنة باسم الدين وباسم "**لا إكراه فى الدين**"!!.

وهذا ثالث يقول: "**إذا كان لا إكراه فى الدين**" فلماذا الجهاد فى سبيل الله؟ وفيه معنى الإكراه على دخول الدين، فكيف يتفق هذا مع ذاك؟

فهذه أمثلة للفهم الخاطىء لتلك الآية الكريمة، ولك أن تقيس عليها، وتأمل كيف فهمت الآية؟ ولو كانت على نحو ما زعموه، ما كفر كافر ولا ضل ضال!! إن الآية بهذا المعنى تتناقض مع الدين كله، فهى تعارض قول الله تعالى: ﴿**وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً**﴾(١).

وتعارض قوله تعالى: ﴿**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً**﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله**﴾(٣)، وغير ذلك وهذا غير معقول ولا مقبول، لأن القرآن لا يتعارض مع نفسه، ولا يتناقض فى أحكامه ﴿**أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا**﴾(٤)

١- سورة الأحزاب: ٣٦.

٢-سورة النساء :٦٥ .

٣- سورة الأنفال : ٣٩ .

٤-سورة النساء :٨٢.

ولذلك فالآية تحتاج إلى فهم صحيح، وفكر واعى، وعقل نير، وقلب سليم.

"لا إكراه فى الدين" نعم، ولكن كيف ومتى؟

فالله تعالى يبين فى الآية **"لا إكراه فى الدين"** أى لا تكرهوا أحدا على الدخول فى دين الإسلام، فإنه بين واضح جلى فى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه **الله** للإسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة، ومن أعمى **الله** قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول فى الدين مكرهاً مقسوراً، لأن هذا الدين أساسه الاعتقاد، وأساس المعتقد هو الإيمان، ومحل الإيمان هو القلب كما فى الآية **﴿أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان﴾**(١).

وقد يكون للإنسان سيطرة على لسان إنسان أو جسده، فيكره على أن يقول أو يعمل، ولكن لا سبيل إلى قلبه، ولا يطلع على ما فى القلوب إلا **الله** تعالى علام الغيوب، فما قيمة إكراهه على الدين، أو إجباره على الإسلام، لذلك لا يجوز الإكراه فى الدين، وعندما يتم الإكراه على الإسلام ظاهراً يكون هذا نفاقاً، وليس اقتناعاً، والله عز وجل يريد من المرء أن يؤمن بكامل الرضى والطواعية، مع الإذعان والانقياد.

لا بد وأن يسلم المرء قلباً وقالباً، ويؤمن راضياً مختاراً، ولذلك **"لا إكراه فى الدين"**.

١-سورة المجادلة :٢٢.

هذا وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار ، وإن كان حكمها عاماً.

فعن ابن عباس -رضى الله عنهما- قال: كانت المرأة تكون مقلاتا فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل **﴿لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى﴾**(١) كما روى نحوه فيمن تنصر ولداه، وكان رجلاً مسلماً فأراد أن يكرههما على الإسلام، وقد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك.

فالآية تنفى أن يجبر إنسان على الإسلام، ولا عبرة بقول من قال هى منسوخة بآية القتال أو غيرها، لأن الله عز وجل فرض القتال، وفرض الجزية، ولكن تبقى الآية على معناها وبعمومها، شريطة أن تفهم فهما صحيحا، فقوله تعالى: **"لا إكراه فى الدين"** هذا قبل أن يسلم المرء وقبل أن يدخل فى الدين، ثم هو بما منحه الله من نعمة العقل، وتوج ذلك بإرسال الرسل وقد بلغته رسالة رسول، وقرأ الكتاب، ليختار الدين الصحيح، ثم أبى إلا الكفر، فقد اختار طريقه وله جزاؤه، **﴿وقل الحق من ربكم فمن**

١- أخرجه أبو داود فى الجهاد (٢٦٨٢)، والبيهقى فى السنن الكبرى (١٨٦/٩)، والطبرى فى التفسير (١٤/٣)، وابن حبان (١٤٠) الإحسان. وسنده صحيح وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح أبى داود (٢٣٣٣). والمقلات: هى التى لا يعيش لها ولد.

شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا﴾(١).

وأما من اختار الإيمان طواعية وإختيارا، ورغبة واقتناعاً، وأعلن أنه رضى با لله تعالى رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، فقد صار بذلك عبداً لله تعالى فلا يجوز له أن يقول: أنا حر أمام أحكام الله، أحب منها وأكره، وآخذ وأدع، كلا، لست حراً أمام أحكام الله، كما قال الله:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾(٢).

فالاستدلال بالآية فى هذا المجال باطل، يتنافى مع الإيمان الذى أعلنه، ومع التسليم الذى ارتبط به، وصدق ربنا إذ يقول: **﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾**(٣) .

وكيف يصح هذا من وجه من الوجوه، وهذا بعض صفات أهل النفاق.

﴿ويقولون آمنا با لله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين . وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا

١- سورة الكهف: ٢٩.

٢- سورة الأحزاب: ٣٦

٣- سورة النساء : ٦٥

فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله بل أولئك هم الظالمون . إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون . ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون﴾(١).

فهذا حال المؤمن لا يفرق بين حكم وحكم، ولا أمر وأمر، أو نهى ونهى، بل عليه أن يقبل الإسلام بجملته، وينقاد له بكليته،ثم كيف يستشهد بالآية الكريمة على إباحة الكفر، أو جواز الردة، فمن أراد الخروج من الإسلام خرج منه هكذا ببساطة باسم **"لا إكراه فى الدين"؟!!**

فأى دين هذا الذى يدخل فيه المرء ثم يخرج منه، وأى دين هذا الذى يتلاعب به الصبيان؟ إن المنافقين أرادوا أن يفعلوا ذلك **﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون﴾** (٢).

إنه لم يجبرك أحد على الدخول فى الإسلام حتى تبيح لنفسك الخروج منه، فتشكك الناس فى دين الله تعالى.

قد قال النبى ﷺ: **"لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى،والنفس بالنفس ،والتارك لدينه المفارق للجماعة "**(٣)

١- سورة النور: ٤٧ - ٥٢. ٢- سورة آل عمران: ٧٢.
٣- أخرجه البخارى فى الديات (٦٨٧٨)، ومسلم فى القسامة (١٦٧٦)، وأبو داود فى الحدود (٤٣٥٣)

وقال ﷺ : "من بدل دينه فاقتلوه"(١).

لأن الارتداد عن الإسلام يسلخ المرتد عن المجتمع ويسلبه حق الحياة، وهذا الحكم شغب عليه بعض الناس، ورأوه مصادرة لحرية الرأى، وحرية التدين، والحق كل امرئ أن يؤمن إذا شاء وأن يكفر إذا شاء، ونحن نحترم حق أى إنسان أن يؤمن وأن يكفر، ولكن هذا الحق يتقرر لصاحبه وهو فرد لم تتضح له الأمور، إن له أن يدرس ويوازن ويرجح، وأن يبقى على ذلك طول عمره، فإذا آثر الوثنية أو اليهودية أو النصرانية لم يعترضه أحد، ويبقى له حقه كاملا فى الحياة - حياة آمنة هادئة - وإذا آثر الإسلام فعليه أن يخلص له ويتجاوب معه فى أمره ونهيه وسائر هديه. وهنا نتساءل : هل من حرية الرأى عند اعتناق الإسلام أن نكسر قيوده ونهدم حدوده؟ أو بتعبير آخر : هل حرية الرأى تعطى صاحبها فى أى مجتمع إنسانى حق الخروج على هذا المجتمع ونبذ قواعده ومشاقة أبنائه؟ هل خيانة الوطن أو التجسس لحساب أعدائه من الحرية؟ هل إشاعة الفوضى فى جنباته والهزء بشعائره ومقدساته من الحرية؟

إن قضية الارتداد تحتاج إلى إيضاح لتعرف أبعادها، فالإسلام معروض للأغمار والعباقرة على أنه عقيدة وشريعة، وكتابه ونهج نبيه يقرران مثلاً أن الله واحد، وأن الآخرة حق، وأن القصاص حق، وأن الصيام حق ...

ومعنى ذلك أن الذى يدخل الإسلام يرتضى كل هذه التعاليم وينفذها،

١- أخرجه البخارى فى الجهاد (٣٠١٧)، وأبو داود فى الحدود (٤٣٥١)، وأحمد (٢١٧/١).

فإذا جاء من يقول : أومن بالله وأرفض الإيمان بالآخرة، أو أومن بهما و أرفض شريعة الصيام، وشريعة القصاص، وما أشبه ذلك ...

فهل يترك هذا الشخص يعبث بدين الله على هذا النحو؟ كلا إما أن يثوب إلى رشده، ويرجع إلى الجماعة، أو لا، فالخلاص منه حتم، ولا نتهم جماعة تؤمن وجودها وتصون حقيقتها وتزود العبث عن كيانها.

ـ وان الارتداد وسيلة للطعن فى الإسلام، ولعب بالدين واستهانة بحقه، استغلها اليهود قديماً، ويستغلها النصارى حديثاً عن طريق عصابات من المبشرين. ومن حق هذه الأمة المظلومة أن يحموا عقائدها وشرائعها ويردوا عنها كيد المتربصين، ومؤامرات الحاقدين. وعلى المسلمين أن يدافعوا عن دينهم بالوسائل المشروعة كلها، وفى جو من الوضوح.

ثم يقال فى الرد على الزعم الثالث حول الآية: اذا كان لا إكراه فى الدين فلماذا الجهاد فى الإسلام؟ ونسارع بالرد فنقول : إنه لا صلة بين القتال والإكراه فى الدين، كما لا صلة بين انتشار الإسلام والجهاد، فإن الله عز وجل فرض الجهاد ليحرر إختيارا، لا ليكره مختارا.

فما معنى هذا؟ إن من الناس من يريد أن يسلم ولكنه لا يستطيع، لأن أئمة الكفر يحولون بينه وبين ذلك، فهو يخشى الطواغيت، فيأمر الله عز وجل بإزالة تلك الرؤوس العفنة، وإزاحة تلك الطواغيت الباغية لتتاح الفرصة للشعوب المضطهدة، وللجماهير المستذلة أن تأخذ حقها فى أن تعبر

عن رأيها فى أن تختار ما تشاء من دين، ومن ثم قال رب العالمين: **﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله"**(١) كما قال:**"فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون﴾**(٢).

إذا فرض القتال فى الإسلام ليحرر إختيارا، لا ليكره مختارا، فليس لإكراه الناس على الدخول فى الدين، فهذا جهل ذريع.

ولو نظرت فى غزوات النبى ﷺ والفتوحات الإسلامية كلها، ما وجدت واحدة منها فيها إكراه الناس على دخول الإسلام، ولا تحمل هذا المعنى من قريب أو بعيد.

وهذه سيرة النبى ﷺ، وقد ظل ثلاثة عشر عاماً فى مكة، يدعو إلى كلمة التوحيد، ويدعو إلى الدخول فى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة، ويجادل - إن احتاج الأمر - بالتى هى أحسن، ويلقى اضطهاداً وإيذاءً وعنتاً شديداً، ومع ذلك لم يؤمر بقتال، حتى اشتد الإيذاء والاضطهاد، وأذن الله تعالى للمسلمين بالهجرة، ثم بالقتال **﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز﴾**(٣).

١- سورة الأنفال: ٣٩. ٢- سورة التوبة: ١٢.
٣- سورة الحج : ٣٩، ٤٠.

فا لله تعالى أذن بالجهاد للمسلمين بعد الظلم الشنيع الذى وقع عليهم، والأذى الذى أصابهم، وهضم حقوقهم، وأهدر بشريتهم وكرامتهم، أفيعاب ذلك على ا لله تعالى؟!

فالإذن بالجهاد رد للاعتداء كما قال تعالى : **﴿فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم﴾**(١).

فالجهاد منه ما هو رد لاعتداء المعتدين، أو لتأديب الناكثين، أو استرداد حقوق المسلمين، أو تأمين طريق الدعوة أمام جبهات الكافرين.

إن أى دعوة لابد لها من قوة، وقوة الدعوة الإسلامية هى الجهاد، وأى دعوة بلا قوة فإنها تستأصل أو تباد، وواقع الناس أصدق دليل وخير برهان،

لقد عز المسلمون مع الجهاد فى سبيل ا لله، فلما أخلدوا إلى الأرض ورضوا بالحياة الدنيا من الآخرة، وتقاعسوا عن الجهاد صاروا نهباً لكلاب البشر، كما صاروا أذل خلق ا لله فى أرض ا لله، بل ذلوا لمن كتب ا لله عليهم الذلة والمسكنة !!

فمن يرحمهم ومن يدافع عنهم؟ إنه الجهاد فى سبيل ا لله، ورفع رايته أمام الأعداء، فهذه البوسنة والهرسك، والشيشان وفلسطين .... الخ.

أدلة واقعية تثبت للقاصى والدانى أن أمة تترك الجهاد تصير فريسة للكلاب، ونهبا للذئاب، وتباد مع من باد، ولا سبيل ولا منجى إلا مع الجهاد فى سبيل ا لله ،

١- سورة البقرة : ١٩٤.

" شهادة المرأة "

(١٢) قال تعالى - في آية الدَّين : ﴿... **واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ...**﴾(١).

والشبهة أثارها بعض أعداء الإسلام، وردّدها بعض المنتسبين إليه، أو هي ألفها المستشرقون، وكررها المستغربون، يقولون : الإسلام ظلم المرأة لما جعلها نصف الرجل في أمور، منها "الشهادة" فجعل شهادة المرأتين كشهادة الرجل،

ونسارع بالرد فنقول : نعم، إن الإسلام فرق بين الرجل والمرأة في الشهادة.

ولكن يجب أن يعلم أن الإسلام لايعتد بشهادة المرأة مطلقاً في بعض الأمور الخطيرة كالشهادة على حادث يوجب حداً كحد الزنا مثلاً، لما في ذلك من صون للمرأة والمحافظة عليها.

وفي المقابل يعتد بشهادة النساء وحدهن في الشئون النسوية الخاصة التي لا يعرفها غير النساء، وتقبل شهادة المرأة الواحدة في ذلك، في الوقت الذي ترد فيه شهادة الكثير من الرجال.

وجعل شهادة المرأتين - فيما عدا هذا وذاك - معادلة لشهادة رجل واحد على شرط أن يشهد معهما رجل بما شهدتا به، فلماذا؟

ويرجع السبب في ذلك إلى ما ركبه الله في طبيعة المرأة، فقد اقتضت

١- سورة البقرة : ٢٨٢.

حكمته البالغة أن تكون ناحيــة العاطفـة فـى المرأة مرهفـة، وأن يكـون وجدانها أقوى مظاهر حياتها النفسية، حتى يتاح لهـا أن تـؤدى أهـم وظيفـة من وظائفها، وهى وظيفة الحضانة والأمومة على خير وجه، فـلا يخفـى أن هذه الوظيفة تحتاج إلى عاطفة مرهفة ووجدان رقيق وحنان رحيـم أكـثر مما تحتـاج إلى التفكـير والإدراك والتـأمل، فليـس إذن عيبـا فـى المـرأة أن تكـون عاطفتها أقوى من تفكيرها، بل إن ذلك من صفات كمالها وكمـال أنوثتهـا وأمومتها، وقوة ناحية الوجدان لدى المرأة تجعل عاطفتها تطغى أحيانـا علـى ما وصل إلى إدراكها وتمتزج بعناصره، فتشكله صورة أخرى وتغير كثيراً من حقيقته من حيث لا تشعرهن بذلك ... فاقتضت العدالة أن يتخذ شيء مـن الاحتياط حيال شهادتها - صونا لها ومحافظة عليهـا - فاسـتبعدت شـهادتها فى الأمور المؤدية إلى نتائج خطيرة كالشهادة على الزنا، وقد بنى الاطمئنـان النسبى إلى شهادة المرأتين واعتبارها كشهادة رجل، وبنى هـذا علـى أسـاس نفسى سليم، وذلك أنه يندر أن يكـون الاتجـاه العـاطفى الـذى سـيطر علـى إحداهما فأبعد شـهادتها عـن الواقـع هـو الاتجاه نفسـه الـذى تسـلط علـى الأخرى، فتصلح كلتاهما ما فى شـهادة الأخـرى مـن زيـف غـير مقصـود، وتذكر كلتاهما الأخرى بحقيقة ما ضلت فيه وما حرفته عاطفتها عن موضعه،

وهذا هو الذى أشار إليـه القـرآن الكريـم، مبينـا هـذا الحكـم والسـبب القائم عليه فى عبارة موجزة بليغة **﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم فـإن لم يكونـا رجلين فرجـل وامرأتـان ممـن ترضـون مـن الشـهداء أن تضـل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ..﴾**

فقوله تعالى ﴿أن تضل﴾ له تفسيران : تضل بمعنى تنسى وقد بينه مفهوم المخالفة "فتذكر إحداهما الأخرى" وأما معنى الضلال الذى هو ضد الهدى، ومثاله على المعنى الأول : على نحو ما أشرت من قوة عاطفة المرأة ووجدانها، ولاهتمامها بوظيفتها الأساسية التى ميدانها البيت - وليست الحياة الصاخبة - بما تقوم به من أمور وتربية ورعاية لجانب خطير فى المجتمع الإنسانى، فلهذا ولغيره هى كثيراً ما تنسى، والإنسان -عموماً- ينسى، لكن النسيان يكثر فى النساء عن الرجال، وذلك راجع إلى ما ركبه الله فى طبيعة المرأة.

فإذا نسيت إحداهما ذكرتها الأخرى : فكان ذلك صوناً للمرأة، وضماناً فى صدق الشهادة.

وأما صورته على المعنى الثانى : لما كانت المرأة بطبيعتها العاطفية المتدفقة السريعة الانفعال، مظنة أن تتأثر بملابسات القضية "فتضل" عن الحقيقة، روعى أن تكون معها امرأة أخرى فتذكرها، فقد يكون المشهود له أو عليه امرأة جميلة تثير غيرة الشاهدة !!

أو يكون فتى أو شاباً وسيماً يثير كوامن الغريزة، فتغير شهادتها تصنع معروفاً تنتظر مكافأته، أو تكون الشاهدة أماً، والمشهود عليه شاباً فى سن أبنائها!! فتتحرك عاطفة الأمومة عندها إلى آخر هذه العواطف التى تدفع إلى الضلال بوعى أو بغير وعى .

ولكن من النادر جداً حين تحضر امرأتان في مجال واحد، أن يتفقا على تزييف واحد دون أن تكشف إحداهما خبايا الأخرى، فتظهر الحقيقة!!

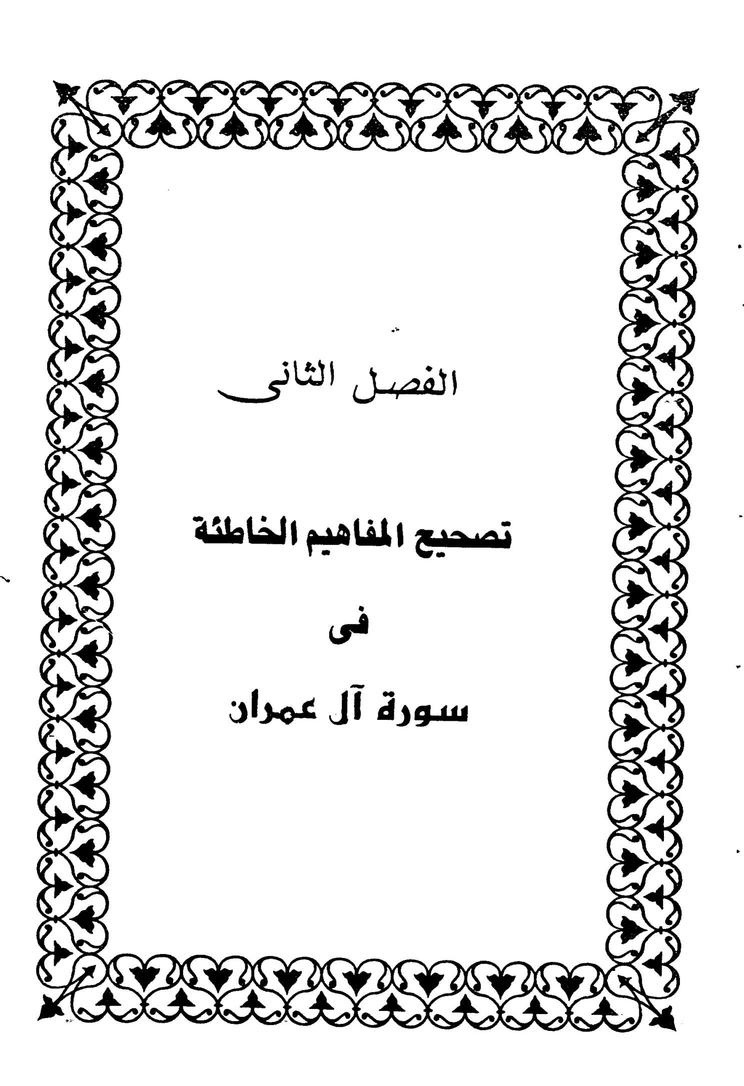
وبعد بيان معنى الآية بقي أن نسأل أنفسنا : هل في هذه الحالة تعتبر شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد دليل على أن المرأة تساوى نصف الرجل كما زعموا ؟!!

أم أن الإسلام أراد أن يحافظ عليها، وأرادها لوظيفتها، أراد صرفها إلى ما خلقت له، وإلى ما يناسب خصائصها العتيدة، ومهامها العظيمة، فليس من شأن المرأة الاشتغال بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، ومن هنا تكون ذاكرتها فيها ضعيفة، ولا تكون كذلك في الأمور المنزلية التي هي شغلها فإنها فيها أقوى ذاكرة من الرجل، ومن طبع البشر عامة أن يقوى تذكرهم للأمور التي تهمهم ويمارسونها ويكثر اشتغالهم بها.

كما أنه إجراء روعي فيه توفير كل الضمانات في الشهادة، سواء كانت الشهادة لصالح المتهم أو ضده، فالله أكبر، ما أعظم الإسلام وما أجمله لمن فقهه وفهمه(١).

و الحمد لله رب العالمين.

١- راجع، المحلى لابن حزم جـ١١، ص ٢٩٦، وحقوق الانسان في الإسلام للغزالي ص ١٠٨، ١٠٩، وهذا ديننا للغزالي ص ٤١، وشبهات حول الإسلام، محمد قطب ص ١٢٠، ١٢١، الإسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة للبهي ص٤٣-٤٦.



الفصل الثانى

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة آل عمران

الفصل الثانى

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى " سورة آل عمران "

" معنى الحب فى الإسلام "

(١) قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون ا لله فاتبعونى يحببكم ا لله ويغفر لكم ذنوبكم وا لله غفور رحيم**﴾ (١).

- والفهم الخاطئ لهذه الآية يتمثل فى زعم معين، أن ناساً يحبون ا لله ورسوله،

وزعموا أنه حب باللسان أو هيام بالوجدان، أو شوق ونسيان، أو فناء وسكران، فترى أناسا يزعمون هذا الحب، وكل الذى عملوه أنهم هاموا على وجوههم، وانطلقوا يتنقلون بين أضرحة الأولياء والصالحين ويحضرون موالدهم.

يزعم الواحد منهم محبة ا لله وهو لا يعرف لله حقاً، ولا يؤدى له فرضا ولا نفلاً.

ويزعم أنه يحب الرسول ﷺ وهو لا يلتزم له بسنة، ولا يتمسك له بهدى.

بل ربما لا يؤدى أى طاعة بزعم أنه محب، وأنه وصل فسقط عنه التكليف!!

ومع هذا كله يزعم أنه يحب ا لله ورسوله وأولياءه الصالحين!!.

وكذبا هذا الذى زعموه ﴿**كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا**﴾(٢).

---

١ - سورة آل عمران : ٣١.

٢- سورة الكهف : ٥

فليس الحب زعما ولا ادعاءً ولا كلاما، بل الحب في الإسلام مبني على الطاعة والاتباع، وهذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال **"من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"** (١)،

ولهذا قال ﴿**إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم، وهذا أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَ، إنما الشأن أن تُحَبَ.

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ ثم قال : ﴿**ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾ أي باتباعكم الرسول ﷺ يحصل لكم هذا من بركة اتباعه، ثم قال تعالى ﴿**قل أطيعوا الله والرسول**﴾ مبينا أن طاعة الرسول من حنس طاعته كما قال: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾(٢) وقوله ﴿**فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين**﴾(٣) أي إن خالفتم أمره وطريقته، فإن الله لا يحب الكافرين، فدل على أن مخالفته في الطريقة كفر، والله لا يحب من اتصف بذلك وإن ادعى وزعم في نفسه أنه

١-اخرجه البخاري في :الاعتصام باب(٢٠)، وفي الصلح (٢٦٩٧)،ومسلم في الأقضية (١٧١٨)، وأبو داود في السنة (٤٠٦٠).

٢-سورة النساء : ٨٠ ٣-سورة ال عمران:٣٢

محب لله ويتقرب إليه حتى يتابع الرسول النبى الأمى ﷺ (١) وصدق من قال : **تعصى الاله وأنت تزعم حبه هذا لعمرك فى القياس شنيع**

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

و الحب فى الإسلام له منزلة عظيمة، ومكانة سامية، ودرجة سامقة، فالحب يأتى بعد الإيمان، وهو ركن ركين من التوحيد، وهل الدين إلا الحب فى الله والبغض فى الله؟

إذا كان لله تعالى - أكمله وأتمه - كان توحيدا، وما كان لغير الله - بمنزلة ودرجة ما هو لله - كان شركا، كما قال تعالى : ﴿**ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله..**﴾(٢). فهو قضية إيمان وكفر، قضية توحيد وشرك

ولذلك يجب أن يقدم حب الله تعالى على ماسواه، ولايشاركه فيه غيره، ولايدانيه سواه.

ثم يأتى حب النبى ﷺ.ومن الجهل أو الشرك أن يحب أناس النبى محمداً ﷺ كحبهم لله أو أشد،

كما يبدو ذلك من كثير من المتصوفة والجهلة بحكم العاطفة أو غيرها، لابحكم الدين.بل حب الله تعالى أولاً، ثم حب رسوله ﷺ، ثم حب بقية الأنبياء والرسل ﴿**لانفرق بين أحد منهم**﴾ (٣) ثم حب الصحابة رضوان الله عليهم،

١- تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٣٥٨ بتصرف
٢- سورة البقرة : ١٦٥. ٣-سورة البقرة :١٣٦ .

بدءاً بالخلفاء الراشدين "أبى بكر وعمر وعثمان وعلى" ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة "طلحة والزبير وسعد وسعيد وعبد الرحمن بن عوف وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهم أجمعين"، ثم بقية آل البيت، ثم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، على رأسهم "أهل بدر"، ثم عامة الصحابة رضى الله عنهم، ثم من تبعهم بإحسان يترأسهم الأولياء والشهداء، والعلماء وسائر الصالحين.

ثم نحب إخواننا فى الله، ونحب والِدَيّنا وأولادنا وأزواجنا وعشيرتنا وأموالنا وأوطاننا ونحو ذلك،

فهذه درجات فى الحب ومنازله، لا يجوز تغييرها بتقديم أو تأخير، وفعل ذلك يؤدى إلى فساد كبير، فكيف يقدم حب على رضى الله عنه- مثلاً، على حب أبى بكر وعمر، وكذا عثمان؟!!

وكيف يقدم حب الأنصار على المهاجرين؟ بل كيف يقدم حب الزوجة والولد والعشيرة مثلاً على حب الله ورسوله وحب الجهاد فى سبيله، فهذا فساد فى الدين وفسق لا يرضى رب العالمين، قال تعالى: **﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين﴾**(١).

١-سورة التوبة : ٢٤.

فالحب في الإسلام له قواعد وضوابط، وليس كما زعمت المتصوفة.

والفهم الخاطىء لمعنى الحب أورث الناس شركا خطيرا، مع أن الآية الكريمة واضحة تبين المفهوم الصحيح لكلمة "الحب" **﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾**. شرط وجواب الشرط .

فملخص أمر الحب ومعناه هو الاتباع، فليس حب الله وحب رسوله ﷺ، كحب الوالد لولده، أو حب الزوج لزوجه، وليس هو شوقاً ولا عشقاً، ولا طرباً ولا هياماً، ولا انجذاباً ولا حنوناً.

بل هو اتباع وطاعة لله ولرسوله ﷺ، باتباع القرآن والسنة،

فيا من تدعى حب الله! أين أنت من اتباع أوامره واجتناب نواهيه؟

ويا من تدعى حب الرسول ﷺ: أين أنت من اتباع سنته، والتمسك بهديه، والتخلق بأخلاقه والسير على طريقته؟ **﴿وما ءاتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾**(١) كما أننا نحب الأولياء والصالحين، وليس ذلك بالتمسح بالأخشاب، والتبرك بالأبواب، والسجود على الأعتاب، ودعائهم أو التوسل بهم من غير إذن من الملك الوهاب، وهو وحده الذى إذا دعى أجاب، وليس الأولياء أوالأقطاب، ولا الأبدال والأنجاب.

إنما نحب الأولياء والصالحين، باتباع المنهج المبين، والسير على درب المتقين، حتى نصل إلى سبيل المفلحين، ومن سار على الدرب وصل،

١- سورة الحشر : ٧.

ورحلة الألف ميل تبدأ بخطوة، وأول الغيث قطرة، فنقلد الأولياء ونتبعهم، ونترسم خطاهم، ونزورهم ونصلهم، ونطلب الدعاء منهم، هذا فى حياتهم،

وأما بعد مماتهم، فلا نبخل عليهم بدعائنا لهم، وزيارتنا لقبورهم، والاتعاظ بحالهم، إذا خلت قبورهم من المنكرات، و لم ترفع فوقهم المقامات، و لم تشيد عليهم القباب والبنايات.

هذا وكم أورث الفهم الخاطىء للحب خللاً جسيما، وخطأ عظيماً، وإثماً مبيناً، بل شركاً وضلالاً كبيراً، فيجب أن نحذر من الوقوع فى الشركيات، أو نعود إلى الجاهليات، ونزعم أن هذا هو الحب!!.

ورحم الله الإمام الطحاوى قال - فى هذا المجال: "ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط فى حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض من يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان، ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبى بكر الصديق رضى الله عنه، تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة، ثم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه، ثم لعثمان رضى الله عنه، ثم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون، وإن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة نشهد لهم بالجنة، على ما شهد لهم رسول الله ﷺ وقوله الحق وهم "أبو بكر، وعمر، عثمان،وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة ابن الجراح وهو أمين هذه الأمةرضى الله عنهم أجمعين".

"تأمين البيت الحرام"

(٢) قال تعالى: ﴿**إن أول بيت وضع للناس الذى ببكة مباركا وهدى للعالمين. فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا و لله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن ا لله غنى عن العالمين**﴾(١).

والشاهد فى الآية هو قوله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾.

- إذ انتهز أعداء الإسلام – منَصرون ومستشرقون ومغرضون ونحوهم – الأحداث التى وقعت فى الحرم سنة ١٤٠٠هـ بدخول أناس مسلحين لبيت ا لله الحرام، فروعوا الآمنين به، فكيف يقول ا لله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ وقد حدث فيه كل ما حدث مما يتعارض مع القرآن، أو يكذب القرآن؟!!

هذه هى الشبهة التى طار بها النصارى واليهود وغيرهم آنذاك، فملأوا بها الدنيا اتهاماً للقرآن، وتشكيكاً فى الإسلام!!

فنقول بتوفيق الملك العلام: إن قوله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ هو خبر يحمل معنى الأمر، أو أمر جاء فى أسلوب الخبر، ليكون ذلك أدعى لسرعة الاستجابة، بمعنى أنه مطلوب أن يتحول هذا الأمر خبراً فى التو واللحظة، فكأن ا لله تعالى يقول: يا أيها المسلمون أمّنوا من دخل المسجدالحرام ولا تعتدوا عليه، فإذا اعتدى أحد على الذين فى المسجد الحرام فليس هذا تكذيبا لله-حاشا لله-وإنما هو مخالفة من البشر لأوامر ا لله تعالى:

١-سورة آل عمران: ٩٦-٩٧.

﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ هذا حق لا جدال فيه، ومع ذلك فا لله تعالى

يقول: ﴿**ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين**﴾(١). فدلت الآية الكريمة على أن هناك عدواناً سيقع على البيت الحرام،كيف ذلك؟ ﴿**فإن قاتلوكم فاقتلوهم**﴾ أين ذلك؟

عند المسجد الحرام. فيجب فهم ذلك، وقوله تعالى: ﴿**ومن دخله كان آمنا**﴾ أمر من ا لله للأمة.

ومن ضروب البلاغة فى القرآن أن يأتى الخبر فى صورة الإنشاء، ليكون ذلك دليلاً على أن المخاطب به قد امتثل الأمر،

كقوله تعالى: ﴿**والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين**﴾(٢)، و لم يقل أيتها الوالدات أرضعن أولادكن، فجاء بدل الأمر بصيغة الخبر، وذلك ليكون فيه صورة على أن المخاطب قد استمع لأمر ا لله وعمل به، ليكون فيه حث على تنفيذ أوامر ا لله،

وكقوله تعالى: ﴿**لا تجد قوما يؤمنون با لله واليوم الآخر يوادون من حاد ا لله ورسوله ولو كانوا آباءهم أوأبناءهم أو إخواتهم أوعشيرتهم...**﴾ (٣)

١- سورة البقرة : ١٩١.
٢-سورة البقرة :٢٣٣.
٣-سورة المجادلة : ٢٢.

فهنا جاء النهى فى صورة الخبر بدليل أن (لا) لو كانت ناهية لجزم الفعل بعدها مع أنه يريد النهى كقوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان﴾ (١) .

فكذلك الآية التى نحن بصددها، فا لله يريد أن يقول للمسلمين: لا تعتدوا على حرمة المسجد الحرام، وأمنوا المسجد الحرام،

فإذا قال ا لله: **﴿وأقيموا الصلاة﴾** (٢)، فإذا لم يقم الناس الصلاة أيكون تكذيباً أم يعتبر مخالفة لأمر ا لله؟ فإذا خالف البشر أمر ا لله أيعد ذلك تكذيباً لله؟ إن أسلوب الإنشاء لا يحتمل الصدق والكذب.

فأى تكذيب فى هذا؟

قال تعالى: **﴿يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل ا لله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند ا لله ...﴾** (٣).

١- سورة التوبة : ٢٣.
٢-سورة البقرة :٤٣.
٣-سورة البقرة : ٢١٧.

"تحريم الربا قل أو كثر"

(٣) قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ (١).

والفهم الخاطىء يتمثل فى الخطأ بالاستدلال بالآية على أن الربا الذى حرمه الله، شرطه أن يكون أضعافاً مضاعفة، أما ما كان يسيراً منه فإن الله يتجاوز عنه!! ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ (٢).

وأعتقد أن هذا من التلبيس أو التدليس، يضحك به قوم على البله من الناس كماضحك عليهم ابليس، حتى يبيحوا لأنفسهم التعامل بالربا الذى حرمه الله فى قرآنه، كما حرمه الرسول ﷺ فى سنته.

والأمر فى ذلك واضح جلى، فقد حرم الله تعالى الربا على طريقة التدرج، كما كان ذلك فى تحريم الخمر وغيره فقد أنزل الله تعالى أول ما أنزل فى شأن الربا قوله تعالى: ﴿وما ءاتيتم من رباً ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله وما أتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون﴾ (٣).

ثم أنزل قوله سبحانه: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ كمرحلة ثانية،

١- سورة آل عمران : ١٣٠.
٢-سورة الكهف : ٥.
٣- سورة الروم : ٣٩.

ثم أنزل قوله تعالى: ﴿**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل ا لله البيع وحرم الربا..**﴾ .

حتى قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا اتقوا ا لله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من ا لله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون**﴾ (١).

فلا يقولن قائل بعد نزول هذه الآيات - إنما حرم الربا أضعافاً مضاعفة!!.

كما لا يقول قائل: إنما حرم الخمر وقت الصلاة، لقوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون..**﴾ (٢)، بعد أن نزل قوله تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنو إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنما يريدالشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر ا لله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون**﴾(٣)، لقد حرم ا لله الربا كله،كماحرم الخمر كله،كماحرم الموبقات كلها والذنوب جميعها، وأعلن الحرب على المرابيين، ووعدهم بالمحق، وما زاغت الأمة أو ضلت السبيل إلا بتعاملها بالربا الذى حرمه ا لله تعالى، حتى عم بلاؤه وكثر وباؤه، وانتشر خطره، وعم ضرره، فلم يكد ينجو منه بر ولا فاجر، ولا مؤمن ولا كافر، فلاحول ولا قوة.

١- سورة البقرة : ٢٧٥-٢٧٩. ٢- سورة النساء : ٤٣.
٣- سورة المائدة : ٩٠-٩١.

"هل كل من يفرح يعذب؟"

(٤) قال تعالى: ﴿**لاتحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم**﴾ (١).

والفهم الخاطىء يتمثل في الأخذ بظاهر الآية، وهو فرح الإنسان بما أتى، أو حبه أن يحمد بما لم يفعل يعذب على ذلك.

ويتضح هذا المعنى في هذا الأثر:"عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أخبر أن مروان قال: اذهب يا رافع - لبوابه - إلى ابن عباس فقل: لئن كان كل امرىء منا فرح بما أتى، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذباً، لنعذبن أجمعين، فقال ابن عباس: ما لكم وهذه، إنما نزلت هذه في أهل الكتاب،ثم تلا ابن عباس ﴿**وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس مايشترون. لاتحسبن الذين يفرحون....**﴾ الآية.

وقال ابن عباس: سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ما سألهم عنه(٢).

وجاء في معناها أيضاً ما رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري: أن رجالاً من المنافقين في عهد رسول الله ﷺ كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ

١- سورة آل عمران : ١٨٨.
٢- أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٦٨)، ومسلم في المنافقين (٢٧٧٨).

إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه وحلفوا، وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت﴿لا تحسبن الذين يفرحون﴾ الآية(١).

وروى ابن مردويه -أيضاً- عن ثابت ابن قيس الأنصارى قال يارسول الله، والله لقد خشيت أن أكون هلكت، قال: لم؟ قال: نهى الله المرء أن يحب أن يحمد بما لم يفعل، وأجدنى أحب الحمد، ونهى الله عن الخيلاء وأجدنى أحب الجمال، ونهى الله أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا امرؤ جهير الصوت، فقال رسول الله ﷺ "أما ترضى أن تعيش حميداً، وتقتل شهيداً، وتدخل الجنة"، فقال: بلى يارسول الله، فعاش حميداً، وقتل شهيدا، يوم مسيلمة الكذاب.

هذا وقد جاء فى معناها العام أيضا، أنها تعنى المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء فى الصحيحين عن النبى ﷺ "من ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم تزده من الله إلا قلة" وفى الصحيحين أيضا: "المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبى زور" هذا والله أعلم.

١- أخرجه البخارى فى التفسير (٤٥٦٧)، ومسلم فى المنافقين (٢٧٧٧)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/١٩١).

" كيفية ذكر الله تعالى "

(٥) قال تعالى: ﴿**إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**﴾(١).

وموضع الشاهد هو قوله تعالى: ﴿**الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم**﴾ .

والفهم الخاطىء للآية هو ما زعمه المتصوفة أن هذه الآيةتحكى صورة من صور الذكر الجماعى، فى أعيادهم ومناسباتهم التى يسمونها"موالد" وفى حضراتهم فى أضرحة الأولياء، وساحات الدراويش، إذ يقيمون حلقات الرقص - وهم يسمونها بالذكر - فيجلس الشيخ - شيخ الطريقة - بين صفين من دراويش تعشقهم الرذيلة، ودرويشات نفرت منهن الفضيلة، ثم يصفق بيديه اللامعتين من الدسم الحرام، إيذاناً ببدء الذكر، ثم يخرج من شفتيه ومنخريه اسم الله ملحدا فى حروفه وفى النطق به، وغضون جبينه تهمز الحياء، وتلمز التقوى.

هذا ومنشد القوم يطربهم بالغزل الداعر فى "ليلى وسعاد" بما يسمونه "مدح آل البيت" وبالدفوف يدق عليها الشيطان - يزعمون أنها تسبح الرحمن - وبالنايات تصفر فيها الشهوة ثم يهب الشيخ ومعه المريدون،

١- سورة آل عمران :١٩٠-١٩١.

وثمت يميلون يمنة ويسرة، متأودة أعطافهم تأود الراقصات، يلمحن في أيدى الرواد دنان الخمر والمسكرات، وما هى إلا لحظة حتى تجن هذه الأجساد بما فيها من رغبات، ومن هادئ إلى سريع. ومن سريع إلى أسرع، وأمام وخلف، وفوق وتحت، ويمين وشمال، فى سبع طبقات، تهد الجمال، مع تأوه مخنث وتمايل خليع يتنافى وأحوال الرجال؛ وبأصوات منكرة مبحوحة من عويل الخطيئة تسمع الاستغاثة بزينب أو نفيسة، ربما لا يريدون زينب الطاهرة ولا نفيسة العابدة، وإنما كل يغنى على أنثاه،!!

وهكذا يظلون فى اقتراف هذا الزور بالساعات التى قد تستغرق ليلة حتى مطلع الفجر ، ولا فجر بين اختلاط بين الرجال والنساء، وعيون زانية، وزغاريد مغازلة، وخلوة داعرة.

ثم بعد هذا يزعمون أنها كانت من ساعات التجلى!!

وإذا أنكرت عليهم تلك المنكرات. احتجوا عليك بهذه الآيات ﴿**إن فى خلق السموات...**﴾ يزعمون أنهم بذلك يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم، فى بهلوانية رعناء، وبطريقة بلهاء، فى صورة خرقاء، وهيئة عمياء.

ولو أنصفوا لقالوا هـذا فى كتاب الله، فى قوله تعالى: ﴿**وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية**﴾ (١) فذكر الصوفية هو عبادة المشركين، وصلاة الجاهليين، أو هو الذى جاء فى التوراة - فى المزمور التاسع والأربعين بعد المائة: "ليبتهج بنو صهيون بملكهم ليسبحوا اسمه

١- سورة الأنفال : ٣٥.

برقص، بدف، وعود، ليرنموا هللوا يا، سبحوا الله فى قدسه، سبحوه بدف ورقص، سبحوه بأوتار ومزمار، سبحوه بصنوج الهتاف" (١).

فماأشبه الذكرالصوفى بتلك البدعة اليهودية،أوحال عبدة العجل فى اليهودية،

وقد اشتمل على الرقص والدف والعود والطبول وكل ما استحدث من آلات.!!

وإذا كانت تلك صورة مصغرة عن الذكر الجماعى الصوفى، وأخالك تنزع إلى إتهامى بالتقصير أو القصور، فليس أقل من ذلك - بدعة أو خرافة- ذلك الذكر الانفرادى، الذى يوجب الصوفية فيه على الذاكر أن يستحضر شيخه، ويستمد المدد منه، ويلتزم بأوراده وحزبه.

وفى ورده يقول مثلا: يا دَايم (٣٠٠مرة) "وهو ليس من الأسماء الحسنى"

يا الله (١٠٠مرة)، يالطيف (١٠٠٠مرة)، أستغفر الله (٣٠٠مرة..)

ثم يقول: الله الله ويكررها، كذلك: حى حى.. هو هو، قيوم قيوم، ويكرر ذلك.

ثم يشرع يقول بعض الأوراد التى وضعها له شيخ الطريقة. وما أعجب ذلك!!

فمنها -على سبيل المثال - "باسم الإله الخالق الأكبر، وهو حرز مانع مما أخاف وأحذر، لا قدرة لمخلوق مع قدرة الخالق، يلجمه بلجام قدرته،

١-العهد القديم : المزامير ص٦٤١.

أحمى حميثاً، أطمى طميثا، وكان الله قوياً عزيزاً، حم عسق حمايتنا، كهيعص كفايتنا، فسيكفيكم الله وهو السميع العليم(ثلاثا)

"اللهم إنى أسألك بالعرش والكرسى والنور الذى عليه سيدنا محمد ﷺ أن تسخر لى قلب من أحوجتنى إليه،

من أراد لى سوءاً أخذه الله، همساً همساً، لمساً لمساً، لموساً لموساً، مأموناً مأموناً، أنا الأسد، سهمى نفد، منه المدد، لا أبالى من أحد.

ألم نوا، فلووا عما نووا ثم لووا عما نووا، فعموا وصموا عما نووا، فوقع القول عليهم بما ظلموا فهم لا ، أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا.

اللهم آمنا من كل خوف وهم وغم وكرب، كدٍ كدٍ كردِ كردِ كردِ كردِ كردِ دهِ دهِ دهٌ دهٌ.. بها بها بها بهيا بهيا بهيا، بهيات بهيات بهيات طهور بدعق محببة صورة سقفاطيس سقاطيم أمون ق أدم حم هاء أمين..الخ هذا الهراء.

فأى ذكر هذا؟

هل هذا هو الذكر الذى أمر الله تعالى به؟ وهل هكذا ذكر الرسول ﷺ ربه؟ أو هكذا ذكر الصحابة من بعده ربهم؟ ما ذكروه باسمه المفرد، ولا ذكروه فى ميل وتأود، ما ذكروه بقيادة واحد منهم ينطق بالاسم مصفقاً، وينطقون به وراءه، ما ذكروه ولهم منشد يغازل ليلى، ما ذكروه وأصواتهم من ضجيجها تفزع الليل وتصك جنباته، ما ذكروه بالنايات والطبول والدفوف، ولكنهم ذكروه كما علمهم رسوله ﷺ .

ذكر فيه ضراعة وعبودية خالصة، ليس باسم مفرد، ولا ضرب صدر بذقن، ولا هزة الرأس إلى أخمص القدم، ما فيه التناوح بالرأس يمنة ويسرة، ولا نتع من سرة إلى قلب، ما فيه دائرة يقف فى مركزها نصب يرقص الذاكرين بتصديته، والناظر فى السنة المطهرة يرى ذكر رسول الله ﷺ وهو يخرج من قلب مؤمن ضارع، ملأه حب الله وخشيته، رهبة ورغبة وتقوى.

هذا والذى استدل به المتصوفة - من الآية - فى غير محله، وهذا القرآن الذى استشهدوا به، حق أريد به باطل، فهذه **الآية ﴿الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم﴾** تحدثنا عن عموم الذكر فى كل وقت وحين، وعلى كل هيئة وكيفية، وعلى شمولية الذكر فى حياة المسلمين، كما قال تعالى: **﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾**(١).

وقال تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيرا. وسبحوه بكرةً وأصيلا﴾** (٢).

وهى كما قال ﷺ: لعمران بن حصين-"صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب" (٣). وهى عن الذين لا يقطعون ذكرهم لله فى جميع أحوالهم بسرائرهم وضمائرهم وألسنتهم. وهى التى يذكرون الله على كل حالة فى الدخول والخروج، وعند النوم واليقظة، وفى العمل والراحة، وفى الصباح والمساء،

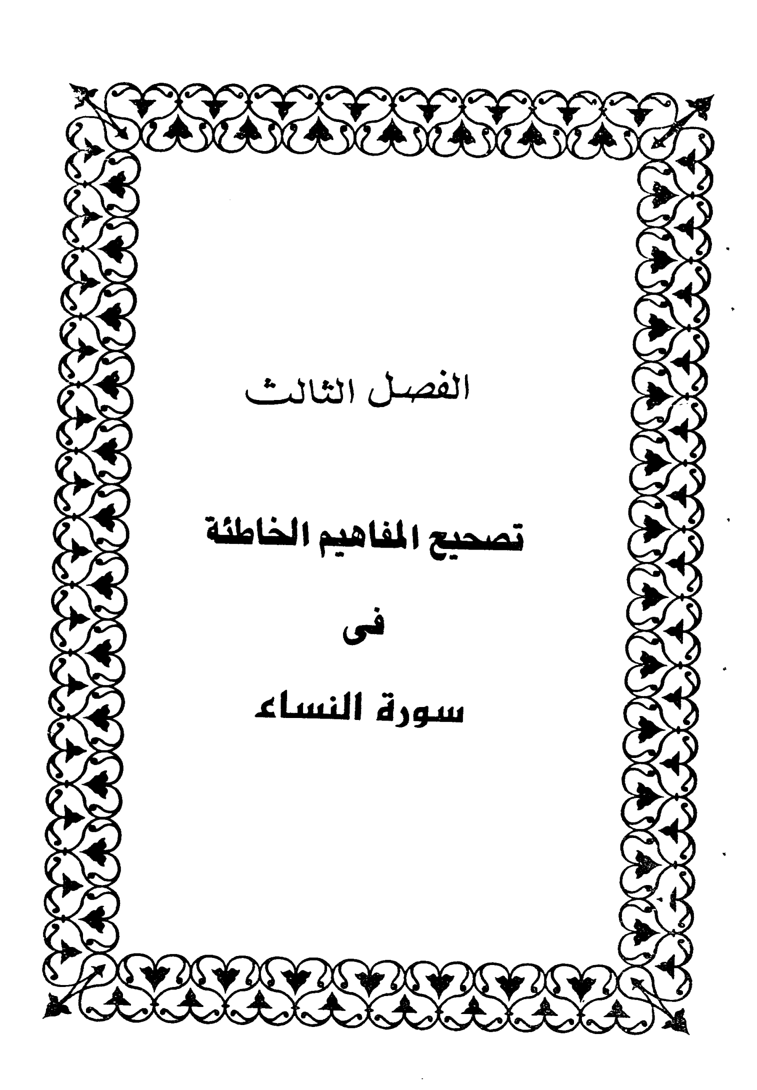
١- سورة الأحزاب : ٣٥. ٢ -سورة الأحزاب :٤١-٤٢.
٣-رواه البخارى فى تقصير الصلاة (١١١٧)، وأحمد(٤/٤٢٦).

وعلى كل حال، وهي من يذكر ا لله بالجهاد، ومن يذكره بالصوم، ومن يذكره بالقرآن، ومن يذكره بالدعاء، هي هذا كله،

فما أعجب استدلال الصوفية على طريقتهم الخرقاء، وبهلوانيتهم الرعناء بهذه الآية التي فيها شفاء ودواء، وأعجب منه أنهم يذكرون ا لله بالاسم المفرد "ا لله، حي . قيوم" ويستدلون على ذلك بقوله تعالى: **﴿قل ا لله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾**(١) متناسين الآية بتمامها، وأن قوله تعالى: **"قل ا لله"** إجابة على سؤال مطول في الآية، وليس معناه أن نذكر ا لله باسمه المفرد، ولو أنصفوا لقالوا: **﴿و لله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾** (٢)، وأعجب من هذا وذاك أن الصوفية يذكرون ا لله على أدوات الموسيقى ومزمار الشياطين، ويستدلون بقول الرحمن **﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾** (٣).

ولو أنصفوا لقالوا إنما هو لهو الحديث **﴿ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل ا لله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين﴾** (٤).

١- سورة الأنعام : ٩١.
٢-سورة الأعراف :١٨٠.
٣- سورة الإسراء: ٤٤.
٤-سورة لقمان :٦.



الفصل الثالث

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة النساء

الفصل الثالث

تصحيح المفاهيم الخاطئة في" سورة النساء "

" ما الحكمة في تعدد الزوجات "؟

(١) قوله تعالى: ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا**﴾(١).

والشبهة تتمثل في الآتي:

أ- ما الصلة بين القسط لليتامى وتعدد الزوجات؟

ب-أليس من ظلم المرأة في الإسلام أن يبيح للرجل تعدد الزوجات، و لم يبح للمرأة تعدد الأزواج؟

جـ- ثم إن هذا التعدد مرتهن بالعدل ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾ وهذا العدل مستحيل، بنص القرآن - في نفس السورة - ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة وإن تصلحوا و تتقوا فإن الله كان غفوراً رحيماً**﴾(٢)

د- وإذا كان التعدد المباح في الآية قد حدد بأربع نسوة، فلماذا تزوج الرسول ﷺ بأكثر من ذلك؟حتى جمع في عصمته في آن واحد تسع نسوة؟

١- سورة النساء : ٣.

٢- سورة النساء : ١٢٩.

هذه مجموع الشبهات حول الآية، مما يدل على فهمها الخاطىء، والذى انبنى عليه الكثير من صور الفساد وألوان الكفر،وهذه الشبهات اشترك فيها مستشرقون، ورددها مستغربون، وقالها دعاة التحرر، وكررها العلمانيرن، وكل من تنكر لهذا الدين،وأراد الخروج عن منهج رب العالمين.

ونبادر بتصحيح هذه المفاهيم الخاطئة – واحدة تلو الأخرى – فى عجالة واختصار،

فنقول وبالله التوفيق:- أما عن الصلة بين القسط لليتامى وتعدد الزوجات، فإن الناظر للآيات العشر الأوائل فى سورة النساء، يجد أن جلها عن اليتامى، فبعد الآية الأولى التى فيها الوصية الجامعة بالأمر بالتقوى، بدأت الآية الثانية فى الحديث عن اليتامى **﴿وآتوا اليتامى أموالهم﴾**

وهى آيات تأمر بالمحافظة على مال اليتيم، والحرص عليه، وعدم قربه إلا بأحسن صور حفظه واستثماره، وبالعدل مع الأيتام، حتى يصل العدل إلى صورة تبين مدى ما وصل إليه الإسلام من عظمة فى تشريعه ورعاية لليتيم والضعيف. وفى الحديث **"إنى أُحَرِّجُ حق الضعيفين: اليتيم والمرأة"(١)**،

فإذا جمعت المرأة بين اليتم والأنوثة، فقد جمعت بين الضعفين، فأولاها الإسلام إهتماماً خاصاً وعناية بالغة بأن يكون العدل فى أفضل صوره وهو

١- أخرجه ابن ماجه (٣٦٧٨)، وقال فى الزوائد: إسناده صحيح رجاله ثقات، وابن حبان (١٢٦٦)، وأحمد (٤٣٩/٢)، والحاكم (٦٣/١) وصححه ووافقه الذهبى. وقوله "أحرج": أى أضيقه وأحرمه على من ظلمها.

القسط الذى يوزن بالشعرة ومثقال الذرة، فقال تعالى: ﴿**وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا..**﴾ لأنه كان الرجل – فى الجاهلية وفى العصر الأول من الإسلام – يربى اليتيمة فى حجره، يكفلها ويصبح وصياً عليها، فإن كبرت فأعجبه جمالها، وسر بمالها، رغب فى الزواج بها، لأنها لا تكلفه شيئاً فهو وصى عليها، وهو ولى أمرها، فيتزوجها بما لها من مال وجمال، دون أن يمهرها أو يعطيها حقها، فنهاهم الله عز وجل عن أن يفعلوا هذا، وأمر بالقسط معهن، وإعطائهن مهورهن كاملة كغيرهن من مهر المثل كاملاً غير منقوص، فإن لم يفعلوا فلهم فى غيرهن سعة وطيب من النساء ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع..**﴾ .

وكما نهى الإسلام عن هذه الصورة التى ليس فيها عدل ولا قسط مع اليتيمات، نهى عن الصورة المقابلة لها، إذ كان الرجل تكون اليتيمة عنده، وليس لها مال ولا جمال، أو كن قليلات المال والجمال فيرغب فى الزواج عنها، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿**ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم فى الكتاب فى يتامى النساء اللاتى لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن والمستضعفين من الولدان وأن تقوموا لليتامى بالقسط وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليما**﴾(١) .

ومن وجوه الصلة والربط بينهما أيضاً – كما قال المفسرون عند تفسير الآية: لما نهى الله عز وجل عن الجور وعدم القسط مع اليتامى، نهى كذلك

١- سورة النساء: ١٢٧.

عن الجور وعدم القسط عند تعدد الزوجات .

فإذا كان لا يجوز عدم القسط مع اليتامى، فكذا لا يجوز عدم القسط عند تعدد الزوجات، فلابد من العدل في كليهما، فهذا وجه الصلة بين الكلام عن اليتامى وتعدد الزوجات.

وقد روى البخارى عن عروة بن الزبير انه سأل عائشة عن قوله تعالى: **﴿وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى..﴾** قالت: يا ابن أختى هذه اليتيمة تكون فى حجر وليها تشركه فى ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط فى صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا إليهن، ويبلغوا بهن أعلى سنتهن فى الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة: وإن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، فأنزل الله **﴿ويستفتونك فى النساء﴾** قالت عائشة: وقول الله فى هذه الآية الأخرى **"وترغبون أن تنكحوهن"** رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال فنهوا ان ينكحوا من رغبوا فى مالها وجمالها من النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال"(١).

(ب) قالوا: الإسلام ظلم المرأة لما أباح للرجل أن يعدد الزوجات، فيظلمها ويكسر قلبها، ثم لم يستخدم قانون المساواة بأن أباح لها تعدد الأزواج، بنفس المنطق والقانون!!

١-أخرجه البخارى فى الوصايا (٢٧٦٣)، ومسلم فى التفسير (٣٠١٨).

فنقول أولاً : من الذى ظلم المرأة؟ قالوا:الإسلام .

قلنا: وهذا الإسلام دين من؟ فأجابوا : هو دين الله.

قلنا: إذاً الذى ظلم المرأة هو الله تعالى، **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾**(١).

ونقول أيضاً: وهل الظلم جائز على الله؟ سبحانه **﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾**(٢).وكما قال فى الآية أيضا: **﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾**(٣).

وفى الحديث القدسى: "**إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا**"(٤).

ثم نقول: ولماذا يظلم الله عز وجل المرأة؟ ولحساب من؟ أيظلمها لحساب الرجل؟! أو من أجل سواد عينيه - كما يقولون؟!! أم لماذا؟

أليست المرأة من خلق الله، والرجل من خلق الله؟ فلماذا يظلم الله خلقا لصالح خلق أخر هو من جنسه؟

أفيدونا ياقوم، كيف تنظرون إلى الأمور؟ أم أنه ليست لكم عقول؟!!

فهذا قول الله تعالى:**﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع..﴾**

١- سورة الكهف: ٥. ٢-سورة الكهف : ٤٩.
٣-سورة فصلت :٤٦. ٤-أخرجه مسلم فى البر والصله(٢٥٧٧).

هل الأمر هنا للفريضة أو الوجوب؟ كلا، وإنما هو للإباحة، فالتعدد ليس واجبا ولا فرضاً، وإنما هو مباح!

ثم يقال: هل الإسلام هو الذى أمر بتعدد الزوجات؟ أو ابتدعه على غير مثال سابق؟

كلا، إنما جاء الإسلام والناس جميعاً - سواء أكانوا أصحاب رسالات سماوية سابقة، أو كانوا جاهليين أوغيرهم - يعددون الزوجات، بلا حد ولا عد، وبلا واجب ولا حق، وبلا ضابط ولا رابط، وبلا تشريع ولا قانون، وبلا مراعاة لرابطة زوجية ولا إنسانية!! فلما جاء الإسلام أراد أن يهذب من أمر تعدد الزوجات، من كل ناحية، فى الكم والكيف، فلم يبح التعدد بأكثر من أربع، واشترط العدل مع القدرة على التعدد فى كل شىء.

فهل يعاب هذا على الإسلام أم يمدح عليه؟ وهل يعاب الإسلام وحده على شىء جاءت به كل الرسالات، وعرفته جميع الأمم؟!!.

فالوثنيون كانوا يعددون الزوجات، والرومان كانوا يعددون الزوجات، والإغريق كانوا يعددون الزوجات، والفرس كذلك، وعلى وجه الخصوص كان الملك يجمع مائة زوجة أو يزيد، وفى الديانة اليهودية إباحة لتعدد الزوجات، فتذكر التوراة أن أنبياء بنى إسرائيل كانوا يجمعون عشرات ومئات الزوجات، فتقول مثلا- إن داود عليه السلام كان معه ثلاثمائة زوجة، وسليمان كان معه سبعمائة زوجة وثلاثمائة جارية!!

وليس فى الديانة النصرانية ما يمنع تعدد الزوجات، وإذا كان تحريم الكنيسة لتعدد الزوجات لا يستند إلى نص صريح، فمن أين جاء؟ ولماذا

تغض الكنيسة الطرف عن تعدد الزوجات بين المسيحيين فـى أفريقيـا - حتى القساوسة - فى الوقت الذى تحرمه على المسيحيين فى أوربـا، فأيهمـا المسيحية؟!

ولنا أن نسأل: هل الإسلام هو مبتدع التعدد، مخالفاً بذلك الأديان ألـتي سبقته؟ وإذا كانت الأديان كلها - وثنيـة أو سماويـة أبـاحت التعـدد فلمـاذا يسأل الإسلام عنه، ويؤاخذ به؟ فليسع الإسلام ما وسع الأديان قبله.

ثم نقول أيضاً: وهل المسيحيون الآن والرجل الأوربي والغربـى اكتفـى بواحدة فلم يتصل بأخرى؟

ألم ينشئوا علاقات متصلة طويلة المدى أو قصـيرة بـأعداد كـبيرة مـن النساء الأخريات؟ لماذا يحرمون تعدد الزوجات ويبيحـون تعـدد العشـيقات؟ لماذا تحرم الحليلات، وتباح الخليلات؟ لماذا يرمى الابن لقيطاً، أو ينشأ زنيماً؟ ولا ينسب لأبيه الحقيقي؟!!

لقد انتشر الزنا فى الأوساط المسيحية فى أوربا وأمريكا وفى المجتمعـات ألتي حرمت تعدد الزوجات، وزادت نسبة الأطفال غير الشرعيين، فارتفعت على ٦٠٪ فى أمريكا، وأوربا تزيد على ٧٥٪،

وفى بعض البلاد - فى ظل تحريـم تعـدد الزوجـات- نسـبة خطـيرة أن يكون ثلاثة أطفال عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد، فى حين أن نسـبة الأطفال غير الشرعيين أقل من ١٪ فى البلاد ألتي تطبق تعدد الزوجات،أولا تكاد تذكر، ويقول المنصفون من المستشرقين: والفضل يرجع فى ذلك إلى مبدأ تعدد الزوجات الذي أقره الإسلام، بطهره ونظافته وعفته.

لقد قلت: إن الإسلام لم يخترع تعدد الزوجات و لم يبتكـره، وإنما جاء ليحد منه فى الوقت الذى أباح الإسلام التزوج بـأربع علـى أقصـى تقديـر- بشروطه وقيوده-كان من الناس فى الجاهلية من تحته مائة امرأة أو يزيـد، أو تحته عشرة نسوة، أو أقل أو أكثر .

وفى الحديث: "أسلم غيلان الثقفى وتحته عشر نسوة، فقال له النبى ﷺ: اختر منهـن أربعا، وفـارق سـائرهن"(١). وكذلـك هنـاك مـن أسـلم عـن ثمانية(٢) وعن عشرة فنهاهم الرسول ﷺ أن يمسكوا إلا أربعاً(٣).

وأما زواج الرسول ﷺ بتسع فكان هذا شيئاً خصه الله به، على نحو ما سنشير إليه إن شاء الله تعالى.

والحكمة فـى جعـل العـدد أربعـاً - للإنسـان العـادى - معروفـة، أنـه يستطيع أن يقوم بواجبهن وعلى أمرهن من كل ناحيـة، وهـذا فـى الغـالب، وهو مرتبط بشرطه من القدرة والعدل.

وأما لماذا أباح الإسلام التعـدد، و لم ينسـخه كمـا نسـخ بعـض الشـرائع السابقة؟ فذلك لأسباب أخلاقية واجتماعية وشخصية.

١- أخرجه ابن ماجة (١٩٥٣)، وأحمد (١٣/٢، ١٤) وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح ابن ماجة (١٥٨٩).
٢- أخرجه أبو داود (٢٢٤١)، وابن ماجة (١٩٥٢) وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح أبى داود (١٩٦٠).
٣- أخرجـه الـترمذى (١١٢٨)، وابـن ماجـة (١٩٥٣)، وأحمـد (٤٦٠٩) وصححه الشيخ أحمد شاكر.

إن الإسلام هو كلمة الله الأخيرة التى ختم بها الرسالات، لهذا جاء بشريعة عامة خالدة تتسع للأقطار كلها، وللأعصار قاطبةً، وللناس جميعا، إنه لا يشرع للحضرى ويغفل البدوى، ولا للأقاليم الباردة، وينسى الحارة، ولا لعصر خاص مُهْمِلاً بقية العصور والأجيال، إنه يقدر ضرورة الأفراد، وضرورة الجماعات، ويقدر حاجاتهم ومصالحهم جميعا.

فمن الناس من يكون قوى الرغبة فى النسل، ولكنه رُزِقَ بزوجة لا تنجب، لعقم أو لمرض أو غيره، أفلا يكون أكرم لها وأفضل له أن يتزوج عليها من تحقق له رغبته مع بقاء الأولى وضمان حقوقها؟

ومن الرجال من يكون قوى الغريزة، ثائر الشهوة، ولكنه رزق بزوجة قليلة الرغبة فى الرجال أو ذات مرض، أو تطول فترة الحيض عندها، أو نحو ذلك، والرجل لا يستطيع الصبر كثيراً عن النساء أفلا يباح له أن يتزوج بأخرى حليلة بدل أن يبحث عنها خليلة؟ ونساء ترملن صغاراً أو طلقن بلا جريرة وقد يكون عدد النساء أكثر من عدد الرجال - وخاصة فى أعقاب الحروب التى تلتهم صفوة الرجال والشباب - وهنا تكون مصلحة المجتمع ومصلحة النساء أنفسهن أن يكن ضرائر، لا أن يعشن العمر كله عوانس، محرومات من الحياة الزوجية، وما فيها من سكون ومودة، وإحصان، ومن نعمة الأمومة، ونداء الفطرة، إنها إحدى طرائق ثلاث أمام هؤلاء الزائدات عن عدد الرجال القادرين على الزواج!

١ - فإما أن يقضين العمر كله فى مرارة الحرمان.

٢- وإما أن يرخى لهن العنان ليعشن أدوات لهو لعبث الرجال الحرام!!

٣- وإمّا أن يباح لهن الزواج برجل متزوج قادر على النفقة والإحسان.

أما الاحتمال الأول: ففيه ظلم كبير لعدد من النساء، بغير جرم اقترفنه، فإنهن لم يجئن إلى الحياة برضاهن.

وأما الاحتمال الثاني: جرم فى حق المرأة، وفى حق المجتمع، وفى حق الأخلاق، وهو للأسف - ما سار عليه الغرب، فقد حرم تعدد الزوجات، وأباح تعدد الصديقات والعشيقات، أى أن الواقع فرض عليهم التعدد، ولكنه تعدد لا أخلاقى ولا إنسانى، لأن الرجل يقضى من ورائه وطره وشهوته، دون أن يلتزم بأى واجب أو يتحمل أية تبعة تأتى نتيجة لهذا التعدد.

أما الاحتمال الثالث: فهو وحده الحل العادل، والنظيف، والإنسانى، والأخلاقى، والبلسم الشافى، وهو الذى جاء به الإسلام، وحكم به **﴿ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾**(١).

هذا هو تعدد الزوجات الذى أنكره الغرب المسيحى على المسلمين، وشنع عليهم، على حين أباح لرجاله تعدد العشيقات والخليلات، بلا قيد ولا حساب، ولا اعتراف بأى إلتزام قانونى أو أدبى، نحو المرأة، أو الذرية التى تأتى ثمرة لهذا التعدد اللادينى واللاأخلاقى، فأى الفريقين أقوم قيلا. وأهدى سبيلا؟!!

١- سورة المائدة: ٥٠.

إن التعدد فى الإسلام جائز بشروطه المادية والأدبية، فإذا لم تتوفر هذه الشروط فلا تعدد، فلابد أن يثق المسلم فى نفسه بأن يعدل بين زوجتيه أو زوجاته فى المأكل والمشرب والمسكن والمبيت والنفقة، فمن لم يثق فى نفسه بالقدرة على أداء هذه الحقوق بالعدل والتسوية حرم عليه أن يتزوج بأكثر من واحدة، كما قال تعالى: ﴿**فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾(١).

وقال عليه الصلاة والسلام:"**من كانت له امرأتان يميل لأحدهما على الأخرى جاء يوم القيامة يجر أحد شقيه ساقطاً أو مائلاً**" (٢).

والميل الذى نهى عنه هذا الحديث هو الجور على حقوقها، لا مجرد الميل القلبى،

والعدل المشروط فى الآية هو العدل المادى، وهو مستطاع، وليس العدل القلبى، لأن الرجل قد ينشط فى ليلة ولا ينشط فى أخرى، فالأمر مرتبط بالوسع والطاقة مع مراعاة التقوى، وليس العدل فى الجماع منها على نحو ما سنوضحه فى الجزئية القادمة إن شاء الله.

وقولهم: لماذا أباح الإسلام تعدد الزوجات للرجل، ولم يبح تعدد الأزواج للمرأة؟ من أعجب العجب!!

فكيف يكون للمرأة اكثر من رجل، كيف تلبى رغباتهم، كيف تجمع بينهم، لمن تنسب الولد منهم، والحمل لأى رجل منهم؟

١- سورة النساء: ٣٠.
٢- أخرجه أبو داود فى النكاح (٢١٣٣)، وابن ماجة (١٩٦٩)، والترمذى (١١٤١)، وأحمد (٣٤٧/٢) وصححه الشيخ الألبانى فى صحيح أبو داود (١٨٦٧).

ولمن تكون قوامة الأسرة؟ ستكون لها علـى الأزواج أم لواحـد منهـم أم لهم جميعهم؟ أى شرع أو دين أو خلق هذا؟

ومـاذا يـراد بالرجـال؟ ومـاذا يـراد بالنسـاء؟ ومـاذا يـراد بالمجتمعـات ياقوم؟!!!.

(ج) قالوا: الإسلام أباح تعدد الزوجات مشروطاً بالعدل **﴿فـإن خفتـم ألا تعدلوا فواحدة﴾** ثم بين القرآن أن هذا العدل مستحيل فى قولـه تعـالى: **﴿ولـن تسـتطيعوا أن تعدلـوا بـين النسـاء ولـو حرصتـم﴾** فيكـون التعـدد حراماً، بحكم القرآن!

ولو كان مباحا لكان ذلك من التناقض فى القرآن! فكيف؟

أقول: إن هذا الكلام من المضحكـات المبكيـات، وهـو يذكرنـا بكـلام أهل السكر والعربدة،

يحكى أن رجلاً مخموراً سكيراً، كان يحب تعـاطى الخمـر، فذكـر لـه أن الأحناف فرقوا بين النبيذ والمسكر من العنب، وقيل له: إن المالكية والشافعية قالوا: إن الأشربة كلها واحدة، فضاع الحكم على النحو التالى:

أبـاح العراقى النبيـــذ وشربه وقـال حلالان المدامـــة والخمر

وقال الحجازى الشرابان واحد فحلت لنا من بين قوليهما الخمر

على هذا النحو مـن الاسـتدلال المضحـك، أو مـن السـخرية بالأحكـام وجدنا ناساً -للأسف- يقولون برأيهم الشخصى: إن التعدد حرام، بطريقـة

ذلك السكير، وبفكر الخمرى الذى جاء للأية فقسم نصفهـا واستدل بهـذا على وجهة نظره، فقرأ ﴿**ويل للمصلين**﴾ و لم يكمل، ثم أنشأ يقول:

ما قال ربك ويـل للألى سكروا بل قال ربك ويـل للمصلينـا

على هذا النحو وجدنا أناساً يتكلمون فى الإسلام، ويفسرون القـرآن!! فاعجب فى زمن كله عجب!!

إن القرآن قال فعلاً ﴿**فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنـى وثـلاث وربا ع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة**﴾ هذا صحيح، والمقصود به العدل فـى حدود الطاقة من سكن ونفقة ومبيت ونحوه فإنه مستطاع.

والآية الأخرى: ﴿**ولن تستطيعوا أن تعدلوا..**﴾ بينت أن العدل المطلـق مستحيل، وأن المقصود به عدم القدرة على العـدل فـى حـدود الميـل القلبـى والعاطفة الإنسانية أو هو "الحب"

وذلك أمر قلبى، لا يتحكم الانسان فيه، لأن القلوب بيد الله، والقلـب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء، فإذا أحب الإنسان زوجة أكثر من أخرى، لسبب أو لآخـر، فـإن ذلـك ليـس معنـاه أن يظلمهـا أو لا يعدل بينهما، فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقـة، لا هـى زوجـة ولا هـى مطلقة، وإنما العدل يقتضى عدم إظهار ذلك الحب للأخرى أو الأخريات.

وهذا رسول الله ﷺ كان يحب عائشة أكثر من بقية زوجاته، فلا يظهـر هذا لهن، وفى نفس الوقت يبلغ به العدل مداه، ويعتذر إلى ربه فى هذا الأمر الذى لا يملكه، فيقول: "**اللهم إن هذا قسْمى فيمـا أملـك، فـلا تؤاخذنـى**

فيما تملك ولا أملك"(١) وفى رواية "فلا تلمنى فيما تملك" يعنى بما لا يملكه! أمر القلب والميل العاطفى إلى إحداهن خاصة "وكان إذا أراد سفراً أقرع بينهن، فأيتهن خرج سهمها سافر بها"(٢)، وإنما فعل ذلك دفعا لوخز الصدور وترضية للجميع، وقد حججن جميعاً معه ﷺ.

وقد قال تعالى: ﴿**وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان غفوراً رحيما**﴾ أى وإن أصلحتم فى أموركم وقسمتم بالعدل فيما تملكون واتقيتم الله فى جميع الأحوال غفر الله لكم ما كان من ميل إلى بعض النساء دون بعض"(٣).

(د) نصل إلى النقطة الأخيرة، قالوا: إذا كان التعدد المباح فى الآية قد حدد بأربع نسوة،

فلماذا تزوج رسول الله ﷺ بأكثر من ذلك، حتى جمع فى عصمته تسع نسوة فى وقت واحد؟!!

كما زعموا أيضاً: أن ذلك يدل على شهوانية النبى ﷺ وأنه رجل مزواج!!

فنقول من المعلوم أن النبى ﷺ تزوج بثلاث عشرة زوجة، بنى بإحدى عشر زوجة ولم يبن باثنتين وأن أولى زوجاته ﷺ كانت "خديجة بنت خويلد" رضى الله عنها، تزوجها وهو ابن الخامسة والعشرين من عمره وهى بنت الأربعين من عمرها، وكانت ثيبا، قد تزوجت قبله برجلين،

١- أخرجه أبو داوود فى النكاح (٢١٣٤)، والترمذى فى النكاح (١١٤٠)، وابن ماجة فى النكاح (١٩٧١)، وحسنه الشيخ الألبانى فى الأرواء (٧/٨٣-٨٥).
٢- رواه البخارى فى الهبة (٢٥٩٣). ٣-أنظر ابن كثير ج١ ص٥٦٣،٥٦٤.

ولم يجمع عليها زوجة أخرى حتى ماتت رضى الله عنها وأرضاها، وقد بلغ الخمسين من عمره، أو إحدى وخمسين سنة .

فهل هذا حال رجل شهوانى يتزوج بثيب -سبقته برجلين- وتكبره بخمسة عشر عاماً، ثم يقضى معها فترة شبابه وزهرة عمره دون أن يلتفت إلى غيرها؟ أهذه هى الشهوانية ياقوم؟!!

وخديجة هى المرأة الوحيدة التى تزوجها النبى ﷺ لأنها كانت قبل بعثته ونبوته، وأما بقية زوجاته اللاتى جمع بينهن، ما بين الخمسين إلى الستين من عمره، فإنه لم يتزوج بهن وإنما زُوِجَهُنَّ أىَ بأمر الله تعالى، لأنه صار لا يتحرك إلا عن وحى، ﴿**وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحى يوحى**﴾(١)، فهو بعد نبوته صار له قانون آخر، يختلف عن بقية الناس،

ولذا فزواجه بهذا العدد من النساء كان من خصوصياته ﷺ، ومعلوم أن لكل نبى من الخصائص ما ليس لأمته، وهى لا تنحصر فى هذه، ولا مجال هنا لحصرها.

ولا شك أنه بخلاف الخصوصية كانت هناك حكمة -بل حِكَمٌ- من وراء هذا الزواج، منها ما علمناها، ومنها ما لم نعلمها.

كان منها الحكمة التشريعية أو الاجتماعية، أو التعليمية ونحوها.لقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يبقى زوجات النبى ﷺ فى عصمته، لأنه لو

١- سورة النجم: ٣، ٤.

طلقهن، لا يحل لأحد أن يتزوجهن بقوله تعالى:

﴿وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً﴾ (١). فماذا يكون مصيرهن؟

ولما خيرهن النبى ﷺ بين أن يردن الله ورسوله والدار الآخرة، أو يردن الدنيا، فكلهن اختار الله ورسوله والدار الآخرة، فكافأهن الله عز وجل بألا يتزوج عليهن، فقال الله عز وجل له: **﴿لايحل لك النساء من بعد ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيباً﴾** (٢).

إذاً الله عز وجل هو الذى زوجه، وهو الذى حرم عليه أن يتزوج بعدهن، و لم يأذن له بطلاقهن، فهل يعاب على الرسول ﷺ فى هذا؟ سبحان الله!!

ثم أين هذه الشهوانية فى هذا الزواج الذى ارتبط بأسبابه، وكان من وحى الله عز وجل، عدا عن خديجة رضى الله عنها -كما أشرت- ولاشهوانية فى الزواج بها على الإطلاق.

ثم بقية الزوجات كلهن ثيبات، عدا عن "عائشة" رضى الله عنها الوحيدة التى كانت بكراً، وكانت صغيرة بنت التاسعة من عمرها، ومثلها فى سنها أو جسمها لا يشتهى، ولكن الله عز وجل زوجه بها، ونزل

١- سورة الأحزاب: ٥٣. ٢- سورة الأحزاب:٥٢.

جبريل بصورتها، وأراها الله لنبية فى المنام مرات حتى تزوجها، فوطد بهذا الزواج صلته بصاحبه الصديق رضى الله عنه، كما وطد صلته بصاحبه الثانى "عمر" بزواجه من ابنته "حفصة" -وفى ذات الوقت زوج عثمان بابنتيه "رقية وأم كلثوم "وعليا" "بفاطمة" رضى الله عنهم أجمعين-.

وتزوج" بزينب بنت جحش" لحكمة تشريعية معروفة، وتزوج "بجويرية بنت الحارث" - وكانت بنت زعيم قومها - تأليفاً لقلبه وقلب قومه، فلما صاهرهم النبى ﷺ أسلموا كلهم، وكل من كان معه أسيرمن بنى المصطلق أطلقه وهو يقول: أصهار رسول الله ﷺ، فيعتقه، ثم يسلم الأسير، فكانت "جويرية بنت الحارث" أيمن امرأة على قومها، إذ أسلم قومها لما عرض الرسول ﷺ الزواج بها.

وكذا "صفية بنت حيى بن أخطب" زعيم اليهود، كما ألف النبى ﷺ قلب أبى سفيان لما تزوج ابنته "رملة أم حبيبة" فلما سمع أبو سفيان بذلك قال: ومن لها مثل محمد، فهو الشاب الذى لا يجدع أنفه، وظل أبو سفيان يفخر بنسبه من محمد ﷺ حتى امتن الله عليه بالإسلام.

و "أم سلمة" لما مات زوجها فى غزوة أحد طلب النبى ﷺ أن يتزوجها وأن يكفل أيتامها،

وعلى شاكلتها كانت "سودة بنت زمعة" و "زينب بنت الحارث".

وهكذا كل واحدة من زوجات النبى ﷺ كان لها قصة، وكانت من ورائها حكمة.

ولقد كان فى بقائهن فى عصمة النبى ﷺ حكمة جليلة حيث أصبحن مدرسة بعد النبىﷺ وبعد أن عرفن الأحوال الخاصةلرسول اللهﷺ علمنها للمؤمنين والمؤمنات.

وقمن بعبء فى هذا الدور وذلك المجال وفى رواية الحديث -خاصة عائشة رضى الله عنها-ما كان هذا العبء لتقوم به واحدة أو أربع، وإنما يحتاج إلى جميعهن.

هذا ولا يخفى أننا -معشر البشر- قد نعرف بعض الحكم، وتخفى علينا بقيتها، ولكنا نعلم أن هذا دين، وأن فعل الله منزه عن النقص والعبث، وأن حكمه مبرء عن الجهل والهوى، والقصوروالتقصير، وأن الإنسان إذا لم يعلم الحكمة، فلأنه عبد، لا يتعامل مع الله تعالى بالندية، وعليه أن يوقن بأن حكمة الحكم أن الله قد حكم.

وأما هؤلاء الذين يعيبون على منهج الله، أو على دين الله، أو على رسول الله، فكأنهم لا يدرون أنهم يعيبون على الله تعالى!!ومن هذا الشقى الذى يتطاول على الله؟

ويتهم منهج الله تعالى، وهو أعمى لا يبصر الحقيقة، وجاهل لا يدرك مغزى الأشياء.

فالذى يسأل عن الحكمة له الحق فى أن يعرفها، وتبين له وجوهها،

وأما الذى فى قلبه مرض فنحن لا نملك له من الأمر شيئاً، ﴿**إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء وهو أعلم بالمهتدين**﴾[1]

[1] -سورة القصص :٥٦.

" ميراث المرأة "

(٢) قال تعالى: ﴿**يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين..**﴾(١)

قالوا: لماذا ظلم الإسلام المرأة، وأعطاها نصف الرجل فى الميراث؟!!

فنقول: أولاً: يجب النظر إلى قولهم "الإسلام ظلم المرأة" على أنه اتهام مباشر لله عز وجل صاحب هذا الدين، وهذا التشريع، وهذا ما لا يجوز أبداً أن يتهم العبد به ربه، وينتقص دينه!

ثانياً: جاء الإسلام والمرأة لا ترث بل كانت هى تورث كبعض أمتعة البيت، وتكون لمن سبق إليها، وألقى بردائه عليها، ولو كانت زوجة أبيه!!

فصانها الإسلام وكرمها وحافظ عليها، وحرم على الورثة أن يرثوها، ثم أمر بتوريثها، وفى هذا نزلت آيات من سورة النساء، قال تعالى: ﴿**ياأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن..**﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلاً**﴾(٣).

وقد ورد فى ذلك أنه لما مات "أبو قيس بن الأسلت" قام ابنه "حصن"

١- سورة النساء: ١١.
٢- سورة النساء :١٩.
٣- سورة النساء: ٢٢.

فورث نكاح امرأته، و لم يورثها من المال شيئاً، فلم تطق ذلك صبراً - واستنتجت أن هذا العصر الذى انبثق فيه نور الإسلام وظهرت تعاليمه تتلألأ فى وسط هذا الظلام الحالك لا يمكن بحال أن يقر هذه العبودية الممقوتة التى سارت عليها الجاهلية قروناً من الزمان- فذهبت إلى النبى ﷺ وأخبرته بأمرها، فأنزل الله فى شأنها ﴿**يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً...**﴾(١).

وما روى أيضا: أن "سعد بن الربيع" رضى الله عنه، لما استشهد يوم بدر، وكان قد خلف بنتين وزوجة، فاستولى الأخ على ماله، فجاءت امرأته إلى النبى ﷺ وقالت: إن سعداً قد قتل معك وخلف ابنتين، وقد غلب عمهما على مالهما، ولا يُرغب فى النساء إلا بمال، فقال رسول الله ﷺ: لم ينزل الله تعالى فى ذلك من شىء، ثم ظهر أثر الوحى عليه، فلما سرى عنه قال: قفوا مال سعد، فقد أنزل الله تعالى فى ذلك ما إن بينه لى بينته لكم، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً**﴾(٢).

ثم نزل قوله تعالى: ﴿**يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين**﴾ فدعا رسول الله ﷺ أخا سعد وأمره بأن يعطى البنتين الثلثين، والزوجة الثمن وله ما بقى"(٣). ثم تتابع الوحى فى تنظيم شأن الميراث على النحو المعروف فى الشريعة الغراء.

١- تفسير ابن كثير جـ١ ص ٤٦٥ بتصرف. ٢- سورة النساء :٧.
٣-أخرجه أبوداود(٢٨٩٢)والبيهقى فى السنن الكبرى(٦/٢٢٩)وأحمد(٣/٣٥٢)والحاكم (٤/٣٣٤)وصححه ووافقه الذهبى وحسنه الألبانى فى صحيح أبى داود(٢٥١٥).

ثالثاً: قوله تعالى: **﴿للذكر مثل حظ الأنثيين﴾** ليست على إطلاقها، وليست فى كل الحالات، ففى الميراث نجد أن الإسلام سوى بين نصيب الذكر والأنثى كما فى حالة وجود أبوين، مع ابن أو مع بنتين فصاعدا، فإن نصيب الأم فى هذه الحالة يكون مساوياً لنصيب الأب، فكلاهما يأخذ السدس، لقوله تعالى: **﴿ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد﴾**(١).

وكذلك فى حالة وجود إخوة وأخوات لأم، فإنهم جميعاً يستحقون ثلث التركة يقسم عليهم بالتساوى، لا فرق بين ذكورهم وإناثهم، وهذا ما لم يحجبهم عن الميراث حاجب، وذلك لقوله تعالى: **"وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة (أى لاولد له ولا أب) وله أخ أو أخت (أى لأم) فلكل واحد منهما السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء فى الثلث"**(٢)، و لم يقل: للذكر مثل حظ الأنثيين .

وإنما للذكر مثل حظ الانثيين فى الأولاد والإخوة والأخوات، وللزوجة من زوجها المتوفى نصف نصيب الزوج من تركة زوجته، ونصيب الأب من تركة ولده يبلغ أحياناً مثلى نصيب الأم أو أكثر من ذلك، فيكون مثليه إذا لم يكن مع الأبوين من الورثة أحد، أو لم يكن معهما إلا بنت واحدة أو زوج أو زوجة.

ففى الحالة الأولى للأم الثلث وللأب الثلثان تعصيباً، وفى الحالة الثانية تأخذ البنت النصف وتأخذ الأم السدس والأب السدس فرضاً، والسدس

١- سورة النساء: ١١.

٢- سورة النساء :١٢.

الباقى تعصيباً، وفى الحالتين الثالثة والرابعة يأخذ الزوج النصف أو تأخذ الزوجة الربع، وتأخذ الأم ثلث الباقى ويأخذ الأب ثلثين وأحياناً يكون نصيب الأب أكبر من مثلى نصيب الأم وذلك مثلا إذا كانا مع إخوة أوأخوات، فإن الأم تأخذ السدس فرضاً ويأخذ الأب خمسة أسداس تعصيباً ويحجب الإخوة.

رابعاً: لماذا هذه التفرقة؟ لقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعباء الرجل الاقتصادية فى الحياة وأعباء المرأة، فمسئولية الرجل فى الحياة من الناحية المادية أوسع كثيراً فى الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة، فالرجل هو رب الأسرة وهو القّوام عليها والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها بالفعل إن كان متزوجاً، أو سيصبح مكلفاً بعد ذلك بعد زواجه، على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التى وضعها الإسلام على كاهله، وأعفى منها المرأة رحمة بها وحدباً عليها وضماناً لسعادة الأسرة، بل إن الإسلام قد عدل غاية العدل فى رعايته للمرأة إذ أعطاها نصف نصيب نظيرها من الرجال فى الميراث مع إعفائه إياها من أعباء المعيشة، وإلقائها جميعها على كاهل الرجل.

ولكن بعض الجهلة يستغل فضل الرجل على المرأة فى الميراث ليهينها ويزدرى منزلتها، وكم أسىء إلى ديننا من أولئك الجاهلين، وأعتقد أنه ليس من تكريم المرأة تكليفها بالارتزاق فى أحوال مقلقة، ولا من تكريمها أن

تجمع بين وظيفة ربة بيت، ووظيفة أخرى ترهق أعصابها وتستغرق انتباهها، ولا لتوفر مهراً للرجل المنتظر، لا.. وهنا يوجب الإسلام نفقتها على أبيها أو أخيها أو ذوى قرابتها، فإن لم يوجد أحد، أرصد لها ما يكفيها من بيت مال المسلمين.

وإعانة الرجل على النهوض بهذا العبء - وغيره - جعل حظه فى أغلب المواريث ضعف حظ المرأة، والحق أن الإسلام لو لم يجعل نصيب المرأة فى الميراث نصف نصيب الرجل لاختل ميزان المساواة وأصبحت كفة المرأة المادية أرجح، وذلك لأن الرجل مكلف فى الإسلام بالإنفاق على المرأة - كما وضحنا - وهذا معناه أن ماله سوف يستهلك من الواجبات التى كلف بها على حين يجمد مال المرأة فلا ينقص، فلا أقل من استدراك هذه الحال بزيادة نصيبه فى الإرث، فهذه الزيادة ليست تفضيلاً، وإنما هى تعويض مادى بحت.

إن الرجل هو المكلف بالإنفاق، ولا يتطلب من المرأة أن تنفق شيئاً على غير نفسها وزينتها، إلا حيث تكون العائل الوحيد لأسرتها وهى حالات نادرة فى ظل النظام الإسلامى، لأن أى عاصب من الرجال مكلف بالإنفاق ولو بعدت درجته، فأين الظلم الذى يزعمه دعاة المساواة المطلقة؟

إن المسألة مسألة حساب، لا عواطف ولا ادعاء، تأخذ المرأة - كمجموعة - ثلث الثروة الموروثة لتنفقها على نفسها، ويأخذ الرجل ثلثى الثروة لينفقها أولاً على زوجته - أى على امرأة - وثانياً على أسرة من والدين وأولاد، فأيهما أكثر من الآخر بمنطق الحساب والأرقام؟

والرجل ينفق على الأسرة تكليفاً لا تطوعاً، ومهما كانت ثروة المرأة الخاصة، فالرجل ينفق عليها ولا يأخذ منها شيئاً كأنها لا تملك شيئاً، ولها أن تشكوه إذا امتنع عن الإنفاق، أو قتّر فيه بالنسبة لما يملك، ويحكم لها الشرع بالنفقة أو بالانفصال. فهل بقيت بعد ذلك شبهة فى القدر الحقيقى الذى تناله المراة من مجموع الثروة؟

وهل هو امتياز حقيقى فى حساب الاقتصاد أن يكون للرجل مثل حظ الأنثيين، وهو مكلف ما لا تكلفه الأنثى؟ على أن هذه النسبة إنما تكون فى المال المورث بلا تعب، فهو يقسم بمقتضى العدل الربانى الذى يعطى "لكل حسب حاجته" ومقياس الحاجة هو التكاليف المنوطة بمن يحملها. أما المال المكتسب فلا تفرقة بين الرجل والمرأة، لا فى الأجر على العمل، ولا فى ربح التجارة ولا ريع الأرض..إلخ، لأنه يتبع مقياساً آخر هو المساواة بين الجهد والجزاء، وإذن فلا ظلم ولاشبه ظلم وليس وضع المسألة أن قيمة المرأة هى نصف قيمة الرجل فى حساب الإسلام، كما يفهم العوام أو يزعم أعداء الإسلام!!(١).

١- راجع بتوسع رسالتنا "التسامح والتعصب بين اليهودية والمسيحية والإسلام، "دراسة مقارنة".

" هل المصر على المعصية مخلد في النار؟ "

(٣) قال تعالى: ﴿**ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها وله عذاب مهين**﴾(١).

والفهم الخاطئ لهذه الآية أن استدل بها الخوارج -قديماً- وأهل التكفير والهجرة - حديثاً - على كفر مرتكب الكبيرة، والمصر على المعصية، وذلك بناءاً على أن الله تعالى حكم على ذلك العاصي والمتعدى لحدود الله، بالخلود في النار، ولا يخلد في النار إلا كافر، لذلك فالمصر على المعصية كافر مخلد في النار، والعياذ بالله تعالى.

وذلك لقوله تعالى أيضاً: ﴿**ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً**﴾(٢).

وكذلك قوله تعالى: ﴿**ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً**﴾(٣)، مساوية لقوله تعالى: ﴿**ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالاً مبيناً**﴾ (٤)، ومثل قوله تعالى: ﴿**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾(٥)، وأمثال ذلك من الآيات.

والرد على ذلك: أن هذه الآيات فهمت على غير وجهها، ولم يحسن الاستدلال بها، ذلك أنه أخذ بعموم النصوص، وهذه النصوص كلها مقيدة

١- سورة النساء: ١٥.
٢- سورة الجن: ٢٣
٣- سورة الأحزاب: ٣٦
٤- سورة النساء: ١١٦
٥- سورة البقرة: ٨١.

يقول الله تعالى: ﴿**إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ..**﴾(١).

وذلك لأن مطلق المعصية يدخل فيه الشرك وما دون الشرك،

فأما الشرك منه فإنه لا يغفر، وأما ما دون الشرك فهو فى نطاق المشيئة.

فإذا ذكرت كلمة "المعصية" فى الآية، وترتب عليها الكفر، أو الخلود فى النار، علم أنها تعنى الشرك، وإذا لم يترتب عليها الخلود الأبدى فى النار، فهى بمعنى ما دون الشرك، الذى هو داخل فى نطاق "**ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**"، فما هذا الذى سيغفر؟ أهى الطاعات؟! كلا، لأن الطاعات يثاب عليها الانسان، ولا يقال ستغفر له.

أهو الشرك؟ الشرك لا يغفر إلا بتوبة ﴿**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**﴾(٢).

فلا شك أن الذى سيُغْفَر هى "المعاصى" حتماً، وليس شيئاً آخر، ولكن فى نطاق المشيئة، ولا يمكن أن تكون المعاصى التى تاب الإنسان منها، لأن التى تاب الإنسان منها تغفر بالتوبة والإستغفار، فهذه التى هى فى نطاق المشيئة "معاصى لم يتب منها" ومع ذلك لم يحكم عليه القرآن بالكفر أو الخلود فى النار مع أنه مصر عليها ولم يتب منها، وكذلك فى السنة المطهرة، فالأمر كما وضحه النبى ﷺ فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه- قال : كنا عند رسول الله ﷺ فى مجلس، فقال : تبايعونى على أن لاتشركوا

١- سورة النساء : ٤٨.
٢- سورة الأنفال : ٣٨.

بـا لله شـيئاً، ولا تسـرقوا ولا تزنـوا، ولا تقتلـوا أولادكـم، وقـرأ الآيـة التـى أخذت على النساء.

ثم قال : "**فمن وفى منكم فأجره علـى ا لله. ومـن أصـاب مـن ذلـك شيئا فعوقب به فى الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره ا لله، فهو إلى ا لله، إن شاء غفر له وإن شاء عذبه**"(١)

و لم يقل فهو كافر مخلد فى النار!!

هـذا، ولايمكـن أن تستسـاغ الآيـة علـى هـذا الفهـم القـاصر، والمعنـى المتناقض، فيجب أن ندرك معنى قوله تعـالى: ﴿.. **ومـن يطـع ا لله ورسـوله يدخلـه جنـات تجـرى مـن تحتهـا الأنهـار خـالدين فيهـا وذلـك الفـوز العظيـم**﴾(٢)، فيبنـى عليـه حسـب الفهـم الخـاطئ للآيـة أن مـن يطـع ا لله ورسوله – بمجرد طاعة واحدة – فهو مؤمن، مخلد فى الجنة، والـذى يعصـى ا لله ورسوله – بمجرد معصية أو يصـر عليهـا – فهـو كـافر، مخلـد فـى النـار، فيترتب على ذلك إذا جمع المرء بـين الطاعـة والمعصيـة، يحكـم عليـه بالإيمـان والكفر معاً، وبالخلود فى الجنة والنار فى آن واحد، وهذا خلط وتناقض فـى دين ا لله تعالى، لايجوز.

ثم يقال : لماذا تبنى الأحكام على آيات الوعيد دون أيات الوعد؟

ولماذا لا يجمع بين النصوص فى الباب الواحد حتى يستخرج الحكم صحيحا؟

١- أخرجه البخارى (١٨)، ومسلم فى الحدود (١٧٠٩).
٢- سورة النساء : ١٣.

إنه بالنظر إلى قوله ﷺ: **"يخرج من النار من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"**(١).

على سبيل المثال، يدل على أن الآية الكريمة لم تتحدث عن مجرد معصية، وإنما تتحدث عن معصية الشرك، لأن كل شرك معصية، وليست كل معصية شركا فإذا كان لا يخلد في النار إلا مشرك، والآية حكمت بالخلود في النار، فهو الشرك قطعاً، جمعاً بين النصوص، التي دلت على أنه لا يخلد في النار مسلم.

فإن قالوا : نصوص الوعيد : أن من مات على معصية دخل النار خالداً فيها، قلنا: وهذا أيضا يرد على نصوص الوعد، فنقول: من مات على طاعة دخل الجنة، وإن تعجب فعجب هذه التفرقة التحكمية بين النصوص، كما زعموا أن عمومات الوعد للبشارة فقط، أما عمومات الوعيد للحكم أولاً، وللترهيب والانذار ثانياً!! فمن أين هذه التفرقة، وهذا هو التحكم بعينه، والتقديم بين يدى الله ورسوله، والقول فى الإسلام بالرأى والهوى.!!

وهذا القرآن الكريم يبين أنه ليست كل معصية شركاً، بل تطلق على الشرك وعلى ما دون الشرك، فأطلقت على ما دون الشرك، فى قوله تعالى: **﴿وعصى آدم ربه فغوى﴾**(٢) فالمعصية هنا ليست من قبيل الشرك لاستحالته على الأنبياء.

١- أخرجه البخارى فى الإيمان (٤٤)، ومسلم فى الإيمان (١٩٣) والترمذى (٢٥٩٣).

٢- سورة طه : ١٢١.

وأطلقت على الشرك فى مثل قوله تعالى: ﴿**فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابيه**﴾(١) .

وكذلك: ﴿ **فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلا**﴾(٢)،وهذة الآية التى نحن بصددها ، وفى الحديث "**من أطاعنى دخل الجنة، ومن عصانى فقد أبى**"(٣).

فيتضح لنا أن المعاصى دون الشرك حتماً، ويسلم القول بأن ليست كل معصية شركاً، وإنما الشرك معصية.

وكذلك مثل كلمة المعصية مرادفاتها فى القرآن الكريم نحو السيئة والخطيئة والإثم والذنب، فكلها ترد بمعنى الشرك، وبمعنى ما دون الشرك، وتطلق عليهما أحياناً فى سياق واحد.

ومثاله : كلمة "الخطيئة" جاءت بمعنى الشرك فى قوله تعالى: ﴿**بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئتة فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾(٤) .

وبمعنى الشرك، وما دونه فى قوله تعالى: ﴿**مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً**﴾(٥) وبمعنى ما دون الشرك حتماً ﴿**والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين**﴾(٦) وكلمة "السيئة" ترد

١- سورة الحاقة : ١٠. ٢- سورة المزمل : ١٦

٣- أخرجه البخارى فى الاعتصام (٧٢٨٠)، وأحمد (٣٦١/٢)، وابن حبان فى الموارد (٢٣٠٦).

٤- سورة البقرة : ٨١. ٥- سورة نوح : ٢٥.

٦- سورة الشعراء : ٨٢

بمعنى الشرك فى قوله تعالى: ﴿**بلى من كسب سيئة ...**﴾ .

وبمعنى الشرك وما دونه فى قوله تعالى: ﴿**وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات**﴾(١) .

وبمعنى ما دون الشرك فى قوله تعالى: ﴿**إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنكم نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلاً كريماً**﴾(٢)

وقوله تعالى: ﴿**وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون**﴾(٣)،

وكلمة "الإثم" بمعنى الشرك فى قوله تعالى: ﴿**ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً**﴾(٤)

وكذا ﴿ **قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطان وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾(٥)

وعلى ما دون الشرك فى مثل قوله تعالى: ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة**﴾(٦) ،

١- سورة هود : ٧٨.
٢- سورة النساء : ١٩.
٣- سورة الشورى : ٢٥
٤- سورة النساء : ٤٨.
٦- النجم : ٣٢.
٥- سورة الأعراف : ٣٣.

وهذا "الذنب" يطلق على الشرك فى مثل قوله تعالى: ﴿**فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسواها**﴾(١)،

وعلى الشرك وما دونه، فى قوله تعالى: ﴿**فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق**﴾(٢)،

وعلى ما دون الشرك فى مثل قوله تعالى :﴿**فاصبر ان وعد الله حق واستغفر لذنبك**﴾(٣) وكذلك ﴿**ولهم على ذنب فأخاف أن يقتلون**﴾(٤) و﴿**فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات**﴾(٥).

فاتضح المعنى بفضل الله تعالى(٦).

إن الفكر الخاطئ ما أنزل الله به من سلطان، ولا يتفق مع سنة أو قرآن، بل هو من فتن آخر الزمان، نسأل الله عز وجل أن ينقذنا منه بفضله فهو الحنان المنان.

١- الشمس : ١٤.
٢- سورة غافر : ٢١.
٣-سورة غافر : ٥٥
٤- سورة الشعراء : ١٤
٥- سورة محمد : ١٩.
٦- راجع، شبهات التكفير، بتوسع

" قوامة الرجال على النساء "

(٤) قال تعالى: **﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم....﴾**(١).

فزعم أعداء الإسلام -سواء كانوا من الخارجين عنه أو المنتسبين إليه- أن الإسلام ظلم المرأة فى هذه الآية أيضاً، لما أعطى الرجل حق القوامة أو الزعامة فاستغلها الرجل فى ظلم المرأة وهضم حقوقها، فهو بسبب تلك القوامة التى منحت له، ولم تمنح للمرأة، يعدد الزوجات، ويضرب امرأته بما يتنافى مع الأدمية، ويهجرها دون لوم عليه، ثم هو بنفس الحق الذى منحه الإسلام له يطلّق المرأة فى أى وقت شاء دون أن تعطى المرأة هذا الحق من باب المساواة، ولماذا يلزمها ببيت الطاعة؟!!

فهذه واحدة من الشبهات التى زج بها المستشرقون، ورددها المستغربون، وقامت جمعيات نسائية -فى مصر وغيرها- باسم نهضة المرأة، ونهضت بنت النيل، ونحو ذلك .

فصارت المرأة المسلمة تحارب دينها، وتتحرر من إسلامها، وتخرج على أحكامه وتحتج على الله: لماذا يعطى الإسلام الرجل حق القوامة دون المرأة؟!! هكذا قالوا، وبمثل هذا زعموا!! فهل الأمر كما زعموا؟ **﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً﴾**

تعالوا بنا ننظر - وببساطة بعيداً عن التوسع- هل الإسلام ظلم المرأة فى قضية القوامة؟

١- سورة النساء :٣٤.

نقول: إن الإسلام ليس عدواً للمرأة و لم ينتقص كرامتها، ولحساب من؟ لحساب الرجل؟! فلماذا؟

وكما قلت سابقاً: إن الذى خلق الرجل هو الذى خلق المرأة، فلماذا يظلم المرأة، ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ ولذلك فالذين لا يعرفون حقيقة الإسلام، أو يعرفونها ثم يلبسون الحق بالباطل إبتغاء الفتنة، ونشراً للفساد فى المجتمع، زعموا أن الإسلام يهين المرأة وينتقص إنسانيتها.

والحق أن تعاليم الإسلام المستفادة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وتطبيق السلف الأول لا يمكن أن يرفضها عاقل أو عاقلة، حتى الغربيات الواعيات، ولو فى تعدد الزوجات!

كما صرح بعض النسوة الألمانيات أن التعدد أفضل وأشرف من المخادنة، وكاد الألمان فى أعقاب الحرب العالمية الثانية يصدرون تشريعات تبيح التعدد لمعالجة الزيادة الهائلة فى عدد النساء! غير أن الكنيسة تدخلت معترضة لوقف التشريع!، والنساء العاقلات يرين أن كفالة الآباء والأزواج للمرأة أفضل وأشرف من مطالبتها بالإنفاق على نفسها منذ تبلغ سن النضج، أو بعد ذلك.

إن المرأة تتعرض لبلاء مثير فى طلبها للرزق، وانطلاقها للكدح فى أرجاء الأرض..!، إن الإسلام يعلو بالمرأة فوق هذا المستوى، فماذا صنع الإسلام للمرأة؟

إن المرأة - فى عرف الإسلام- كائن إنسانى، له روح إنسانية من نفس "النوع" الذى منه روح الرجل. ﴿**يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم**

من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالاً كثيراً ونساءاً..﴾(١). فهناك وحدة كاملة فى الأصل والمنشأ والمصير، والمساواة الكاملة فى الكيان البشرى تترتب عليها كل الحقوق المتصلة مباشرة بهذا الكيان، فحرمة الدم والعرض والمال، والكرامة، وكذا الأوامر والتشريعات ثم الجزاء .

بل اعتبر الإسلام العلم والتعليم ضرورة بشرية، للمرأة كما هو للرجل،من مقومات الكيان البشرى، وصور تكريم الإسلام للمرأة لحد لا تحلم به المرأة فى أوربا أو غيرها ولا يتسع له المجال الآن، وإنما هى إشارات، والفارق بين حال المرأة فى الجاهلية وحالها فى الإسلام لا يخفى، كما لا يخفى الفارق أيضاً بين المرأة فى الإسلام وفى سائر الأديان! وبين المرأة المسلمة والمرأة الغربية!!

الإسلام الذى حرم الإجهاض، وتحديد النسل، ووأد البنات، وظلم الفتيات، وأمر بإكرام الزوجات، وتكريم الأمهات، ولكن الإسلام بعد هذا - أى بعد تقرير المساواة الكاملة فى الإنسانية، والمساواة فى جميع الحقوق التى تتصل مباشرة بالكيان البشرى المشترك بين الجميع - يفرق بين الرجل والمرأة فى بعض الحقوق وبعض الواجبات، وهنا الضجة الكبرى التى تثيرها نساء المؤتمرات، ويثيرها معهن كُتّاب و"مصلحون"!! وشباب، ويعلم الله ماذا يريدون لدعوتهم هذه!

١- سورة النساء:١.

وقبل الدخول فى تفصيل هذه المواضع التى يفرق فيها الإسلام بين الرجل والمرأة، ينبغى أولاً أن نرد المسألة إلى جوهرها الحقيقى، إلى أصولها الوظيفية، والجسمية والنفسية، ثم نستعرض بعد ذلك رأى الإسلام.

ونتساءل: هل هما جنس واحد أو جنسان؟ وهل هى وظيفة واحدة أم وظيفتان؟ تلك عقدة الموضوع، فإن قالوا لنا: ليس بين الرجل والمرأة خلاف فى التكوين الجسدى والكيان الوجدانى ووظائف الحياة البيولوجية، فما عسى أن يرد به عليهم؟!

وإن أقروا بوجود هذا الخلاف، فهناك إذن أساس صالح لمناقشة الموضوع.

والحق: إن اختلاف طبيعة الإحساس الجنسى بين الرجل والمرأة، مع اشتراكها فى الأصل الكبير، حقيقة لا ينكرها عاقل، فكل منهما مهيأ لوظيفة معينة، وعلى حسب تلك الوظيفة صيغت مشاعر كل منهما وأفكاره، كما صيغ جسده من قبل، بحيث يؤدى وظيفته المرسومة على أفضل وجه.

وتبعاً لهذا الاختلاف الحاسم فى المهمة والأهداف، اختلفت طبيعة الرجل والمرأة ليواجه كل منهما مطالبه الأساسية وقد زودته الحياة بكل التيسيرات الممكنة، ومنحته التكييف الملائم لوظيفته.

لذلك لا أرى كيف تستساغ هذه الثرثرة الفارغة عن المساواة الآلية بين الجنسين!!

هل يمكن أن تبدل لنا هذه الدعاوى الزائفة طبائع الأشياء، فتجعل الرجل يشارك المرأة فى الحمل والولادة والإرضاع؟

وهل يمكن أن تكوّن وظيفة بيولوجية من غير تكييف نفسى وجسدى خاص؟

وهل هذه الاختصاصات لا تتبعها المشاعر والعواطف والأفكار، والتمشى مع المطالب الدائمة؟

هل يمكن للرجل أن يكون أمًا - بما تحويه الأمومة من مشاعر نبيلة، وعاطفة وصبر ورقة ..الخ؟

وهل يمكن للمرأة أن تكون رجلاً - تقوم بوظائفه الشاقة، وصراعه مع الحياة فى الخارج، وقوى الطبيعة، وأنظمة الحكم وقوانين الاقتصاد واستخلاص القوت، وحماية الذات والزوجة والأولاد من العدوان؟

هل عاطفة الرجل كالمرأة؟ وهل عقل المرأة كالرجل؟ وهل ؟ وهل؟

إن مزية الإسلام الكبرى أنه نظام واقعى، يراعى الفطرة البشرية دائماً ولا يصادمها ولا يحيد عن طبيعتها، وهو يدعو الناس لتهذيب طبائعهم والارتفاع بهم، ويصل بهم فى ذلك إلى نماذج تصل إلى الكمال، ولكنه فى تهذيبه لايدعو لتغيير الطبائع، ولا يضع فى حسابه أن هذا التغيير ممكن، أو مفيد لحياة البشرية إن أمكن.

إن الله تعالى إذ قال: ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾ .

هذا الحكم الذى يعتمد على الحقائق الكونية، كمن يقول : الشمس أكبر من القمر، فهذا التفضيل لايفيد أن القمر حقير، ولا أنه مظلم، ولا أنه تافه الأثر، فلكل من الكوكبين عمله المنوط به، وفضله المرجو منه، ولو أن كل شئ فى الوجود أدى رسالته تبعاً لاستعداده الخاص لازدهرت الدنيا واستقام أمرها.

أما أن يذهل هذا عن وظيفته اللاصقة به، وذاك عن عمله المعد له، ثم يرمق وظيفة الآخر بتطلع ولهفة، فذلك ما لاتصلح عليه الحياة، ولذلك يقول الله عز وجل: **﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾**(١)

ويقول الرسول ﷺ "لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء"(٢)

وفى رواية "لعن رسول الله المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء"(٣)

فالإسلام بنى الكيان الأدبى للمرأة على دعائم راسخة، ولا نعرف نظاماً فى الأولين والآخرين أولى النساء بهذه الرعاية، أو أسدى لهن هذه الكرامة.

لم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعوا إلى هذه التفرقة

١- سورة النساء : ٣٢.
٢- أخرجه البخارى فى اللباس (٥٨٨٥)، وأبو داود فى اللباس (٤٠٩٧).
٣- أخرجه أحمد (٣/٣١٤) (٢٠٠٦)، وقال الشيخ شاكر : اسناده صحيح.

مراعاة طبيعة كل من الجنسين، وما يصلح له، وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة نفسها.

وترجع أهم النواحى التى قرر فيها الإسلام هذه التفرقة إلى ستة أمور هى:

الشهادة، والميراث، وتعدد الزوجات - وهذه الثلاثة قد أشرنا إليها من قبل -والقوامة على الأسرة، وواجب الطاعة ، والطلاق - وهذه التى نحن بصدد بيانها.

لماذا كانت قوامة الرجل على المرأة؟ لسببين هما:

١- الرجل مكلف بالإنفاق على الأسرة، ولا يستقيم مع العدالة فى شئ أن يكلف فرد بالإنفاق على هيئة ما، بدون أن يكون له القيام عليها والاشراف على شئونها، وفى القوانين الحديثة "من ينفق يشرف" أو "من يدفع يراقب".

٢- السبب الثانى الذى بنى عليه الإسلام قيام الرجل على الأسرة : أن المرأة مرهفة العاطفة، قوية الانفعال، وأن ناحية الوجدان لديها تسيطر سيطرة كبيرة على مختلف نواحى حياتها النفسية، وقد سوى الله المرأة على هذا الوضع حتى يكون لها من طبيعتها ما يتيح لها القيام بوظيفتها الأساسية، وهى الأمومة والحضانة على خير وجه.

ثم ما معنى القوامة؟ إنها ليست - كما زعموا - سيطرة وزعامة وعنف وقهر!!

إنها رياسة رحيمة قائمة على المودة والمحبة، والإرشاد، والحفاظ على المرأة وصيانة كرامتها، وحفظ حقوقها، وتحقيق مصلحتها على خير وجه، إنها رعاية ومحبة مخلصة، وليست بسلطان مفروض، وهى تدبير وإرشاد، وليست بسيطرة ولا استبداد. إنها رياسة حفظ وصيانة ورعاية وحماية وامداد بكل ما تحتاج إليه المرأة فى حياتها، سواء أكان ذلك من أب، أو زوج، أو غيرهما من المحارم، الذين وكلت إليهم الشريعة أمر القيام على المرأة إنها الرياسة التى لا تنتقص شيئاً من شخصية المرأة وأهليتها أو حقوقها المدنية أو ملكيتها وثروتها الخاصة، بل هى النصيحة والتوجيه، وتدبير سياسة البيت فى تعاون مع المرأة، وفى أن تطيع المرأة زوجها فى دائرة المعقول المعروف.

وفى مقابل ذلك فرض عليه الإسلام عدة واجبات منها الإنفاق على الأسرة وصيانة أفرادها، ورعاية حقوقهم، كما أوجب علية العدالة والمعاملة بالحسنى والرفق فى علاج مشاكل الحياة الزوجية، وأخذ الأمر بيسر وهوادة، وأن يُقَوِّم المعوج فى رفق ولين، ولذا كان النبى ﷺ يعتبر خير الناس خيرهم لأهله، فيقول ﷺ :"**خيركم خيركم لأهله**"(١)

وقد لخص القرآن الكريم هذا فى عبارة موجزة بليغة، إذا يقول: ﴿**ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ..**﴾(٢)

ثم نقول للذين قالوا: لماذا لم يعط الإسلام حق القوامة للمرأة، أو يجعله بينهما بالمساواة ؟!!

١- أخرجه الترمذى فى المناقب (٣٨٩٥)، وابن ماجه فى النكاح (١٩٧٧)، والدارمى فى النكاح (٢٢٦٠) وصححه الشيخ الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٨٥).
٢- سورة البقرة : ٢٢٨.

إن الإسلام يسير فى مسألة الرجل والمرأة على طريقته الواقعيــة المدركـة لفطـرة البشـر، فيسـوى بينهمـا حيـث تكـون التسـوية هـى منطـق الفطـرة الصحيح، ويفـرق بينهمـا كذلـك حيـث تكـون الفرقـة هـى منطق الفطرة الصحيح، فالضرورة تقتضى أن يكون هناك "قَيِّم" توكل إليــه الإدارة العامـة لهذه الشركة القائمة بين الرجــل والمـرأة، ومـا ينتـج عنهمـا مـن نسـل، ومـا يستتبعه من تبعات، وقد اهتدى الناس فى كل تنظيمـاتهم إلى أنـه لابـد مـن رئيس مسئول، وإلا ضربت الفوضى أطنابها، وعادت الخسارة على الجميـع، وهناك ثلاثة أوضاع يمكن أن تفرض بشأن القوامة فى الأسرة:

فإما أن يكون الرجل هو القَيِّم - أو تكون المـرأة هـى القَيِّـم، أو يكونـا معاً قيمين.

ونستبعد الفرض الثالث منذ البدء لأن التجربة أثبتت أن وجود رئيســين للعمل الواحد أدعى إلى الإفساد من ترك الأمر فوضى بـلا رئيـس، والقـرآن يقـول عـن السـماء والأرض ﴿لـو كـان فيهمـا آلهـة إلا الله لفسـدتا﴾(١) وكذلك ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ...﴾(٢)

فإذا كان هكذا الأمر بين الآلهة المتوهمين، فكيف هو بين البشر العاديين؟

وعلم النفس يقرر أن الأطفال الذين يتربون فى ظل أبوين يتنازعان على السيادة، تكون عواطفهم مختلة، وتكثر فى نفسهم العقد والاضطرابات.

١- سورة الأنبياء : ٢٢.
٢- سورة المؤمنون : ٩١.

بقى الفرضان الأولا : وقبل أن نخوض فى بحثهما نسأل هذا السؤال: أيهما أجدر أن تكون وظيفته القوامة، بما فيها من تبعات : الفكر أم العاطفة؟ فإذا كان الجواب البديهى هو الفكر، لأنه هو الذى يدبر الأمور فى غيبة الانفعال الحاد الذى كثيراً ما يلتوى بالتفكير فيحيد به عن الطريق المباشر المستقيم، فقد انحلت المسألة دون حاجة إلى جدال كثير.

فالرجل بطبيعته المفكرة - لا المنفعلة - وبما يحتوى كيانه من قدرة على الصراع واحتمال أعصابه لنتائجه وتبعاته، أصلح من المرأة فى أمر القوامة على البيت، بل إن المرأة لا تحترم الرجل الذى تسيره فيخضع لرغباتها، بل تحتقره بفطرتها ولا تقيم له أى اعتبار.

فإذا كان هذا من أثر التربية القديمة التى تترك طابعها فى اللاشعور، وتكيف مشاعر المرأة دون وعى منها، فهذه هى المرأة الأمريكية بعد أن ساوت الرجل مساواة كاملة، وصار لها كيان ذاتى مستقل، عادت فاستعبدت نفسها للرجل، فأصبحت هى التى تغازله و تتلطف له ليرضى !

وتتحسس عضلاته المفتولة وصدره العريض، ثم تلقى بنفسها بين أحضانه حين تطمئن إلى قوته بالقياس إلى ضعفها. !!

على أن المرأة إذا تطلعت "للسيادة" فى أول عهدها بالزواج، وهى فارغة البال من الأولاد وتكاليف تربيتهم التى ترهق البدن والأعصاب، فسرعان ما تنصرف عنها حين تأتى المشاغل، وهى آتية بطبيعة الحال، فحينذاك لا تجد فى رصيدها العصبى والفكرى ما تحتمل به مزيداً من التبعات.

وليس مؤدى ذلك أن يستبد الرجل بالمرأة، أو بإدارة البيت، فالرئاسة التى تقبل التبعة لا تنفى المشاورة ولا المعاونة، بل العكس هو الصحيح.

فالرئاسة الناجحة هى التى تقوم على التفاهم الكامل والتعاطف المستمر،

وكل توجيهات الإسلام تهدف إلى إيجاد هذه الروح داخل الأسرة، وإلى تغليب الحب والتفاهم على النزاع والشقاق، فالقرآن يقول: **﴿وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾**(١)

وفى السنة خير دليل، وأجمل تفصيل، نظرياً وعملياً، قولاً وسلوكاً، فما أعظم هذا الدين. لمن فقه . مكتفين بهذا القدر، والله أعلم.

ثم ننتقل إلى الجزئية الأخرى:

قالوا : باسم القوامة، الرجل يطالب المرأة بواجب الطاعة، وإن نشزت طلبها فى بيت الطاعة، فلم؟!

نقول : الوضع الصحيح لهذا النظام فى الإسلام "حق مقابله واجب" إذ يرتبط الزوجان كلاهما بالآخر بطائفة من الحقوق والواجبات المتبادلة، فكل حق لأحد الزوجين على زوجه يقابله واجب يؤديه إليه، وإلى تبادل هذه الحقوق والواجبات يرجع الفضل فى تحقيق التوازن بين الزوجين من النواحى الاجتماعية والمدنية، واستقرار حياة الأسرة، واستقامة أمورها.

ومن أهم الواجبات التى تقع على كاهل الزوج : رعاية الأسرة

١- سورة النساء: ١٩.

والاشراف على شئونها والإنفاق على جميع أفرادها - كما تقدم بيان ذلك - ويقابل هذه الواجبات حقوق له على زوجته، أو واجبات عليها نحوه.

ومن هذه الواجبات أن تقيم معه حيث يريد، فلا تتخذ لنفسها مسكنا غير مسكنه.

وليس هذا الوضع مقصوراً على الشريعة الإسلامية، بل إنه الوضع المقرر في جميع شرائع الأمم المتحضرة،

فالقانون المدنى الفرنسى مثلا يقرر فى مادتيه (٢١٣، ٢١٤) أن الزوج تجب عليه صيانة زوجته، وأن يقدم لها كل ما هو ضرورى لحاجات الحياة فى حدود مقدرته وحالته، وأن المرأة فى مقابل ذلك ملزمة بطاعة زوجها، وأن تسكن معه حيث يسكن، وتنتقل معه إلى أى مكان يرى صلاحيته لإقامتها"

وتكاد هاتان المادتان تكونان ترجمة لقوله تعالى: ﴿**الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم**﴾(١) وقوله تعالى: ﴿**أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ..**﴾(٢).

﴿**لينفق ذو سعة من سعته ومن قُدِرَ عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لايكلف الله نفساً إلا ما آتاها**﴾(٣) وكما ذكرنا أن هذه المسألة مسألة حقوق وواجبات

١- سورة النساء : ٣٤.
٢- سورة الطلاق : ٦.
٢- سورة الطلاق : ٧.

فإن قصر الزوج فى الإنفاق على زوجه أرغمه القانون على ذلك إرغاماً، واتخذ حياله جميع ما يمكن اتخاذه من وسائل القهر، بل إنه ليذهب أحياناً فى هذا السبيل إلى الحكم عليه بعقوبة الحبس والأشغال.

وإن نشزت الزوجة أى لم تشأ أن تسكن حيث يسكن الزوج ويريد إسكانها، تدخل القانون كذلك فأرغمها على الإذعان لما سنه من أوضاع. وقد جرت العادة فى مصر أن يسمى المنزل الذى ترغم الزوجة الناشز على سكنه مع الزوج "بيت الطاعة" ويسمى الحكم "حكم الطاعة" إنها حقوق يقابلها واجبات.

وهذا القانون لا يعمل عمله هذا إلا مع الزوجة الناشز - وليس مع كل زوجه - أى التى تعدت حدود المجتمع، وانتهكت قوانين الأسرة، فتدخل هذا القانون ليرد الأمور إلى أوضاعها السليمة.

ورد الأمور إلى أوضاعها السليمة بعد أن يخل بعض الأفراد ، لابد أن يتسم بمظهر القسوة على المخالف وعدم مسايرته فى رغباته، وأنه يسلك ما هو أشد من ذلك مع الزوج إذا قصر فى واجب النفقة المقابل لهذا الحق، حتى إن الأمر ليصل إلى حبسه، فهو لا يحابى أحد الزوجين على حساب الآخر، وإنما يلزم كليهما القيام بواجبه، ويرعى الصالح العام، ويعمل على استقرار حياة الأسرة ووقايتها من الإنهيار.

وماذا يترتب على الغاء هذا النظام؟ إنها نتائج خطيرة هدامة، وذلك أن الأوضاع التى يتصور العقل أن تقوم عليها الأسرة إذا ألغى هذا النظام لا تخرج عن ثلاثة أوضاع.

أحدها : أن يكون للزوجة مطلق الحرية فى أن تسكن مع الزوج أو لا تسكن معه، وإذا نشزت و لم تكن معه تظل زوجة له من الناحية القانونية مع بقائها بعيدة عنه، ولا يحق للحاكم أن يتدخل، وهذا هو أقصى ما يمكن أن تصل إليه الفوضى من الناحيتين الاجتماعية والقانونية.

وثانيها : أن يفرق بين الزوجين بمجرد أن تنشز المرأة، وتبدو منها الرغبة فى عدم معاشرة زوجها،

ويكون معنى ذلك من الناحية العمليه أننا جعلنا الطلاق بيد الزوجة توقعه متى شاءت، وأننا نقلناه من يد الزوج فى صورته المقيدة بعدة قيود والتزامات إلى يد الزوجة فى صورة طليقة، لا يحده قيد، ولا يخضع إلا لما تمليه أهواء العاطفة ونزوات الوجدان. وغنى عن البيان أن هذا الوضع لا يقل فى نتائجه الهدامه وما يؤدى إليه من فوضى عن الوضع السابق.

ثالثهما : أن يلزم الزوج بمتابعة زوجته الناشز، فيحكم عليه بدخول بيت الطاعة، أو بيت النشوز، فى المنزل الذى نشزت فيه زوجته، ومع شذوذ هذا الوضع ومجافاته لمبدأ توزيع الحقوق والواجبات الذى أشرنا إليه، فإنه لا يحل المشكلة التى يثيرها المعترضون على نظام بيت الطاعة، ولا يحقق شيئاً مما يودون تحقيقه، لأن المرأة الناشز لا ترغب فى معاشرة زوجها فلا فرق إذن، من وجهة نظرها، بين أن نلزمها بالذهاب إلى زوجها أو تلزم زوجها بالذهاب إليها، فكلاهما يرغمها على ما لا تريد. فماذا تريدون بالزوج، وماذا تريدون بالزوجة؟!!

وهذا فضلاً عن أن نظام الطاعة فى الإسلام لا يجبر المرأة أن تحضر إلى بيت الزوجية على الرغم منها، وإنما لها على الزوج حق النفقة، فإذا رفضت العودة إلى البيت سقط حقها فى النفقة.

وأما أمر الطلاق فهو بيد الزوج إن شاء طلقها، وإن شاء أمسكها، ولكن أى رجل كريم لا يقبل أن يحتفظ بامرأة لا تريد الحياة معه.

وهذا يصل بنا إلى النقطة الأخيرة فى مسألة القوامة المرتبطة بالطلاق والتأديب فنقول: ومن حق القوامة نشأ فى الإسلام أن يكون الرجل هو الذى له حق الطلاق لا المرأة، وتقول النسوة اللآتى احترفن إقامة المؤتمرات للإعلان: إن هذا ظلم، وإنه كان ينبغى أن تعطى المرأة أيضاً هذا الحق فتطلق الرجل حين تريد.

والمسألة أبسط من أن تقوم فيها المماحكة، فلتسأل كل امرأة نفسها: كم مرة فى حياتها وافقت على الشىء بكليتها ثم رفضته هو ذاته حين تغيرت عاطفتها نحوه... ولتتصور بعد ذلك كم مرة كانت ستطلق زوجها ثم تعود فترده، ثم تعود فتطلقه وهكذا وهكذا، بحيث لا يقر للبيت قرار، وتختل نفوس الأولاد من هذه الحركة الدائمة من النقيض إلى النقيض.

وليس معنى هذا أنه لا يوجد رجال يصنعون ذلك، فقد بينا من قبل أن فى كلى الجنسين قدراً من طباع الآخر يزيد أو ينقص، ولكن الأحكام العامة فى مثل هذه الأحوال تكون موكلة بالأغلبية الساحقة، لا بالحالات الفردية التى تدخل فى باب الشذوذ.

على أن الإسلام أعطى المرأة حقاً كالطلاق، وهو الخلع تستخدمه إذا شاءت، فهو حقها ولها ما تريد .. ونفصل القول فى هذا-مع الإيجاز- بإذن الله تعالى، فنتساءل:

هل الإسلام هو الذى ابتدع الطلاق فحسب؟

وهل يكون الطلاق فى الإسلام بدون أسباب، وبلا مقدمات؟

ولماذا عادت أوربا للأخذ به؟

إن الإسلام جعل الزواج عهداً وثيقاً، أو ميثاقاً غليظاً، وأمر بالمحافظة على الحقوق الزوجية، وأوجب على الرجل القوامة والمسئولية، وأمره بحسن العشرة، والصبر على تقصير الزوجة أو قصورها، ولم يحل له إهمال نفقتها، ولا عند نشوزها أن يبدأ بضربها، وإذا احتاج الأمر إلى الضرب -بعد الوعظ والهجر- فلا يضرب وجه زوجته لما فيه من إهانة لكرامة الإنسان، ولا على أى عضو يؤدى إلى خطورة، ولا يكون ضرباً مبرحاً، يصيب مقتلاً، أو يكسر عظماً، أو يقطع لحماً، أو يسيل دماً، بل هو إلى التأنيب والتهديد أقرب من أن يكون للعقوبة والتعذيب، ولا يفعله الأخيار من الرجال، كما بينه النبى ﷺ، كما إذا عجز الرجل عن حل مشكلته مع زوجته بالوسائل المتاحة، أمر الإسلام بالتحكيم الأسرى أو المجلس العائلى للإصلاح والتوفيق، ومعاودة ذلك مرات دون التفكير فى الطلاق.

فإذا استحكمت النفرة وتفاقم النزاع، وأخفقت كل وسائل الإصلاح والتحكيم والتوفيق، فهنا يكون الطلاق هو العلاج رغم مرارته، إستجابة

لنداء الواقع، وتلبية لراعى الضرورة، وحلاً لمشكلات لا يحلها إلا الفراق بالمعروف، تلك هى وسيلة الطلاق، وآخر الدواء الكى.

وهى وسيلة أجازها الإسلام على كره، وجعلها أبغض الحلال، والناظر إلى واقع الناس يدرك هذا المغزى، كما أن الإسلام وضع قيوداً للحد من الطلاق، فجعله فى طهر لم يمس فيه الزوج زوجته، ولم يوقع طلاق الغضبان، وأعطى فرصاً فى المراجعة بالطلقة الأولى والثانية الرجعيتين، وأمر ببقاء المطلقة فى بيت الزوجية أثناء العدة **﴿لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا﴾**(١)، وإن كان لابد من الفراق بين الزوجين، فالمطلوب منهما أن يكون بمعروف وإحسان بلا إيذاء ولا افتراء ولا إضاعة للحقوق.

هذا ... وقد منح الإسلام للمسلم ثلاث تطليقات فى ثلاث مرات، فإن طلقها الأولى ثم الثانية ثم الثالثة -على تفصيل أشرنا إليه- فإذا عاد فطلقها للمرة الثالثة كان هذا دليلا واضحاً على أن النفرة بينهما مستحكمة والوفاق بينهما غير مستطاع، لهذا لم يجز له بعد التطليقة الثالثة أن يردها إليه، ولا تحل له بعد ذلك حتى تنكح زوجاً غيره زواجاً شرعياً صحيحاً مقصودا لذاته، لا لمجرد تحليلها للزوج الأول.

والمسلم الذى يطلق فيجمع الثلاث طلقات فى مرة واحدة أو لفظة واحدة فقد خالف الشرع فى ذلك، وإذا طلق الزوج زوجته، وبلغت الأجل المحدود لها -أى قاربت عدتها أن تنقضى- كان على الزوج أحد أمرين: إما

١- سورة الطلاق: ٢.

أن يمسكها بمعروف أى يرجعها بقصد الإحسان والإصلاح، وإما أن يسرحها ويفارقها بمعروف.

هذا ولا يجوز منع المطلقة عن الزواج بمن ترضى، إذا إنقضت عدتها.

فهذه أهم مسائل الطلاق فى الإسلام -دون توضيح أو إتمام- فأين منه المسيحية أو غيرها؟

وإذا كان الإسلام قد خول حق الطلاق للرجل، فليس ذلك ظلماً للمرأة، كما زعم أعداء الإسلام، وإنما لأن الرجل هو صاحب الإنفاق على هذا البيت وإنشائه، وتولى أموره، فهو أحرص عليه وأكثر محافظة له من غيره، فضلاً عما حباه الله به من كمال العقل أو تمام الرشد.

أما المرأة فإنها تتحكم فيها العواطف والغرائز أكثر من العقل، ويمكن الضحك على عواطفها بمعسول الكلام، فلو قدر للمرأة أن يكون الطلاق بيدها -ومن يعلم- لطلقت الرجل عشرات المرات، فى إنفعالة واحدة، فضلاً عن مرور الأيام والسنين.

ومع هذا كله، فإن كان الإسلام قد أعطى الرجل حق الطلاق، فإنه لم يحرم المرأة من حق يضاهيه، تستخدمه المرأة عند الضرورة، أو عند كراهية الزوجة لزوجها، أو ضاقت بتلك الحياة الزوجية، وقد أصابها من ورائها ضرر أو ظلم مادى أو معنوى أو نحو هذا، فلهذه الأسباب -ونحوها- إذا كرهت المرأة زوجها و لم تعد تطيق عشرته أن تفدى نفسها منه، وتشترى

حريتها برد ما كان دفع لها من مهر وهدايا، أو أقل منها أو أكثر حسب تراضيهما، والأولى ألا يأخذ منها أكثر مما بذل لها من قبل.

وهو المسمى "بالخلع" فى الإسلام، دلت عليه الآية ﴿**فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به**﴾(١).

ومن السنة: قصة امرأة "ثابت بن قيس" وقد جاءت إلى النبى ﷺ، وقالت: يارسول الله "ثابت بن القيس" ما أعيب عليه فى خُلُق ولا دين، ولكن لا أطيقه بغضاً، فسألها عما أخذت منه، فقالت: حديقة، فقال لها: أتردين عليه حديقته؟ قالت: نعم، فقال النبى ﷺ لثابت: إقبل الحديقة، وطلقها تطليقة"(٢).

- فإذا حدث شقاق بين الزوجين استحالت معه العشرة، فلكل من الطرفين أن يحمى نفسه من الضرر اللاحق به، للمرأة حق الخلع، وللرجل حق الطلاق.

ليس الإسلام بالدين الذى يقوم على إذلال المرأة، ولا هو كذلك بالدين الذى يقوم على إذلال الرجل، ولا ندرى سر الحملات على الإسلام فى أمر القوامة أو الطلاق أو بيت الطاعة أو نحو ذلك، إلا أن تكون حملات مبعثها الجهل بالفقه الإسلامى، والتقليد الأعمى للفكر الأجنبى.

والطلاق حق الرجل، وإكراهه على ترك هذا الحق لغيره، معناه إرغامه

١- سورة البقرة: ٢٢٩.
٢- أخرجه البخارى فى الطلاق (٥٢٧٣)، والنسائى فى الطلاق (٣٤٦٣)، وابن ماجة فى الطلاق (٢٠٥٧).

على هجر البيت مع بقاء عقد الزوجية قائماً،

ومعناه أيضاً أن ينطلق كلا الزوجين فى ظل هذا العقد الصورى المفروض كرهاً ليفعل ما يحلو له.. وهذا فساد عريض.

– إن "أوربا" لم تقف البتة عند القول بتقييد الطلاق، بل أباحته فى نطاق واسع ولأتفه الأسباب.

– وإن القول بأن الطلاق سبب أول أو ثانى أو ثالث لتشرد الأطفال فى مجتمعنا، جرأة مستنكرة، وتخبط شائن.

– إن عدد الذين يطلقون يهبط بعد التصفية التى كشف عنها الإحصاء إلى إثنين فى الألف، ففيم عويل النساء؟

وفيم فزع بعض الكتبة الذين طالت ألسنتهم على الإسلام وتعاليمه؟

ثم لماذا لم نسمع لهؤلاء صوتاً يضيق بإباحة الزنا فى الظروف التى حددها القانون؟

إن الجؤار هناك والصمت هنا دلالة ضمير خائن ونصيحة مغشوشة، ومن ثم فنحن نلفت الأنظار إلى ما ينطوى عليه هذا التناقض الغريب.

وأغرب من ذلك أنه قال بعض المتحمسين لتقييد الطلاق: إن سهولة الطلاق فى الإسلام يسرت لمن يغضون زوجاتهم من النصارى أن يتركوا دينهم ويدخلوا فى الإسلام حتى يتخلصوا بالطلاق من الزوجات اللاتى يكرهون!

قلت: كأن التشريع المقترح محاولة لمنع هؤلاء الفارين من اللجوء إلينا!

لو أن هناك عقلاً راشداً لاتخذنا هذا المسلك دليلاً على أن سلب الرجل حق الطلاق مزلقة لسلب دينه، إن عشرات الأمم المسيحية احترمت الواقع وأباحت الطلاق بعيداً عن التعاليم المتوارثة بين كهنة الكنيسة، فكيف نفكر نحن أن نضع أيدى المسلمين فى الأغلال التى طرحها غيرهم؟!

وماذا يقع لو قيدنا الطلاق كمايقترح هؤلاء القاصرون؟ أما يترك نفر من المسلمين دينهم فراراً من الزوجة التى لا يطيقون؟ وبذلك تكون أولى بركات القانون المراد سنه أن نعوق غير المسلمين عن الإسلام، وأن ندفع بعض المسلمين إلى الإرتداد حين يعجزون عن ترك زوجاتهم، وذلك تحت عنوان: إرضاء المرأة، أو حمايةالأسرة!!

إن هذا التشريع - لو صدر - فسيكون ذريعة إلى مفاسد هائلة، وجرائم فاتكة(١)

---

(١) راجع بتوسع، "كفاح دين" للشيخ محمد الغزالى، والحلال والحرام فى الإسلام، والخصائص العامة للإسلام، د/ يوسف القرضاوى، وشبهات حول الإسلام للأستاذ محمد قطب، حقوق الإنسان فى الإسلام، د/على عبد الواحد، التسامح والتعصب بين واليهودية والمسيحية والاسلام، دراسة مقارنة، د/ عمر بن عبد العزيز.

" ما حكم التوسل برسول الله ﷺ؟ "

(د) قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً**﴾(١).

والفهم الخاطئ للآية يتمثل فيما زعمه البعض أن الآية تأمر بالتوسل بالنبى ﷺ والذهاب إليه أو طلب الاستغفار، فهو وسيلتنا إلى الله عز وجل، ولا فارق فى ذلك بين حياته وموته إذ ثبت أن رجلاً أعرابياً قدم على قبر النبى ﷺ وتلا الآية، ثم قال : وقد ظلمت نفسى، وجئتك تستغفر لى، فنودى من القبر أنه قد غُفِر لك، وفى رواية أخرى: أن النبى ﷺ جاء إلى العتبى وقال: إلحق بالأعرابى، وبشره بأن الله قد غفر له... أ. هـ.

والحقيقة أن الآية الكريمة لم تتحدث عن التوسل من بعيد أو من قريب، بل هو أمر عجيب، وفهم غريب، بل هو خاطئ ومريب.

والرد على ذلك: بأن هذا الذى ذكر لم يصح، ولا دليل عليه، بل ولا وجه له فى الآية.

إذ معنى الآية - كما ورد فى كتب التفسير الصحيحة - هو أنها نزلت فى توبة المنافقين، وقد جاءت بين الآيات التى تتحدث عن المنافقين.

وتفسيرها: ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بالتحاكم إلى الطاغوت، وكذا

١- سورة النساء : ٦٤.

باتهامهم لك، وسبهم وشتمهم، وتحريفهم الكلم بألسنتهم فى مثل قولهم "راعنا" و"السام عليك" ... الخ.

ثم جاؤك تائبين من النفاق، متنصلين عما ارتكبوه، فاستغفروا الله من ذلك بالإخلاص، وبالغوا فى الاعتذار إليك من إيذائك، برد قضائك حتى انتصبت شفيعاً لهم إلى الله ومستغفراً لوجدوا الله تواباً أى لعلموه تواباً، أو لتاب عليهم.

ولم يقل : واستغفرت لهم، وعدل عنه إلى طريقة الالتفات، تفخيماً لشأن رسول الله ﷺ وتعظيماً لاستغفاره، وتنبيهاً على أن شفاعة من الرسول ﷺ تقع من الله بمكان(١).

وأما بالنسبة لقصة الأعرابى هذا، فالحق يقال إنها ليست تنزيلا من حكيم حميد، ودين الله لا يؤخذ من الرؤى والمنامات، أو الحكايات والخيالات.

وحكاية العتبى مع الأعرابى لم تصح، ولا يستشهد بمثلها فى أمور العقيدة والأحكام.

ومع ذلك فقد أوجب المتصوفة على أتباعهم العمل بها، فكل من زار قبر النبى ﷺ يجب أن يتلو الآية، ويقول مقالة الأعرابى؟! وهذا عجيب.
وإذا قيل : العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهى -على المعنى العام - كالآتى:

١- أنظر : الزمخشرى فى الكشاف.

يرشد الله تعالى العصاة والمذنبين، إذا وقع منهم الخطأ والعصيان أن يأتوا إلى الرسول ﷺ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنه مجاب الدعاء، فإنهم إذا فعلوا ذلك تاب الله عليهم ورحمهم وغفر لهم.

وهكذا كان يفعل أصحاب النبى ﷺ، لا فى الاستغفار فقط، وإنما فى قضاء حوائجهم أيضاً، كمن كان يطلب الشفاء، أو الاستسقاء، أو استجابة الدعاء، أو غير ذلك ،

و لامانع فى ذلك ولا ضرر، بل هو من التوسل المشروع بدعاء النبى ﷺ لأمته.

وإذا كان المسلم يدعو لأخيه المسلم، فمن باب أولى، النبى ﷺ يدعو لأمته.

فأين هذا من التوسل الممنوع؟ أو التوسل بالنبى ﷺ بعد وفاته؟

وكيف نطلب منه الدعاء بعد الممات؟ وقد فقدنا الجانب الأهم وهو دعاء الرسول ﷺ أو استغفاره؟ فالأمر مرتبط بحياته، وأما بعد مماته، قد بقى لنا الاستغفار، كما قال الله عز وجل: ﴿**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون**﴾(١).

فالتوسل الوارد والمشروع بالدعاء، لا بالأشخاص، على الرغم من منزلتهم ومكانتهم عند الله تعالى.

١- سورة الأنفال : ٣٣.

والكلام عن المشروع والممنوع من الوسيلة ليس هذا مجاله، فليراجع في بابه(١).

فهذه الآية الكريمة، لما فهمت خطئا، اختلف الناس وتفرقوا، ووقع كثير من الناس فى كثير من الشركيات باسم التوسل بالنبى ﷺ.

وعلى الأمة المسلمة أن تتنزه عن هذه الشركيات، وأن تعرف المنهج الصحيح، وأن تلتزم بتفسير كتاب الله تعالى تفسيراً صحيحاً، بعيداً عن الخرافات والخزعبلات.

١- انظر قاعدة جليلة فى التوسل والوسيلة لابن تيمية، وحقيقة الإيمان، دكتور عمر بن عبد العزيز.

" هل في القرآن تناقض؟! "

(٦) قال تعالى: ﴿.. **وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا. ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً**﴾(١)

زعم المستشرقون والجاهلون أن في القرآن تناقضاً، إذ كيف يقول الله: ﴿**قل كل من عند الله**﴾ وفي نفس الوقت: ﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله، وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾؟!!

والرد على هذه الشبهة : بمعرفة أن الحسنة حسنتان "حسنة كونية وحسنة شرعية" والسيئة سيئتان :"سيئة كونية وسيئة شرعية"

فالحسنة الكونية بمعنى النعمة والعطاء والخير والصحة والعافية والنصر والعز والجاه، فهذه الحسنة من الله تعالى، والسيئة الكونية بمعنى النقمة والابتلاء والشر والنقص والمرض والهزائم والذل وما إلى ذلك، فهذه من عند الله تعالى أيضاً، لأنه عز وجل هو الذي يبلو العباد، امتحاناً وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته في تربية عباده وتدبير شئونهم، وكما قال تعالى: ﴿**ونبلوكم بالشر والخير فتنة ..**﴾(٢).

١- النساء : ٧٨، ٧٩.

٢- سورة الأنبياء : ٣٥.

وقال عز من قائل: ﴿فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن، كلا بل لا تكرمون اليتيم﴾(١).

كلا، أى ليست عند العطاء مكرماً، ولا عند المنع ممتهناً، ولكنك مبتلى فى كلٍ من الحالتين.

وهذا هو الذى قاله الله تعالى: ﴿قل كل من عند الله﴾.

وأما الحسنة الشرعية بمعنى الطاعة وفعل الخيرات، فإنها تنسب إلى الله عز وجل لأنه هو الذى بها أمر، وأما السيئة الشرعية التى هى بمعنى المعصية والمخالفة، فهذه السيئة لا تنسب إلا إلى العبد فاعلها، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً، لأن الله تعالى لم يشرعها و لم يأمر بها و لم يرغب فيها، بل حرمها وتوعد عليها منفراً منها، فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى؟ اللهم، لا.

وهذا هو قوله تعالى:﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾ ونحن نستطيع بذلك أن نفهم هاتين الآيتين الكريمتين.

وقد نزلتا رداً على المنافقين الذين كانوا ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى، وينسبون السيئة بمعنى النقمة والبلاء والشر إلى رسول الله ﷺ، فرد الله تعالى عليهم قولهم هذا وعابه عليهم ونسبهم إلى سوء الفهم وقلة الادراك، وأخبر مقرراً أن كلاً من هذين النوعين من الحسنة والسيئة

١- سورة الفجر: ١٥ - ١٧.

هما من عند الله تعالى، وبهذا زال -والحمد لله- الإشكال، الذي كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى، أو بعض المستشرقين، يقولوا: إن بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً، في حين أنه لا تناقض بينهما ولا تعارض- كما رأيت - وحاشا لكتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضاً، تناقضاً أو تعارضاً، وكيف يكون ذلك، والله منزله وهو العزيز الحكيم، الذي يقول: ﴿**وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد**﴾(١).

هذا وقد جاء في تفسيرها - كما قاله بن كثير: ﴿وإن تصبهم حسنة﴾ أي خصب ورزق من ثمار وزروع وأولاد ونحو ذلك (يقولوا هذه من عند الله).﴿ وإن تصبهم سيئة﴾ أى قحط وجدب ونقص في الثمار والزروع أو موت أولاد أو نتاج أو غير ذلك (يقولوا هذه من عندك)، أى من قبلك وبسبب اتباعنا لك واقتدائنا بدينك، كما قال تعالى عن قوم فرعون ﴿**فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه**﴾(٢).

وكما قال تعالى: ﴿**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين**﴾(٣)، وهكذا قال هؤلاء المنافقون الذين دخلوا في الإسلام ظاهراً وهم كارهون له في نفس الأمر، فإذا أصابهم شر إنما

١- سورة فصلت : ٤١، ٤٢.

٢- سورة الأعراف : ١٣١.

٣- سورة الحج : ١١

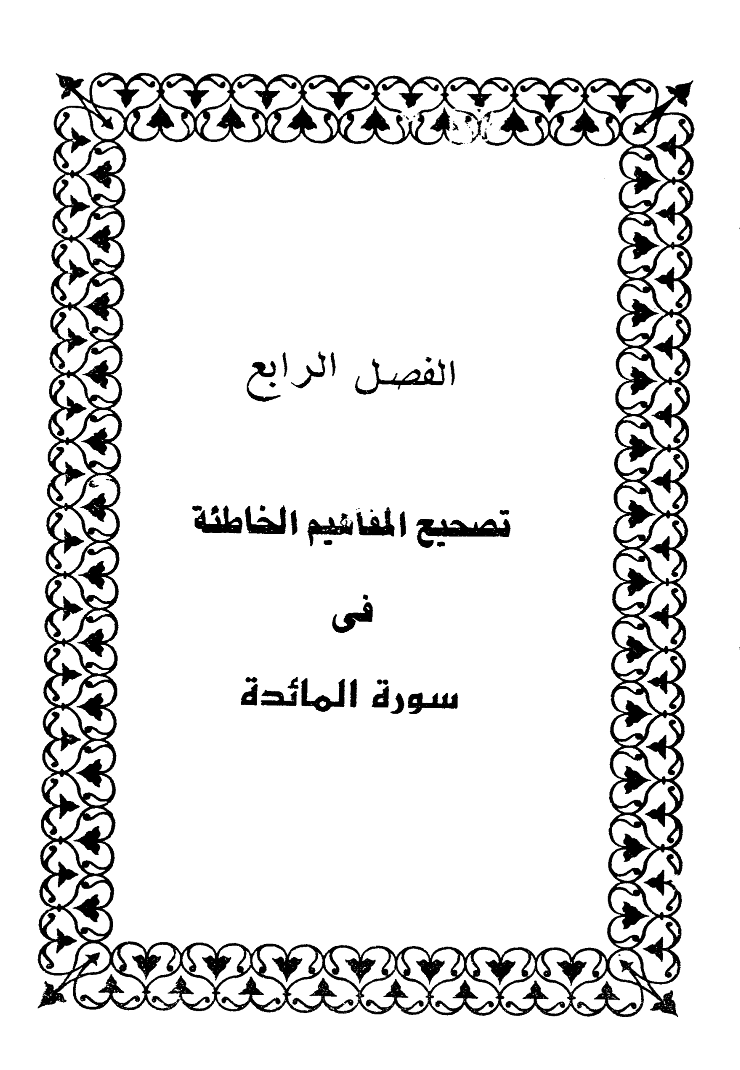
يسندونه إلى إتباعهم النبى ﷺ، وتركهم دينهم.

فأنزل الله عز وجل: ﴿**قل كل من عند الله**﴾ أى الجميع بقضاء الله وقدره، وهو نافذ فى البر والفاجر، والمؤمن والكافر، أى الحسنة والسيئة، ثم قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصادرة عن شك وريب، وقلة فهم وعلم، وكثرة جهل وظلم ﴿**فماهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا**﴾ و﴿**ما أصابك من حسنة فمن الله** ﴾ أى من فضل الله ومنته ولطفه ورحمته ﴿**وما أصابك من سيئة فمن نفسك**﴾ أى فمن قِبَلك، ومن عملك أنت، كما قال تعالى: ﴿**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير**﴾(١)، (فمن نفسك)، أى بذنبك، أو عقوبة لك، وقد قال ﷺ، "لا يصيب رجلاً خدش عود ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله أكثر" وهذا الذى أرسله قتادة، قد روى متصلاً فى الصحيح "والذى نفسى بيده لا يصيب المؤمن هم ولا حزن، ولا نصب حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله عنه بها من خطاياه".

وقال أبو صالح: "وما أصابك من سيئة فمن نفسك" أى بذنبك، وأنا الذى قدرتها عليك (رواه ابن جرير)(٢).

١- سورة الشورى : ٣٠.

٢- تفسير بن كثير جـ١، ص ٥٢٧، ٥٢٨ بتصرف.



الفصل الرابع

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة المائدة

الفصل الرابع

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى "سورة المائدة"

" هل النبى محمد ﷺ نور؟ "

(١) قال تعالى: **﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين. يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾**(١).

والشاهد فى الآية **﴿قد جاءكم من الله نور﴾** والفهم الخاطىء فى ذلك، تفسير النور بالنبى محمد ﷺ، ذكره بعض المفسرين كالألوسى والجلالين وغيرهما.

ولما فسرت الآية بهذا ذهب الصوفية فى ذلك كل مذهب، فقالوا: النبى محمد نور من نور الله، وهو قبضة نورانية رحمانية، ومن نوره خلقت المخلوقات، وهو أول المخلوقات ... واستدلوا على ذلك ببعض الأحاديث الموضوعة، منها "أول ما خلق الله نور نبيك ياجابر" و" قبض الله قبضةمن نوره وقال لها: كونى محمدا،فكانت محمدا"..الخ

وزعموا أنها نورانية حسية، تتنافى مع البشرية، وما الهيكل البشرى إلا غطاء للنور المحمدى أو الحقيقة المحمدية، والناس لم يروا النبى على حقيقته

١- سورة المائدة : ١٥-١٦.

النورانية، وإنما رأوا الجراب ولم يروا السيف. ولم يره أحد على حقيقته النورانية إلا "عائشة" مرة وكذا "فاطمة" مرة أخرى. وهذا الذى ذكرته - كشبهة أو فهم خاطىء حول الآية - سطره الصوفية فى عشرات الصفحات فى بعض كتبهم، وبنوا عليه مذهبهم، بل أسسوا عليه معتقدهم، فخالفوا بذلك أهل السنة والجماعة فى أصل من أصول الدين، وأوقعهم ذلك فى الشرك الأكبروالكفر المبين .

والمفهوم الصحيح للآية ليس على نحو ما ذهبوا إليه، أو بنوا عليه ما اعتقدوه، فتفسير "النور" الوارد فى الآية هو "القرآن" وليس النبى ﷺ وإن كانت الآية تحتمله، فقوله تعالى: ﴿قد جاءكم من الله نور﴾ يمكن أن يفسر: قد جاءكم من الله نورهو النبى، أو جاءكم نور هو القرآن، لأن كلمة "جاءكم" تصح على المعنيين،

ولذلك بعض المفسرين فسرها بالقرآن، وبعضهم فسرها بالنبى، والى هذا القدر فالأمر محتمل، حتى تأتى أدلة أخرى ترفع هذا الاحتمال، وتزيل هذا الإشكال، وتمنع اللبس أو الغموض،وهذه الأدلة - بفضل الله تعالى- قائمة، وذلك فى القرآن وخير ما يفسر به القرآن هو القرآن.

فلو قال تعالى: "قد أرسلنا إليكم نوراً" فلا يحتمل إلا النبى.

ولو قال: "قد أنزلنا إليكم نوراً" فلا يحتمل إلا القرآن .

فإذا لم يكن هذا مفسراً فى تلك الآية ، فهو مفسر فى غيرها، فى مثل قوله تعالى :

﴿يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبينـاً﴾(١) والمراد بالنور المنزل هنا هو القرآن.

وقال أيضا: ﴿ ... **فـالذين آمنـوا بـه وعـزروه ونصـروه واتبعـوا النـور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون**﴾(٢)

والنور الذى أنـزل معـه هـو القـرآن أيضـاً، وقـال تعـالى: **﴿فـآمنوا بـا لله ورسوله والنور الذى أنزلنا﴾**(٣) هو القـرآن كذلـك. فهـذه الآيـات التـى ذكرت النور بمعنى القرآن كافية فى تفسير آية المائدة **"قـد جـاءكم مـن ا لله نور"** بأنه هو القرآن، وليس النبىﷺ .

وقد يقول قائل: فكيف يكون النور هو القرآن، والكتاب المبين هـو القـرآن، فيعطف الشيء على مثله: فنقول، لا: ليس هذا من جنس هذا، وإنما هو مـن باب تعدد الصفات لموصـوف واحـد، ونظـائره فـى القـرآن الكريـم كثـيرة، ومنها: **"وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين"**(٤) وكذلك **﴿ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاءلما فى الصدور وهـدى ورحمة للمؤمنين ﴾**(٥) وعن الرسول ﷺ :**﴿يا أيها النبىإنا أرسلنـاك شاهداً ومبشراً ونذيراً .وداعياًإلى ا لله بإذنه وسراجاً منيراً﴾**(٦)

---

١ – سورة النساء : ١٧٤.
٢ – سورة الأعراف : ١٥٧.
٣ – سورة التغابن :٨.
٤ – سورة الإسراء : ٨٢.
٥ – سورة يونس : ٥٧.
٦ –سورة الأحزاب :٤٦،٤٥.

فكل هذا، وغيره - يدل على جواز تعدد الصفات لموصوف واحد.

ونحن إذ نقرر تلك الحقيقة وهى أن تفسير قوله تعالى: ﴿**قد جاءكم من الله نور**﴾ هو القرآن، ليس هذا معناه أننا ننفى النورانية عن رسول الله ﷺ، فقد رأينا فى الآية السابقة، أنه موصوف "بالسراج المنير" الذى هو صفة القمر، فالنبى ﷺ فى نوره شبه بالقمر الذى يضيئ للناس الطريق فى ظلمات البر والبحر، وكذا النبى محمد ﷺ يهتدى الناس بهديه، ويستضيئون بوحيه، فيصل بهم إلى بر الأمان، وشاطئ السلامة، وذلك فى الدنيا والآخرة.

ولكن هذه النورانية "معنوية" لا تتنافى مع بشريته ﷺ التى أثبتها له القرآن الكريم فى كثير من الآيات، ومنها ﴿**قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً**﴾(١).

وكذلك ﴿**قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد**﴾(٢).

وأيضاً ﴿**وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون**﴾(٣) وغيرها من الآيات.

وفى السنة "**إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلى، فلعل أحدكم يكون ألحن بالحجة من أخيه فأقضى له، فإنما أقضى له بقطعة من النار** ... "(٤)

١- سورة الاسراء : ٩٣. **٢- سورة الكهف : ١١٠.**
٣- سورة الأنبياء : ٣٤.
٤- رواه البخارى فى المظالم (٢٤٥٨)، ومسلم فى الأقضية (١٧١٣).

وقوله ﷺ للرجل: "هون عليك، إنما أنا ابن امرأة من مكة كانت تأكل القديد"(١) وغير ذلك فكيف يتسنى للصوفية أو غيرهم أن ينكروا بشرية النبى ﷺ، مع هذا الوضوح الذى لا لبس فيه ولا غموض، وكيف يتجرأون على إنكار هذه الآيات من القرآن، وإنكار حرف من القرآن كفر، فكيف ببضع آيات؟!!

فللنبى ﷺ نورانية، ليست من نور الله ولا قبضة منه، ولا أنه فى ليلة الاسراء والمعراج اتصلت نورانية النبى بنورانية الله، فحل الجزء فى الكل، كما زعمت الصوفية!! **فهذا** كفر بواح، وهو شرك صراح مثل شرك النصارى فيما زعمته فى عيسى عليه السلام، وقد نهى عنه النبى ﷺ فقال:

"لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله"(٢)

كما لانزعم أنها نورانية حسية، بحيث ينور فيراه البعض، وينطفئ فلا يراه أحد على حقيقته !! وليس هو - كذلك - من نور الملائكة، لأنه بشر، من ولد آدم - الذى هو من طين - ومع ذلك فهو ﷺ أفضل من الملائكة - الذين هم من نور - بل هو أفضل من إمام الملائكة "جبريل" عليه السلام.

١- أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، وابن سعد (٢٣/١) والحاكم (٣/٤٧-٤٨) وصححه ووافقه الذهبى، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (١٨٧٦).
٢- أخرجه البخارى فى أحاديث الأنبياء (٣٤٤٥)، والبغوى فى شرح السنة (٣٦٨١)، وأحمد (٢٣/١).

ولذلك قلنا: إنها نورانية معنوية، كما أن الإيمان نور، والقرآن نور،والصلاة نور، والصبر ضياء، والعلم نور، وكل هذا نور معنوى، والذى جاءنا بهذا الخير أو النور، أو جاء عن طريقه هو النبى ﷺ الذى جمع بين نور الإيمان والقرآن والعلم والصلاة والصبر وسائر الطاعات والخيرات والبركات ، عليه أفضل الصلوات وأزكى التسليمات.

فهذا هو المعقول والمقبول، وليس على النحو المخبول الذى قال به أصحاب الخرافات والأساطير. وأعود للآية فأقول: إن الآية الكريمة لم تغفل الحديث عن البنى ﷺ، وإنما بدأت به، ثم ثنت بالحديث عن القرآن الكريم، فى معرض الحديث عن الامتنان على أهل الكتاب بأعظم نعمتين عرفتا فى الوجود، هما النبى ﷺ، والقرآن الكريم.

والحقيقة التى لا تنكر على الاطلاق، أن النبى ﷺ بشر، وليس بملك، وأنه إنسان وليس إلهاً ولا ابن إله ولا جزءا من إله، ولكنها البشرية المؤمنة الكاملة التى حلقت فوق قمة السمو الإنسانى الأعظم، مع التألق فى مقام العبودية الخالصة فى أعلى أفق للتوحيد الخالص .

فأين هذا مما زعمه الصوفية أن النبى محمد ﷺ خلق من نور، وأن كل شىء من نوره، فقال "الدباغ"، "اعلم أن أنوار المكونات من عرش وفرش وسماوات وأراضين وجنات وحجب، وما فوقها وما تحتها إذا جمعت كلها وجدت بعضها من نور النبى، وأن مجموع نوره، لو وضع على العرش

لذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التى فوق العرش لتهافتت، ولو جمعت المخلوقات كلها، ووضع ذلك النور العظيم لتهافتت وتساقطت.

ويقول "التيجانى"، لما خلق النور المحمدى، جمع فى هذا النور المحمدى جميع أرواح الأنبياء والأولياء جميعاً جمعاً أحدياً، قبل التفصيل فى الوجود العينى، وذلك فى مرتبة العقل الأول.

ويقول "الحلوانى" فى قصيدته "المستجيرة" يخاطب رسول الله

أنشأك نوراً ساطعاً قبل الورى	فرداً للفرد، والبرية فى العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته	من نورك السامى، فياعظم الكرم
فلذا إليك الخلق تفزع كلهم	فى هذه الدنيا، وفى اليوم الأعم
وإذا دهتهم كربة فرجتها	حتى سوى العقلاء فى ذلك انتظم
جُدْ لى، فإن خزائن الرحمن فى	يدك اليمنى، وأنت أكرم من قسم

وغير ذلك كثير وكثير، يسمع منهم، ومعروف فى قصائدهم وكلامهم، وأذكارهم وأورادهم، فهم يقولون فى بعض صلواتهم على النبى ﷺ "اللهم صلِ على من منه انشقت الأنوار، وانفلقت الأسرار، وفيه ارتقت الحقائق ..." وصلاة الفاتح: "اللهم صلِ على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادى إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم" كما زعمت الصوفية أن النبى ﷺ ليلة الاسراء والمعراج، هناك حل الجزء بالكل، أى عاد جزء النورانية المحمدية إلى النورانية الإلهية، وغير ذلك من الهراء الذى تزعمه الصوفية وتدين به

بل هو الكفر والافتراء، المأخوذ من كلام أهل الضلال والأهواء، ولا يمت بصلة لدين رب الأرض والسماء .

وهل يجوز أن تؤخذ قضايا الدين بدون بينة أو دليل، أو حجة وبرهان **﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾**(١) فأين الدليل على هذا الكلام أو ذلك الزعم، والآية التى استدلوا بها على نحو ما رأيت، ليس فيه ثمة دليل على ما زعموه، والأحاديث التى استشهدوا بها من جنس الموضوع المكذوب على رسول الله ﷺ،

فيا قوم: هذا دين وليس بطين، وهذه فتوى، وليست "فتًى"!!(٢).

١- سورة البقرة : ١١١.

٢- راجع بتوسع كتاب: هذه هى الصوفية، عبد الرحمن الوكيل، شبهات الصوفية، د:عمر ابن عبد العزيز.

" مـا هـى الـوسيلـة ؟ "

(٢) قال تعالى: ﴿**يـا أيهـا الذيـن آمنـوا اتقـوا ا لله وابتغـوا إليـه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون**﴾(١).

والشاهد: وابتغـوا إليـه الوسـيلة، حيـث فهـم كثـير مـن النـاس معنـى الوسيلة فهماً خاطئاً، فزعموا أنها الوسيلة بالنبى محمـد ﷺ، وآل بيتـه، وكذا بالأولياء والصالحين، وتوسعوا فيها حتى شملت مشـايخ الطـرق، والتوسل بأى شىء، فكل وسيلة عندهم مشروعة.

فباب الوسيلة مفتوح على مصراعيه - عند الصوفية - لا يضرهـم ولا يضيرهم أن يتوسلوا بأى شىء، سواء أكان دعاءً، أم نذراً، أم طوافـاً، أو كـان سـجوداً علـى الأعتـاب، أو تمسـحاً بـالأبواب، أو تبركـاً بالأخشاب، كل ذلك باسم الوسيلة !!

ونصحح هذا الفهم الخاطئ، فنقول: ما هى الوسيلة؟ وهل كل وسـيلة مشروعة؟ وما معنى الآية على هذا النحو:

أولاً: الوسيلة فى الشرع هى التقرب إلى ا لله تعالى بالايمان به والعمـل الصالح، طلباً للتقرب منه تعالى، والحظوة لديه والدرجة عنـده سـبحانه وتعالى، أو لقضاء حاجة بـالحصول على مطلوب، والفـوز بمرغـوب، والنجاة من مرهوب، وتحقيق نفع أو دفع ضر.

١- سورة المائدة : ٣٥.

وهذه الوسيلة لابد لها من شروط أساسية لتكون مجدية نافعة ،

يحصل بها القرب ، أو تقضى بها الحاجة ، لابد من مراعاة شروط أساسية

ولابد من توافرها

بأن يكون العبد المتوسل إلى الله مؤمناً صالحاً، وأن يكون العمل المتوسل به مما شرع الله تعالى لعباده، وأن يتقربوا به إليه سبحانه، وأن يكون العمل المشروع قربة موافقاً فى أدائه لما كان الرسول ﷺ يؤديه عليه، فلا يزاد فيه ولا ينقص عنه، ولا يفعل فى غير زمانه الذى شرع له، ولا فى غير مكانه الذى عين له وحدد.

فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبداً، كما لا تكون البدعة قربة إلى الله تعالى ولا وسيلة بحال من الأحوال. ولا كل ما هو من جنس ما لم يشرعه الله تعالى، أو لم يسنه الرسول ﷺ.

ثانياً: وبذلك يتضح لنا أنه ليست كل وسيلة مشروعة.

إذ لو كانت كل وسيلة مشروعة لكانت الغاية تبرر الوسيلة، فالوسيلة منها ما هو جائز، ومنها ما هو ممنوع، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ولا فرق فى ذلك بين التوسل فى الأمور الدنيوية، أو الأمور الأخروية، فلابد من إذن الشارع فى جواز الوسيلة وإلا حرمت.

والمشروع منها لا يكون بهوى أو مزاج أو تعصب، وإنما بما شرعه الله لعباده، وأذن لهم فيه.

وهى التى يمكن أن نلخصها فى الإيمان - بأركانه، بتمامه، بفحواه ومعناه، بمطلقه وإطلاقه - وكذلك بالأسماء الحسنى، وبالعمل الصالح، وبدعاء المؤمنين(١).

والوسيلة بهذا المعنى مشروعة، مندوب إليها فى كل مكان وزمان، وهو الذى أمر به وأشار إليه قول ربنا الرحمن: ﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة . وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون**﴾

ثالثاً: ففى الآية أمر بالوسيلة وترغيب للمؤمنين فى طلب القرب من الله تعالى، بفعل الطاعات، الزائدة عن الفرائض والواجبات.

والآية وإن كانت تدل على الوسيلة المشروعة - على سبيل العموم - فإنها تدل على التوسل بالعمل الصالح - على سبيل الخصوص - كما هو واضح من نص الآية، بالأمر بالتقوى والجهاد،

والتقوى هى جوهر هذا الدين ومنزلة رفيعة فيه، ثم وصولاً إلى ذروة سنام الإسلام. وهو الجهاد فى سبيل الله.

فالآية تحدثنا عن الوسيلة المشروعة، وليست الممنوعة، على نحو ما وضحناه ،

ولا يجوز إساءة فهم الآية حتى تشمل كل وسيلة، الجائز والباطل، والمشروع والممنوع !!

فهل يجوز تفسير الآيـة على أن الوسيلة التى تبتغى إلى الله هى عباد

١- راجع الوسيلة المشروعة بالتفصيل فى كتابنا " حقيقة الإيمان "

أمثالهم، يسألون الله تعالى بذواتهم، ويتوجهون إليه بأشخاصهم، ويقسمون عليه بحقهم؟!!

" ايتونى بأثارة من علم إن كنتم صادقين "؟!!

ومن ثم فلا توسل بالأشخاص مهما كانت درجتهم، أو علت منزلتهم، فلا توسل بملك مقرب، ولا نبى مرسل، ولا ولى صالح، وكل ما يفعل عند قبور الأولياء والصالحين باسم الوسيلة فهو مرفوض، وكل دليل استدل به على هذا الصنيع، فهو إن صح الدليل، لم يصح الاستدلال، بل فهم على غير وجهه، ووضع فى غير موضعه، ولوى عنق النص حتى يتفق مع رغبات أهل البدع والأهواء (١).

إن الوسيلة لابد أن تكون من العمل المشروع قربة، الموافق فى آدائه لما كان الرسول ﷺ يوديه، مع اخلاص النية لله عز وجل، وهذا العمل يتمثل فى أداء الفرائض والواجبات، وفعل الطاعات الزائدة عن ذلك، والنوافل، وكذلك بتقوى الله عز وجل التى تتحقق بفعل المأمور وترك المنهى، وتترقى حتى درجة الاحسان ، وبها تتحقق النجاة من العذاب . وتحصيل الثواب إن شاء الله تعالى .

١- راجع: شبهات المتوسلة، المرجع السابق

" مـا حكـم مـن لـم يحكـم بـمـا أنـزل الله؟ "

(٣) قـال تعـالى: ﴿... **ومـن لم يحكـم بمـا أنـزل الله فـأولئك هـم الكافرون**﴾(١).

وأردفها في الآيات المتعاقبة بقولة تعـالى: ﴿**ومـن لم يحكـم بمـا أنـزل الله فأولئك هم الظالمون**﴾(٢)

وقوله: ﴿**ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون**﴾(٣).

والفهم الخاطئ يتمثل فيما ذهب فيه الناس مذاهب حول هذه الآيات الكريمة

فمنهـم مـن قـال: إنهـا ليست منهـا شـيء فـي المسـلمين، إنهـا فـي أهـل الكتاب !! أو في اليهود خاصة !

ومنهم من زعم: أن الآية الأولى "الكافرون: في المسلمين، لكن على غير وجهها، و"الظالمون" في اليهود، و"الفاسقون" في النصارى. !!

ومنهم من زعم: أنها في المسلمين كلها، ولكـن علـى نحـو مـا قـال ابـن عباس وأصحابه "ليس بالكفر الذى تذهبون إليه، إنمـا هـو كفـر دون كفـر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق"

ثـم راحـوا يطبـقـون ذلك على الحكام المبدلـين لـشرع الله، والمتحاكمين إلى قوانين أهل الأرض !!!

١- سورة المائدة : ٤٤.
٢- سورة المائدة : ٤٥.
٣- سورة المائدة : ٤٧.

وعلى العكس من ذلك قال الخوارج إنها تقضى بأن كل من حكم بغير ما أنزل الله فهو كافر، وكل من أذنب فقد حكم بغير ما أنزل الله فوجب أن يكون كافراً.

ومنهم من زعم أنها ليست على وجهها، بل تعنى فعل فعلا يضاهى أفعال الكفار، ويشبه - من أجل ذلك - الكافرين ونحو ذلك مما ذكر فى تفسير الآية، وقد فهم على غير وجهه أو وضع فى غير موضعه(١).

فلا يمكن أن يصح القول بأن هذه الآيات نزلت فى اليهود خاصة، أو فى أهل الكتاب فقط دون المسلمين وذلك لأسباب منها: العمل بالقاعدة الصحيحة التى تقول: "العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب"

وقوله تعالى: ﴿**ومن لم يحكم** ..﴾ كلام أدخل فيه لفظ "من" فى معرض الشرط فيكون للعموم، فلا يفيد الاختصاص.

وإذا حكم على أهل الكتابين بالكفر والظلم والفسق إذا لم يحكموا بالتوارة والإنجيل، فنحن المسلمين من باب أولى، إذا لم نحكم بالقرآن، وإذا ذُكر أنها فى أهل الكتاب فقط، يترتب على ذلك أن المسلمين إذا حكموا بغير ما أنزل الله فلن يكونوا كافرين ولا ظالمين ولا فاسقين !!

فالصحيح أن الآيات تشمل أهل الكتاب وغيرهم،ورضى الله عن حذيفة، وقد ذكرت الآيات الثلاث عنده، فقال رجل: إن هذا فى بنى إسرائيل،

١- راجع كتب التفسير.

فقال حذيفة: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن كان لكم كل حلوة، ولهم كل مرة،كلا والله لتسلكن طريقهم قذ الشراك ، أو قال: حذو النعل بالنعل.

ولا يصح قولهم بأن الآية الأولى فى المسلمين، والثانية فى اليهود والثالثة فى النصارى، وهو أضعف من سابقة، إذ يترتب عليه أن يكون المسلمون أسوأ حالاً من اليهود والنصارى.

ولا يشفع لهذا قولهم: إن الكفر إذا نسب إلى المؤمنين حمل على التشديد والتغليظ.

إذ أن الكفر-هنا فى الآية- بمعناه الشرعى،الكفرالأكبرالذىيخرج من الملة.

ويستبعد رأى الخوارج في الآية، إذ استشهدوا بها على كفر من أذنب، وقاسوه على الذى حكم بغير ما أنزل الله، وعلى كفر الفاسق، كما هو فى مذهبهم، والآية لا تعنى ذلك، ولا شك أن أمر المعصية يختلف عن أمر الحكم والاعتقاد.

ولا يصح قولهم: إن المراد بالآية ترك الحكم بجميع ما أنزل الله، إذ يجاب عنه: بأن الوعيد على ترك الحكم بما أنزل الله، وهو يتناول تعطيل الحكم جميعه أو بعضه، بل نزلت الآيات بسبب مخالفة حكم الله فى واقعة الرجم.

ولا يصح الرأى القائل: أنه فعل فعلاً يضاهى أفعال الكفار، ويشبه من أجل ذلك الكافرين، فهو عدول عن الظاهر، وليس له ما يؤيده.

وأما ما صح عن ابن عباس، وعطاء ، وابن طاوس ،و بعض السلف ..أنه

كفر دون كفر ، أو كفر لاينقل عن الملة ، أو أنه ليس كمن كفر بـا لله وملائكته وكتبه ورسله، فهذه تحتاج إلى دقة فى الفهم، وتصحيح للمفهوم .

إذ أن هذا القول من ابن عباس "كفر دون كفر" يتنزل على ما كان معروفاً أو سائراً فى حينه عند الصحابة رضى الله عنهم من أن مخالفة الشرع، فيما لو حدثت تكون فى واقعة أو مسألة واحدة أو عدة مسائل ويفعل ذلك وهو معتقد أنه فعل معصية -كترك واجب أو فعل محرم- ولا تتجاوز هذا الحد.

وما كان يدور بخلد صحابى أن حاكماً يمكن أن يخالف الشرع جملة وتفصيلاً، وأن يضع منهاجاً متكاملاً حسب هواه يخالف كله شريعة الله.

ولو تصور ابن عباس -رضى الله عنهما- وقوع مثل هذا الأمر بمخالفة الشريعة كلها، واستبدالهم بشريعة الله قوانين من عند البشر لحكم عليه بالكفر البواح المخرج عن الملة، فليس هناك كفر أكبر من ذلك ...

فكلام السلف هنا إذا حكم برشوة، أو لقرابة أو شفاعة، أو ما أشبه ذلك، فلا شك أن ذلك كفر دون كفر.

وأما ما وجد فى حياة المسلمين -ولأول مرة فى تاريخهم منذ سقطت الخلافة فى هذا العصر- وهو تنحية شريعة الله عن الحكم ورميها بالرجعية والتخلف، وأنها لم تعد تواكب التقدم الحضارى والعصر المتطور، فهذه ردة جديدة فى حياة المسلمين، إذ الأمر لم يقتصر على تلك الدعاوى التافهة، بل تعداه إلى إقصائها فعلاً عن واقع الحياة، واستبدال الذى هو أدنى بها، فحل محلها القانون الوضعى، والنظم الجاهلية الكافرة

" مــن نــوالــى؟ "

(٤) قوله تعالى: **﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾** (١)

زعم قوم أنها نزلت فى "على بن أبى طالب" - رضى الله عنه -، وقد تصدق بخاتمه وهو راكع!!

وأوردوا فى ذلك مجموعة من الآثار - ذكرها المفسرون عند الآية، كما ذكرها ابن كثير، ثم علق عليها بقوله: ليس يصح شىء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها .

أغلب الظن أنها من موضوعات الشيعة فى سيدنا على بن أبى طالب.

فلماذا تفسير **"والذين آمنوا"** بعلى بن أبى طالب، وتنحصر فيه، وتقتصر عليه؟ ولماذا يتصدق "على" وهو راكع، فما الذى يمنعه من الانتظار حتى يفرغ من صلاته؟

ومن الذى جوزَّ للسائل أن يدخل المسجد يسأل الناس وهم ما بين راكع وساجد؟ وهل أمرنا الله تعالى بأن نودى زكاتنا ونحن على هيئة الركوع؟

أم هو الخضوع والامتثال والانقياد لله عز وجل؟ فهذا هو الذى نفهمه من معنى الركوع. والآية تتحدث عن الولاء. الذى جعلته لله عز وجل، ولرسوله ﷺ وللذين آمنوا الذين من أخص صفاتهم "إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخشوع والخضوع والامتثال والانقياد لله رب العالمين!!.

١-سورة المائده :٥٥.

" مـن نعـادى؟ "

(٥) قال تعالى: ﴿**لتجدن أشد الناس عداوة للذيـن آمنـوا اليهـود والذيـن أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذى قالوا إنا نصارى...**﴾ الآيات (١)

والفهـم الخـاطىء فـى الآيـات يتمثـل - عمليـاً- فـى موالاتنـا لليهـود، وصداقتنا لهم ومسالمتنا لهم، مع أن الله عز وجل بين أنهم أشد الناس عـداوة للذين آمنوا، وأن عداوتهم أشد من عداوة المشركين ويتمثل-نظرياً وعملياً- فى موالاة النصارى، بزعم أنهم يودوننا ويحبوننا، وقريبون لنا.

بدليل الآية﴿**ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى..**﴾

فهم أبناء عمومتنا، وهم يحبوننا، فيجب أن نبـادلهم حبا بحب، ومـودة بمودة، وقرباً بقرب !!

هذا وكم تستغل هذه الآية الكريمة، عند الحديث عن الوحـدة الوطنيـة، والبعد عن الفتنة الطائفية، ولذلـك تجـد مـن المسـلمين مـن يحـب النصـارى، عملا بهذه الآية، وقد نسى مبدأ البراء بين المسلمين والكفار !!

والحق يقال: إن الآية الكريمة لا تعنىمـا ذهبـوا إليـه علـى الاطـلاق، لأن محبة الكافرين كفر، ولأن الركون إليهم، وائتمـانهم ومداهنتهـم ونحـو ذلـك من الموالاة التى حرمها الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿**يا أيها الذيـن آمنـوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعـض ومـن يتولهـم منكـم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين**﴾(٢)

١-سورة المائدة :٨٢-٨٥.

٢-سورة المائدة :٥١.

وقال تعالى: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملّتهم قل إن هدى الله هو الهدى﴾(١).

وقال أيضا: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ..﴾(٢).

وقال كذلك: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذا لقوكم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور . إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط﴾(٣).

وكذا قال ربنا: "أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا ءآمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ..."(٤).

١- سورة البقرة : ١٢٠ .
٢- سورة آل عمران : ١٠٠ .
٣- سورة آل عمران : ١١٨ – ١٢٠ .
٤- سورة البقرة : ٧٥ ، ٧٦ .

وقال الله تعالى: ﴿الذين ءآتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين﴾(٢).

كما قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فاولئك هم الظالمون﴾(٣) وكذلك قال: ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ويحذركم الله نفسه والى الله المصير﴾(٤).وكما قال: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين﴾(٥).

وكذا قال :﴿لاتجد قوماً يؤمنون با لله واليوم الآخر يوادون من حاد الله و رسوله ولو كانوا آباءهم أوأبنائهم أوإخوانهم أوعشيرتهم أولئك كتب فى قلوبهم الايمان و أيدهم بروح منه... ﴾(٦)

١- سورة البقرة : ١٤٦ .
٢- سورة المائدة : ٥٧ .
٣- سورة التوبة : ٢٣ .
٤- سورة آل عمران : ٢٨ .
٥- سورة آل عمران : ١٤٩ .
٦- سورة المجادلة : ٢٢ .

وبناء على هـذه الآيـات ونحوها - التى جـاءت فـى قضيـة الـولاء والبراء - يتبين لنا أن اتخاذ أعداء الله أولياء - الـذى يعنى اتخـاذهم أنصـاراً ومؤيدين مع التقرب إليهم وإظهار الـود لهـم، واتبـاع أهوائهـم، وطـاعتهم فيما يأمرون ويشيرون به والركون إليهم ومداهنتهم ومجاملتهم على حسـاب الدين، واتخاذهم بطانة من دون المؤمنين، ومعاونتهم على ظلمهم ونصرتهـم، والتشبه بهم فى العقائد والعادات، والأخذ بقوانينهم ومنـاهجهم فـى حكـم الأمة وتربية أبنائها، واتخاذهم بطانة وحاشية، أو حبهم والتودد إليهم - كـل ذلك، يكون كفراً وردة عن الدين، بصريـح القـرآن: ﴿**ومـن يتولهـم منكـم فإنه منهـم إن الله لا يهـدى القـوم الظـالمين**﴾ فكيـف يتفـق مـع كـل هـذه الآيات الكريمة - السابقة - أن يقـال: إن قولـه تعـالى: ﴿**ولتجـدن أقربهـم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ..**﴾ بأنها تأمر بأخوتهم ومحبتهـم والتقرب منهم؟!!

إن المسلم لابد أن يحدد موقفه من أعداء الله، وأعداء دينـه، مـن الكفـار والمشركين والمرتدين، وكما عليه أن يعلن عن الالتزام بالإسلام كله،فعليه أن يعلن عن البراءة من الكافرين، التى هى ركن ركـين مـن الديـن، وجـزء مـن عقيدة الإسلام لا يقبل الظنون، فهـى لا تحتمـل الخـلاف حولهـا أو المفاصلـة فيها "**فماذا بعد الحق إلا الضلال**" فكيف بمحبة الكافرين ومودتهـم؟ وهـل الدين إلا الحب والبغض؟

إن المسلم يجب أن يتـبرأ مـن الكـافرين، ولكـن - للعلـم - يسـتثنى مـن البراءة هذه، ولا ينقضهـا أمـور، منهـا: اللـين عنـد عـرض الدعـوة، أو حـل

الزواج بالكتابية، وأكل ذبيحة الكتابي أو المجاملة والإحسان والدعاء لهم بالهداية، أو الإهداء لهم، وقبول هداياهم، أو عيادة مرضاهم، أو التصدق عليهم والإحسان لهم، ويمكن إجمال هذه المعاني في قوله تعالى: **﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين. إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون﴾**(١)

هذا ... والكلام عن مفهوم الولاء والبراء . شرحه يطول،

فأعود للآية، بعد الوقفة الأولى حول معناها الإجمالي بين الآيات التي ذكرناها - لننظر إليها على حدة فنجد أن الآية الكريمة - والآيات التي تليها - تحدثنا عن قوم أسلموا من النصارى .

ذُكر أنها نزلت في "النجاشي" ومن أسلم معه من الأحبار والرهبان، وسياق الآيات يدل على ذلك، لما بينها وبين موقف "جعفر بن أبي طالب" وأصحابه، مع النجاشي وبطانته، في ذهاب "عمرو بن العاص" إليه، لإحضار المسلمين من الحبشة، كما حكته كتب السيرة، من توافق كبير جداً، وكدت أجزم بذلك، لو ما شبهة واحدة، وهي أن الآيات مدنية، كما أن سورة المائدة كلها مدنية، وإسلام النجاشي، وموقف جعفر كان قبل

١- سورة الممتحنة : ٨، ٩.

الهجرة .. وإن كان لا يمنع نزول ذكر الحديث متأخراً، كما في آيات الهجرة التي نزلت بعد غزوة تبوك ﴿**إلا تنصروه فقد نصره الله ..**﴾

وأياً ما كان الأمر: نزلت في النجاشي أو غيره، فالشاهد أنها نزلت في قوم من النصارى عرفوا الحق، ولم يستكبروا على اتباعه، ولم يأنفوا على الدخول فيه، بل انقادوا للحق - وهم أهل علم وعبادة - فآمنوا - يعني لم يبقوا على نصرانيتهم - ودعوا الله أن يدخلهم مع القوم الصالحين، فترتب على ذلك دخولهم الجنات التي حرَّمها الله على الكافرين، كما قال: ﴿**وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين. بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾(١) فالجنة حرام إلا على أهل الإسلام، وهؤلاء من أهلها فكيف هم إذن؟ نصارى يجب أن نحبهم لأنهم يحبوننا - كما زعموا؟ !! كلا بل هم الذين قال الله عنهم: ﴿**وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله ... الآية**﴾(٢).

١- سورة البقرة : ١١١، ١١٢.
٢- سورة آل عمران : ١٩٩.

وهذا الصنف هم الذين قال فيهم: ﴿الذين ءآتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون. وإذا يتلى عليهم قالوا ءآمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين. إلى قوله "لا نبتغى الجاهلين﴾(١)

وهنا قال: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا ءآمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن با لله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين. فأثابهم ا لله بما قالوا جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين﴾(٢).

١- سورة القصص : ٥٢ - ٥٥.
٢- سورة المائدة : ٨٢ - ٨٥.

" ما حكم الدعوة إلى الله تعالى "

(٦) قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين ءآمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾(١)

فهذه آية من بين الآيات التى فهمت فهما خاطئا، على غير وجهها، ووضعت فى غير موضعها، وكانت بوادر هذا الفهم الخاطئ مبكرة من العصر الأول، لكن كثر ذكر الناس للآية - خاصة فى زماننا هذا - على النحو الخاطئ الذى نشير إليه وننبه عليه، فالذى خبر الناس واحتك بهم عن طريق الدعوة يسمع هذه الآية كثيرا تقال له إذا قام يدعو إلى الله تعالى، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، أو يصلح بين متخاصمين، فيقال له، "**عليكم أنفسكم**"، انصح نفسك !

ويقال له: دع الملك للمالك، أقام العباد فيما أراد "لا يضركم من ضل إذا اهتديتم". ونحو هذا .

وهكذا نرى الآية الكريمة وضعت فى غير موضعها، لدرجة أنها - بناء على هذا الفهم الخاطئ - تهدم قاعدة أساسية من قواعد الإسلام، التى فضل الله بها هذه الأمة، وجعلها خير أمة أخرجت للناس ،ألا وهى قاعدة "**الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر**" أو الدعوة إلى الله تعالى، عموماً.

١- سورة المائدة : ١٠٥.

فكيف يصح هذا؟ وكيف يجوز أخذ آية واحدة، وترك ما سواها، مما هو في نفس الباب .

إن قوله تعالى ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ..**﴾

يجب أن يفهم في ظلال قوله تعالى: ﴿**ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون**﴾(١) ومع قوله تعالى: ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون با لله ...**﴾(٢)

وفي ظل قوله سبحانه ﴿**قل هذه سبيلي أدعو إلى ا لله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان ا لله وما أنا من المشركين**﴾(٣)

ومع قوله تعالى: ﴿**لأنذركم به ومن بلغ**﴾(٤) وقوله سبحانه ﴿**وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**﴾(٥) ونحو ذلك من الآيات.

وفي ظلال السنة، إذ يقول النبي ﷺ: "**ليبلغ الشاهد منكم الغائب**"(٦) وقوله ﷺ "**بلغوا عني ولو آية**"(٧) وقوله ﷺ "**نضَّر ا لله امرءا سمع مقالتي**

١- سورة آل عمران : ١٠٤.
٢- سورة آل عمران : ١١٠.
٣- سورة يوسف : ١٠٨.
٤- سورة الأنعام : ١٩.
٥- سورة التوبة : ١٢٢.
٦-أخرجه البخاري في العلم (١٠٤)،ومسلم في الحج (٤٤٦).
٧-أخرجه البخاري في الأنبياء(٣٤٦١)،والبغوي في شرح السنة(١١٣).

فوعاها فبلغها كما سمعها، فرب مبلغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه"(١) ونحو ذلك،

فهذه الآيات والأحاديث فى أمر الدعوة إلى الله، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جداً، فهل يترك هذا كله، وتقتطع هذه الآية وحدها ليستخرج منها حكم يدعو إلى الأثرة والأنانية، وترك الدعوة إلى الله، وهجران الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، دون ما نظر إلى بقية الآيات والأحاديث التى جاءت فى هذه القضية. فهذا ما لا يجوز أبدا. ولم يقل به أحد من أهل العلم.

ولذلك فالمجتهد إذا أراد استخراج حكم فى مسألة، جمع كل الآيات والأحاديث التى تدور فى فلك هذا الحكم، والتى تتناول هذه القضية، ليستخرج بعد ذلك حكماً صحيحاً.

وبناء الأحكام على آية واحدة دون بقية الآيات - مع ضيق الأفق، وسطحية النظر - يوصل إلى أحكام خاطئة، ويورث تعارضاً فى دين الله، وتناقضاً فى كتاب الله. !!

١-أخرجه البخارى فى الأنبياء (٣٤٦١)، والبغوى فى شرح السنة (١١٣).
٢- أخرجه الترمذى فى العلم (٢٦٥٨)، وابن ماجة فى المقدمة (٢٣٠)، وأحمد (٤/٨٠)، والخطيب فى التاريخ (٣/١٩٢)، وصححه الشيخ الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٤٠٣).

وإلا فعندما ننظر إلى هذه الآية الكريمة التى نحن بصددها نجد أنها تحمل فى معناها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وليست - كما زعم كثير من الناس -دعوة إلى الانعزالية والأنانية. !!

ويتضح ذلك فيما يلى:-

قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ هذا النداء بصفة الإيمان، يحمل فى طياته شعب الإيمان، التى هى بضع وسبعون شعبة، ولا شك أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من هذه الشعب .

وقوله تعالى: **﴿عليكم أنفسكم﴾** معناه: عليكم بصلاح أنفسكم، وصلاح النفوس بمنهج القرآن والسنة، وقد اشتملا على عشرات الآيات والأحاديث التى تحض على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ثم إن قوله تعالى: ﴿عليكمْ أنفسكم﴾ كما تطلق على الشخص ذاته، تطلق على غيره أيضا .

كالزوجة، والولد، والمجتمع المؤمن كله كنفس واحدة، كما قال تعالى: **﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها ..﴾**(١) وقوله تعالى: **﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾**(٢) تطلق على الشخص وعلى أخيه فى الإسلام.

وكذا قوله تعالى: **﴿ولا تلمزوا أنفسكم﴾**(٣)ولا يلمز الإنسان شخصه، فلم يبق إلا لمز أخيه المسلم.

١- سورة الروم : ٢١. ٢- سورة النساء : ٢٩.
٣-سورة الحجرات :١١

فهنا نجد أن كلمة النفس تخص وتعم.

وكذلك قوله تعالى ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ إذا جاء هنا مجملاً، فقد جاء مفصلاً في قوله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة..**﴾(١)

فأنت مسئول عن نفسك وأهلك، وعمن تعول، وتتسع دائرة المسئولية حتى تشمل العالم كله - أحيانا - حسب حال الإنسان من الدعوة، وهو بين فرض العين، أو فرض الكفاية.

ولكن دعوة الأسرة، واصلاحهم، من قبيل فرض العين(٢)

وقوله تعالى: ﴿**لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ ليست من البداية، بدون أمر بمعروف أو نهى عن منكر، بل إذا دعوتم إلى الله، وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، ونصحتم لله ولرسوله ولكتابه وللمؤمنين .

وأديتم ما عليكم، ثم بعد ذلك لم يستجب لكم، فما عليكم إلا البلاغ، ولا يضركم - بعد - من ضل إذا اهتديتم وأديتم وأحسنتم. فهى بعد القيام بالدعوة على أكمل وجه والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما أراد الله تعالى، وبيّن ذلك.

ثم تعالوا ننظر كيف فسرها النبى ﷺ، وصحابته الكرام حتى لا يكون ذلك بالهوى، أو كما فسرها العوام .

١- سورة التحريم : ٦.

٢- انظر تفصيل حكم الدعوة إلى الله، فى كتابنا: الصحوة الاسلامية ما لها وما عليها.

روى الترمذى عن أبى أمية الشيعانى، قال: أتيت أبا ثعلبة الخشنى، فقلت له: كيف تصنع فى هذه الآية؟ قال: أية آية؟ قلت: قوله الله تعالى: **﴿ياأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم..﴾** قال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ﷺ فقال: **" بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذى رأى برأية، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياما الصابر فيهن مثل القابض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم"** قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: " قيل يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: بل أجر خمسين منكم"(١)

وروى الامام أحمد عن قيس، قال: قام أبو بكر الصديق -رضي الله عنه- فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية **﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾** وإنكم تضعونها فى غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن الناس إذا رأو المنكر لا يغيرونه يوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه** قال: وسمعت أبا بكر يقول: **يا أيها الناس: إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان** "(٢)

١- أخرجه أبو داود فى الملاحم (٤٣٤١)، والترمذى فى التفسير (٣٠٥٨) وقال: حسن غريب، وابن ماجة فى الفتن (٤٠١٤)، والبهيقى (٩٢/١٠) وضعفه الشيخ الألبانى فى ضعيف الجامع (٢٣٤٤)..

١- أخرجه أحمد (٥/١) وقال الشيخ شاكر فى تحقيق المسند تحت رقم (١٦): إسناده صحيح.، وابن ماجة (٤٠٠٥).

وروى عبد الرزاق عن معمر عن الحسن أن ابن مسعود-ﷺ - سأله رجل عن قول الله ﴿**عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ فقال إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبوله، ولكنه قد يوشك أن يأتى زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا، وقال فلا يقبل منكم، فحينئذ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل .

ورواه أبو جعفر الرازى عن الربيع عن أبى العاليه عن ابن مسعود فى قوله تعالى: ﴿**يأيها الذين ءآمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل..** ﴾ قال: كانوا عند "عبد الله بن مسعود" جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله، ألا أقوم فأمرهما بالمعروف وأنهاهما عن المنكر، فقال آخر إلى جنبه، عليك نفسك، فإن الله يقول﴿**عليكم أنفسكم ...الآية**﴾، قال فسمعها ابن مسعود، فقال: مه، لم يجئ تأويل هذه بعد، إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه "آى" قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه "آى" قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ. ومنه "آى" قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ بيسير، ومنه "آى" يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه "آى" تأويلهن عند الساعة - ما ذكر من الساعة، ومنه "آى" يقع تأويلهن يوم الحساب - ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة وأهواؤكم واحدة ، لم تلبسوا شيعاً ولم يذق بعضكم بأس بعض فأمروا وانهوا ، وأما إذا اختلفت القلوب والأهواء

و ألبستم شيعاً وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية(١)

وروى ابن جرير عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام فلم تأمر و لم تنه، فإن الله قال: ﴿**عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم**﴾ فقال ابن عمر: إنها ليست لي ولا لأصحابي، لأن رسول الله ﷺ قال: "ألا فليبلغ الشاهد الغائب" فكنا نحن الشهود، وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم.

وروى عن قتادة عن أبي مازن، قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية ﴿**عليكم أنفسكم**﴾ فقال أكثرهم: لم يجئ تأويل هذه الآية اليوم.

وروى عن الحسن عن أبي فضالة عن معاوية بن صالح عن جبير بن نفير، قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغر القوم فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه ﴿**يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ...**﴾؟ فأقبلوا عليَّ بلسان واحد، وقالوا: تنزع آية من القرآن لاتعرفها ولا تدري ما تأويلها، فتمنيت أني لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حديث السن، وإنك نزعت آية ولا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك

١- رواه ابن جرير، وذكره ابن كثير.

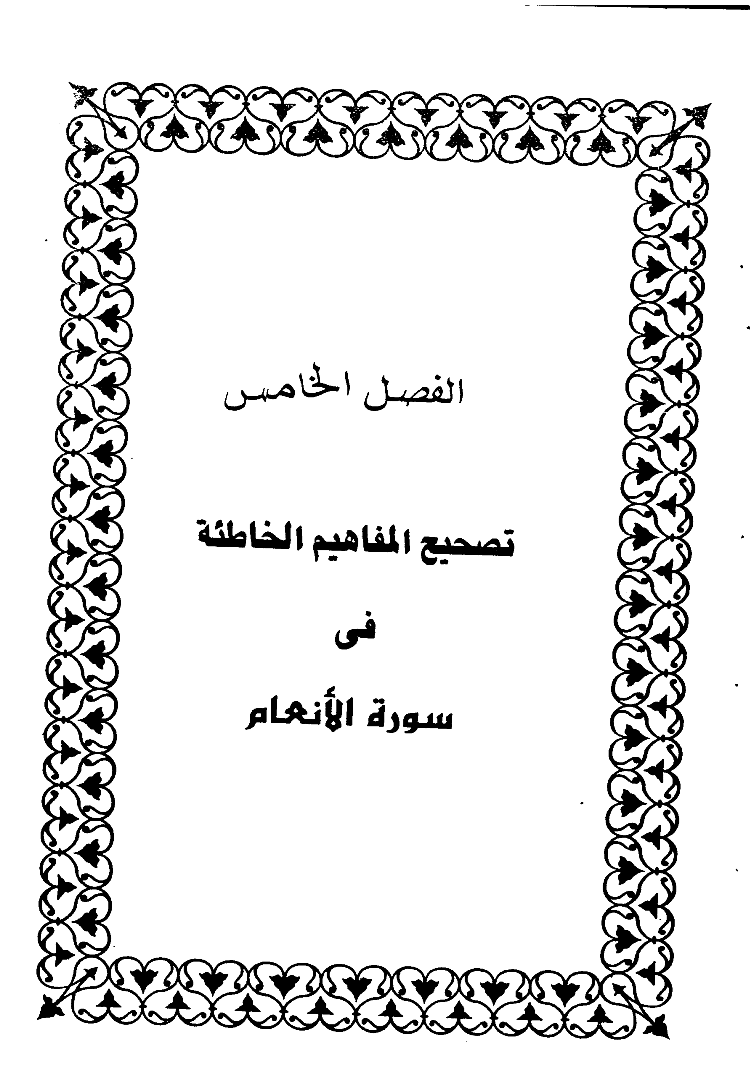
الزمان، إذا رأيت شحاً مطاعاً وهـوى متبعـاً وإعجـاب كـل ذى رأى برأيـه فعليك بنفسك لا يضرك من ضل إذا اهتديت(١).

وإنا نقول: لم يأت زمانها ما دام هناك من يسمع ومن يستجيب.

فتأمل - يا أخى الكريم - كيف فهمت الآية خطأً، وما ترتب على هذا الفهـم الخـاطئ مـن وجـود أنـاس اعـتزلوا الدعـوة إلى الله، وتركـوا الأمـر بالمعروف والنهى عن المنكر، وليس الأمر كذلك، لمـا فـى ذلـك مـن ضـلال الناس وجهلهم وهلاكهم، وبُعد الأمة عن الخيريـة المرتهنـة بـالدعوة إلى الله، كما فى الآية ﴿**كنتم خير أمة أخرجت للناس ..**﴾(٢)

وبالدعوة إلى الله يكتب لنا النجاة إذا حل العذاب بالأمم ﴿**فلمـا نسـوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذيـن ظلمـوا بعـذاب بئيس بما كانوا يفسقون**﴾(٣).

١- أنظر تفسير بن جرير الطبرى.
٢- سورة آل عمران : ١١٠.
٣- سورة الأعراف : ١٦٥.



الفصل الخامس

تصحيح المفاهيم الخاطئة في سورة الأنعام

الفصل الخامس

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى " سورة الأنعام"

" هـل النبى محمد ﷺ يعلم الغيب؟ "

(١) قال تعالى: ﴿**قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون**﴾(١).

ومع أن الآية واضحة وبينة ومحكمة، إلا أنه حاول البعض أن يستدل بالآية استدلالاً غريباً وعجيباً، -من بعض أدعياء العلم والمنتسبين للتصوف- يزعمون أن النبى ﷺ أوتى خزائن الله، وعلم الغيب كله، فهو ﷺ يعلم الغيب فى الدنيا والآخرة، بل يعلم متى الساعة زماناً ومكاناً، ويعلم من هم أهل الجنة ومن هم أهل النار بالتفصيل والإجمال!!

ووجه ذلك فى الآية، أنها ليست على ظاهرها، بل يجب فهم فحواها، لأن النبىﷺ لا يقول لنا ﴿**قل لا أقول لكم**﴾ ولكن عليكم أن تفهموا ذلك دون قول منى، لأنه إن لم تكن خزائن الله عندى، فعند من؟

وإذا لم أكن أعلم الغيب، فمن يعلمه؟ ألا ترون أنى علمتكم الغيب كله، فيما سبق، وما هو آت؟

فهل بعد هذا كله، لابد أن أقول لكم إنى أعلم الغيب؟ لا، ليس شرطاً.

١- سورة الأنعام: ٥٠.

ثم يردف قائلاً: والذى يتساءل: هل النبى ﷺ يعلم الغيب؟ دل هذا التساؤل على منتهى جهله بالدين، بعد وضوح قضايا الغيب على لسان رسول الله ﷺ **"فى الماضى والحاضر والمستقبل"**.

وكيف لا يعلم الغيب وقد أخبر عن أمور غيبية كثيرة، كلها -أو جلها حتى الآن- وقعت كما أخبر. وكيف لا ، وبعض الأنبياء يعلمون الغيب، والجن تعلم الغيب، والملائكة تعلم الغيب، أفلا يعلم الرسول ﷺ الغيب؟!

ولأنه لو لم يكن النبى يعلم الغيب لكان جاهلاً! وتباً لقوم وصفوا نبيهم بالجهل.

وقد قال الله له ﴿**وعلمك ما لم تكن تعلم**﴾(١)، وقال: ﴿**ولسوف يعطيك ربك فترضى**﴾(٢). ثم قال: وأسلوب الآية معجز فى أسلوبه وفى ترتيبه ولا يحيط بذلك إلا من فتق الله بصيرته، فصار يرى بنور الله، فهى أسرار لا يعرفها إلا الخاصة ولا يعرفها العامة، أو يعرفها أهل المحبة ولا يعرفها الأعداء.

وهناك سر السر الذى لا يطلع عليه إلا الصفوة العالية من الأحباب..!!(٣).

والحق يقال: أن هذا خلط وهراء، وقلب للحقائق، واستدلال غير صحيح، وفهم لكتاب الله على نحو مقلوب، ووضع للآية فى غير موضعها،

---

١ - سورة النساء: من آية (١١٣).
٢ - سورة الضحى: ٥
٣ - أنظر: هذا هو الحق المكتوم، لأحد المتصوفة يدعى "حسن شحاته".

ولو استدل بآية أخرى فى أن النبى ﷺ يعلم الغيب، ربما كـان لـه وجـه مـن الوجوه، ولكن الآية -كما تراها- فى غاية الوضوح.

وزعم بأن الآية فيها سر لا يعرفه إلا الخاصـة، وسـر السـر لا يعرفه إلا خاصة الخاصة!! وأنها لها باطن يختلف عن الظاهر، فهذا الزعم لم يعـرف إلا عند الصوفية والباطنية. وقد قال بـه "ابـن عربـى" وأمثالـه ممـن يؤمنـون بـأن القرآن له ظاهر وباطن،!! أو هؤلاء المتصوفـة الذيـن يؤمنـون بحقيقـة تخـالف الشريعة،! وهذا على قدر ما هـو منكـور فـى ديـن الله، علـى قـدر مـا هـو معروف عند المتصوفة، يرددونه بـلا نكـران، مـع أن ملتـه الكفـران. والـذى نعتقده وندين لله عز وجل به فى هذه القضية "قضية علم الغيب".

أن عالم الغيب والشهادة هو الله تعالى ﴿**هـو الله الـذى لا إلـه إلا هـو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم**﴾(١).

إن صاحب علم الغيب وحده هو الله عز وجل، ﴿**قل لا يعلم مـن فـى السـموات والأرض الغيـب إلا الله ومـا يشـعرون أيـان يبعثـون**﴾(٢)، ﴿**وعنـده مفـاتح الغيـب لا يعلمهـا إلا هـو**﴾(٣)، ﴿**فقـل إنمـا الغيـب لله**﴾(٤)، ولكن الله عز وجل قد يمن على بعض عبـاده مـن أنبيائـه ورسـله ببعض الغيب ليكون تأييداً له فى دعواه، وتثبيتاً له فى رسالته، فيوحى إليهـم

---

١ - سورة الحشر: ٢٢.
٢ - سورة النمل: ٦٥.
٢ - سورة الأنعام: ٥٩.
س ٤ - سورة يونس: ٢٠.

بذلك ، وهذا ليس معناه أنهم علموا الغيب وإنما ظهروا عليها ، قال تعالى:

﴿ **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيئ عددا** ﴾[١] ، وقال - جل وعلا - مخاطبا رسوله ﷺ ﴿ **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين** ﴾ [٢] ، وكذلك ﴿ **ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك** ﴾[٣]

وكيف يزعم أصحاب هذا الفهم الخاص من أدعياء العلم ، أن الرسول ﷺ عنده علم الساعة ؟ مع أن الله تعالى يقول : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾ [٤]

ويقول تعالى : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت فى السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون** ﴾ [٥] وقوله تعالى ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها * فيم أنت من ذكراها إلى ربك منتهاها** ﴾ [٦]

وقوله ﷺ لجبريل لما سأله :

١- سورة الجن : ٢٦ : ٢٨ . ٢- سورة هود : ٤٩ .

٣- سورة يوسف : ١٠٢ ،وسورة آل عمران : ٤٤ .

٤- سورة لقمان : ٣٤ . ٥- سورة الأعراف : ١٨٧ .

٦- سورة النازعات : ٢٤ - ٤٤ .

"متى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل"(١).

فهل نترك كلام الله تعالى، وكلام رسوله ﷺ لنأخذ بكلام بعض الأدعياء على العلم؟!!

وليته كان كلاماً صحيحاً أو فهماً مستقيماً، ولكنه فى غاية السفاهة والبعد عن النصوص المحكمة وروح الإسلام.

وزعم أن الملائكة تعلم الغيب مردود بقوله الله تعالى: ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين. قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم**﴾(٢). فالملائكة لا تعلم إلا ما علمها الله تعالى.

وزعم أن الجن يعلم الغيب مردود بقوله الله تعالى: ﴿**فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دآبة الأرض تأكل منسأته. فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين**﴾(٣).

وزعم أن عدم معرفة النبى ﷺ للغيب، إتهام له بالجهل فى غير محله، لأن علم الغيب لله وحده، وليس لأحد من عباده إلا القدر الذى أظهر عليه أنبياءه ورسله تأييداً لهم فى رسالتهم وتصديقاً لأمر نبوتهم.

والنبى ﷺ لو كان يعلم الغيب ما تعرض لمواقف محرجة كثيرة، منها - على الأقل- حديث الإفك الذى اتهم به فى عرضه ﷺ، وكذا عدم مقدرته

---

١ - أخرجه مسلم فى الإيمان (٨)، وأبو داود (٤٦٩٥)، وأحمد (١/٥١).
٢ - سورة البقرة: ٣٢.
٣ - سورة سبأ: ١٤.

على أسئلة المشركين، وقد قال لهم: غداً أجيبكم، ونسى ﷺ أن يقول "إن شاء الله" فانقطع الوحى خمسة عشر يوماً، حتى راح المشركون كل مذهب، وزعموا كل زعم، فلو كان يعلم الغيب لكان أولى به أن ينقذ نفسه ودعوته.

وزعم فى الآية: أن النبى ﷺ لا يقول لنا : أنا عندى خزائن الله، أو أعلم الغيب، وإنما علينا أن نفهم ذلك دون قول منه!!، فلئن سلمنا له بذلك جدلاً- فهل معنى ذلك أنه يجب علينا أن نفهم أنه ملك، لقوله تعالى: ﴿**ولا أقول لكم إنى ملك**﴾؟ لأنها لا تختلف فى الأسلوب عن سابقتيها أم سيزعم أن هذه تختلف عن غيرها؟!!.

ورحم الله ابن كثير قال فى تفسير الآية: يقول الله تعالى لرسوله ﷺ ﴿**قل لا أقول لكم عندى خزائن الله** ﴾ أى لست أملكها ولا أتصرف فيها، ﴿**ولا أعلم الغيب**﴾ أى ولا أقول لكم إنى أعلم الغيب إنما ذاك من علم الله عز وجل، ولا أطلع منه إلا على ما أطلعنى عليه، ﴿**ولا أقول لكم إنى ملك**﴾ أى ولا أدعى أنى ملك إنما أنا بشر من البشر يوحى إلىَّ من الله عز وجل شرفنى بذلك وأنعم علىَّ به، ولهذا قال: ﴿**إن أتبع إلا ما يوحى إلىَّ**﴾ أى لست أخرج عنه قيد شبر ولا أدنى منه ﴿**قل هل يستوى الأعمى والبصير**﴾ أى هل يستوى من اتبع الحق وهدى إليه ومن ضل عنه، فلم ينقده ﴿**أفلا تتفكرون**﴾(١). فالله أكبر، هذا هو الحق الذى ندين لله تعالى به، وهو مذهب أهل السنة والجماعة.

١-تفسير ابن كثير ج٢ ص١٣٤.

" ما معنى الظلم "

(٢) قوله تعالى: ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون**﴾(١).

وهى من الآيات التى تأولها الصحابة -ﷺ- على غير وجهها، يتمثل ذلك فى فهمهم لمعنى الظلم فى الآية، بأنه ظلم النفس، الذى لا يكاد ينجو منه إنسان، فشق ذلك عليهم، وليس الأمر كذلك. روى البخارى عن عبد الله، قال: لما نزلت "و لم يلبسوا إيمانهم بظلم" قال أصحاب النبى ﷺ: وأينا لم يظلم نفسه؟ فنزلت ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾.

وقال الإمام أحمد عن عبد الله، قال: لما نزلت هذه الآية ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾، شق ذلك على الناس، فقالوا: يارسول الله أينا لم يظلم نفسه؟ فقال: إنه ليس الذى تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح " **يا بنى لا تشرك با لله إن الشرك لظلم عظيم**" إنما هو الشرك، وبهذا المعنى الصحيح يتبين أن الظلم ظلمان، ظلم أكبر ، وظلم أصغر، كالذى حكاه السلف الصالح، وقال به أهل السنة والجماعة.

فا لله سبحانه وتعالى سمى الكافر ظالمًا، كما فى قوله تعالى: ﴿**والكافرون هم الظالمون**﴾(٢). وسمى الشرك ظلماً، كما هو فى هذه الآية التى نحن بصددها، وكلاهما مثال للظلم الأكبر.

وقال تعالى: ﴿**ومن يتعد حدود ا لله فقد ظلم نفسه**﴾(٣). وقال نبيه

١- سورة الأنعام: ٨٢. ٢ - سورة البقرة: ٢٥٤.
٣-سورة الطلاق: ١.

يونس: ﴿**لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين**﴾(١)، وقال صفيه آدم: ﴿**ربنا ظلمنا أنفسنا**﴾: وقال كليمه موسى: ﴿**رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي**﴾، وليس هذا الظلم مثل ذلك الظلم.

هذا. وقد وردت هذه الآية الكريمة فى قصة سيدنا إبراهيم ومحاورته لعبدة الكواكب، وهذا السياق ذاته من بين الآيات التى فهمت خطأً، لما زعم بعض المستشرقين أن "إبراهيم عليه السلام" عَبَد الكواكب، أو على الأقل تظاهر بذلك وهادن عبدة الكواكب، وهو يقول عنها "هذا ربى"!!

وهذا من الكذب على الله وعلى أنبيائه، "فإبراهيم عليه السلام" الذى قال الله تعالى عنه: ﴿**ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين**﴾(٢)،

وقال: ﴿**إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم، وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين. ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين**﴾(٣)، وغير ذلك، ما كان له أن يشرك، وحاشاه، بل كان يدعو إلى الله تعالى بلون من ألوان الدعوة، وبأسلوب من بين أساليبها وهو أسلوب المحاورة مع المداراة والمجاراة حتى يصل بالمدعوين إلى الحق والحقيقة، وتلك حجة منحها الله تعالى لنبيه إبراهيم عليه السلام ﴿**وتلك حجتنا ءآتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم**﴾(٤).

١-سورة الأنبياء:٨٧.
٢-سورة آل عمران:٦٧.
٣-سورة النحل:١٢٠-١٢٣.
٤-سورة الأنعام:٨٣.

" ما سبب هلاك القرى؟ "

(٣) قال تعالى: ﴿**ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون**﴾(١)، فكيف ذلك؟ وقد قال تعالى أيضاً: ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾(٢).

فوصف الأهل في الآية الأولى بالغفلة، وفي الآية الثانية بالإصلاح!! فكيف ذلك؟

نقول: ففي الآية الأولى أنها بينت أنه بلغ من حكمة الله جل وعلا وعدله ونفى الظلم عن نفسه أنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه على أتم وجه، فأول الواجبات وأعظمها وهو توحيد الله تعالى، لا يحاسب الله عليه العباد إلا بعد أن يبلغهم هذا على أتم وجه وأكمله ، فإذا كان الإنسان بالغا عاقلاً، سلمت فيه إحدى حاستي السمع أوالبصر ليدرك التكليف، فالتكليف في هذه الحالة منتفٍ عنه حتى تبلغه دعوة الرسول ﷺ ويعرف توحيد الله تعالى عن طريق الرسول ﷺ، كما يريد الله جل وعلا، وإذا لم تبلغه الدعوة عن طريق الرسول فالتكليف منتفٍ عنه، مع أن العقل والفطرة يدلان على وجود الله تعالى ووجوب تعظيمه، وإذا لم يدلا على ذلك فلن يدلا على شيء آخر، فالتكليف منتفٍ حتى يأتي رسول، والعباد في تلك الحالة يوصفون بظلم إذا لم يعبدوا الله قبل مجيء الرسل ولكن الله عز وجل

١ - سورة الأنعام: ١٣١.

٢ - سورة هود:١١٧.

لا يعذبهم لأنه ما أقام الحجة عليهم على أتم وجه وأكمله، فهم بذلك غافلون، فسبحان الحكم العدل، الذى لا يهلك القرى مع أن وصف الظلم ثابت لهم، ولكن رحمة الله جل وعلا، أنه لا يعذبهم وأهلها غافلون عن مجيء الرسول وبلوغ الدعوة لهم، وإتيان النذير، ولذلك انقطعت حجة الكافرين فى النار بهذا القرار ﴿**كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير قالوا بلى ... الآية**﴾ (١). ﴿**وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا ...**﴾ (٢).

فقبل مجيء الرسول فالتكليف منتفٍ عن العباد، والله لا يعذب الناس إلا بعد مجيء الرسول ﷺ.

ولأن العقل وإن دل على وجود الله تعالى ووجوب تعظيمه، فدلالته مجمله، فلا بد من مجيء الرسول ليبين للناس الكيفية التى ينبغى أن يتعبدوا لله بها، لئلا يعبد كل واحد منهم ربه على رأيه وهواه، ولذلك كان الرسول بالنسبة للعقل البشرى كالشمس بالنسبة للعين، فكما أن العين لا تدرك بدون نور، فهذا العقل لا يهتدى بدون رسول.

﴿**لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين**﴾ (٣).

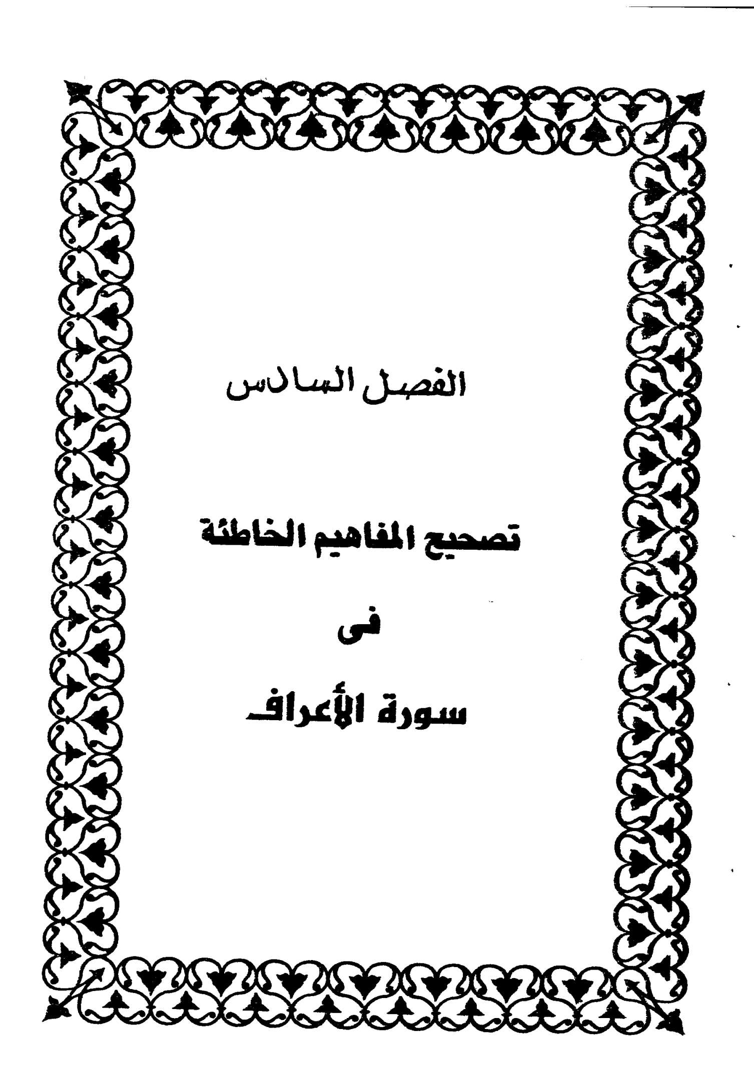
---

١ - سورة الملك: ٨-١٠.
٢ - سورة الزمر: ٧١، ٧٢.
٣ - سورة آل عمران: ١٦٤.

وأما الآية الثانية ﴿**وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون**﴾ التي نفت الهلاك للقرى بظلم منه سبحانه، فهو لايظلم الناس شيئا، ﴿**وما ربك بظلام للعبيد**﴾ وقوله: ﴿**وأهلها مصلحون**﴾ فذلك بمثابة المسوغ لعدم الهلاك، وإذا كان لا يعذب العباد مع غفلتهم عن دعوات الرسل فمن باب أولى لا يعذبهم مع صلاحهم وينجيهم بأمرهم بالمعروف ونهيهم عن السوء والمنكر.

وبذلك وضح المعنى للآية الأولى، واتضح أنه لا تناقض بينها وبين الآية الثانية، بحمد الله تعالى.





الفصل السادس

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة الأعراف



الفصل السادس

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى" سورة الأعراف "

" ما هو الميثاق ؟ "

(١) قال تعالى: ﴿**وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون**﴾ (١)

لقد زعم أناس – فى القديم والحديث- أن آية الميثاق هذه كافية فى إقامة الحجة على العباد، لأنهم فطروا على التوحيد، وقد أقروا به فى هذا الإشهاد، فلا وجه لأن يعذر الناس فى أموره ومسائله، وكونهم ينسون هذا بعد ذلك أو يغفلون عنه فلا عذر لهم فى ذلك أيضاً.

فحجة الله على العباد قائمة بذلك الإشهاد، وليس بإرسال الرسل، ومن ثم لا يوجد شىء يسمى "بأهل الفترة" وأن الناس إذا قصروا وفرطوا فى تعلم أمور الدين مع إمكانية ذلك. فإن جهلوا ووقعوا فى أمور الشرك بعد ذلك فلا عذر لهم بالجهل. فبإمكانية العلم قامت عليهم الحجة !!

وذكروا فى تفسير الآية حديث النبى ﷺ "**يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة: أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء، أكنت مفتديا به، قال: فيقول: نعم، فيقول: قد أردت منك أهون من ذلك، قد أخذ عليك فى**

١- سورة الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣.

ظهر آدم أن لا تشرك بى شيئا، فأبيت إلا أن تشرك بى"(١).

وقول ابن عباس ﷺ : "**إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا**"(٢).

ومن هنا نشأت قضية - فرضت نفسها على الساحة، تلوكها ألسنة أبناء الصحوة دائماً - هل هناك عذر بالجهل، أم أنه لا عذر بالجهل؟

فالذين لا يعذرون يستدلون بهذه الآية - وبغيرها - ويحكمون على الناس الذين يفعلون أفعالاً شركية كالمتصوفة والعوام ونحوهم بالشرك أو الكفر، بناء على ظاهر النصوص(٣).

والذين يعذرون بالجهل يذكرون أدلة أخرى، مع الرد على شبهاتهم، وذكر أقوال العلماء فى ذلك(٤).

وللحقيقة: فإن قضية العذر وعدمه، أخذت أكبر من حجمها، وأعلم أن مذهب أهل السنة والجماعة هو العذر بالجهل، وهو الذى أدين لله عز وجل به، ولأن عدم العذر بالجهل معناه الحكم بالكفر على الناس قاطبة، وتكفير الناس أجمعين، وربما استثنى هذا الذى لا يعذر أفراداً يعدهم على أصابع يده

١- أخرجه البخارى فى الرقاق (٦٥٣٨)، ومسلم فى المنافقين(٥١).
٢- أخرجه الترمذى (٣٠٧٦) فى التفسير، وقال حسن صحيح، وابن أبى عاصم فى السنة (١/٩٠)، والحاكم (٢/٣٢٥)، والبداية (١/٨٧).
٣- صدر فى ذلك كتب منها، الجواب المفيد فى حكم جاهل التوحيد، والعذر بالجهل بدعة الخلف، وكلاهما حاد عن الأمانة العلمية فى النقل.
٤- قمت بالرد على أصحاب عدم العذر فى رسالتى "شبهات التكفير" فلتراجع، وكذا "العذر بالجهل" لأحمد فريد.

أو يديه، وربما قال: لا أعلم أنه يوجد أحد مسلم غيرى !!!

أقول: وهذه الآية الكريمة، ليست -كما زعموا- حجة كافية فى إقامة الحجة على العباد، بل أجمع أهل العلم على أنه لابد من بعث الرسل حجة على الناس، كما قال تعالى: **﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيما﴾**.(١)

وعن ابن عباس ﷺ قال: "إن الله مسح صلب آدم فاستخرج منه كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ منهم الميثاق أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وتكفل لهم بالأرزاق، ثم أعادهم إلى صلبه فلن تقوم الساعة حتى يولد من أعطى الميثاق يومئذ، فمن أدرك منهم الميثاق الآخر - الذى هو جاءت به الرسل، وأنزلت به الكتب - فوفى به نفعه الميثاق الأول، ومن أدرك الميثاق الآخر فلم يقر به لم ينفعه الميثاق الأول، ومن مات صغيراً قبل أن يدرك الميثاق الآخر مات على الميثاق الأول على الفطرة"(٢).

وقال ابن كثير فى تفسير الآية: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه. قال تعالى: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله..﴾**(٣)، وفى الصحيحين عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ **"كل مولود**

١- سورة النساء : ١٦٥.
٢- تفسير ابن كثير جـ٢، ص ٢٦٢.
٣- سورة الروم: ٣٠.

يولد على الفطرة، وفى رواية: على هذه الملة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تولد بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء"، "وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال رسول الله ﷺ: يقول الله: "**إنى خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم**"....

وعن أبى بن كعب: "قال الله: فإنى أشهد عليكم السموات السبع والأراضين السبع، وأشهد عليكم أباكم آدم، أن تقولوا يوم القيامة لم نعلم بهذا، اعلموا أنه لا إله غيرى، ولا رب غيرى ولا تشركوا بى شيئا، وإنى سأرسل إليكم رسلا لينذرونكم عهدى وميثاقى وأنزل عليكم كتبى، قالوا: نشهد أنك ربنا وإلهنا، لا رب لنا غيرك ولا إله لنا غيرك، فأقروا له يومئذ بالطاعة .."

ثم قال: قالوا: يعنى الحسن البصرى وعياض وأبا هريرة -ﷺ- ومما يدل على أن المراد بهذا أن جعل هذا الاشهاد حجة عليهم فى الاشراك، فلو كان قد وقع هذا كما قال من قال لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه، فإن قيل إخبار الرسول ﷺ به كافٍ فى وجوده، فالجواب أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره،

وهذا جعل حجة مستقلة عليهم، فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد(١).

١- تفسير ابن كثير جـ٢، ص ٢٦٤ بتصرف.

فالله سبحانه وتعالى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه. كما قال تعالى: ﴿**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا**﴾(١). وهذا كثير في القرآن، يخبر أنه إنما يعذب من جاءه الرسول وقامت عليه الحجة. هذا والاشهاد - الوارد في الآية- يحتمل أن يكون بلسان المقال، أو هو بلسان الحال، كما ذهب إليه أكثر من واحد.

ولعل هذا الذي ذكرناه يعد كافيا في الرد على الذين يحتجون بهذه الآية في عدم العذر بالجهل.

١- سورة الاسراء : ١٥

" من صفات النبى محمد ﷺ "

(٢) قال تعالى: ﴿**قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**﴾(١).

يتمثل الفهم الخاطئ لهذه الآية الكريمة فيما زعمه صاحب "هذا هو الحق المكتوم" أن الرسول ﷺ يعلم الغيب -على نحو ما أشرنا عند آية سورة الأنعام- وأن من أدلة علم النبى ﷺ للغيب هذه الآية الكريمة، والتى فيها ﴿**ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء**﴾ إذ قال: لقد استكثر من الخير، وما مسه السوء، فهو يعلم الغيب !! بهذه البساطة!

بل زعم أن قوله تعالى- فى خاتمة الآية ﴿**إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون**﴾ يدل على علمه الغيب، فيقول: النبى ﷺ ينذر العصاة والكفار بالنار، ويبشر المؤمنين والطائعين بالجنة، وهذا يستلزم أن يعرف الكافر من المؤمن، والعاصى من الطائع، على مستوى جميع الأمة فى كل زمان ومكان إلى قيام الساعة !! هكذا !

فما أعجب هذه التفسيرات العصرية، والتى ليست من كتاب ولا حساب، وإنما من تحت عتبة الباب، ويزعمون أنها علم لَدُنّى من الوهاب.!!

فالآية فى غاية الوضوح، وهى حجة على القوم ، - وليست لهم - لأن

١- سورة الأعراف: ١٨٨.

الرسول ﷺ لا يعلم الغيب يقيناً. وقوله ﴿لاستكثرت من الخير﴾ أى من المال والتجارة بالبيع والشراء، والحصول على الربح، والبعد عن الفقر ونحو ذلك. وهذا ليس من شأن الرسول ﷺ، أو إن أريد بالخير الأعمال الصالحة، فيكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك وقوله ﴿وما مسنى السوء﴾ أى لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيته، والرسول ﷺ مسه السوء فى مكة ويوم الطائف، ولما هزم مع أصحابه فى غزوة أحد -وقد قتل عمه حمزة، وبقرت بطنه- وعدد من أجلاء الصحابة، وكذا "يوم حنين"، وما أصاب أصحابه فى غزوة مؤته مما ساءه جدا ﷺ، ومسه السوء باتهامه فى أحب نسائه إليه "عائشة الصديقة بنت الصديق" باتهامها بالافك، وما كان ﷺ يعلم الغيب فى شىء من ذلك، وإلا لتوقاه، وعرف بيانه ونتيجته. وغير ذلك فى حياة الرسول ﷺ كثير. ومنه: ما كان يسئل ﷺ عنه. فلا يعلم حكمه، حتى ينزل عليه الوحى.

ثم قوله ﴿إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون﴾ أى نذير بالعذاب للكافرين، وبشير بالجنات للمؤمنين.

وهذه من أخص خصائصه ﷺ "**بشيراً ونذيراً**"، ولكن هذا لا يستلزم أبداً معرفة أسماء هؤلاء للبشارة أو للنذارة، لتكون دليلاً على علم الغيب، وهو استدلال عجيب، لم نسمع به إلا فى عصر الفتن هذا.

والخلاصة: أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب إلا ما أطلعه الله عليه فقط. على نحو ما أشرنا من قبل.

"هل وقع آدم فى الشرك؟!!"

(٣) قال تعالى: ﴿**هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به فلما أثقلت دَعَوَا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين. فلما ءاتاهما صالحاً جعلا له شركاء فيما ءاتاهما فتعالى الله عما يشركون. أيشركون ما لايخلق شيئاً وهم يخلقون**﴾(١).

وظلم هذه الآية يتمثل فى الإسرائيليات التى أحاطت بها، واتهمت سيدنا "آدم" وزوجه"حواء"بوقوعهما فى الشرك بالله تعالى،!! الله أكبر

حكت الإسرائيليات: أنه لما ولدت حواء طاف بها إبليس، وكان لا يعيش لها ولد، فقال سميه عبد الحارث، فإنه يعيش، فسمته عبد الحارث فعاش، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره.

كما ذكرت أيضاً: أن آدم لما تغشاها -أى حواء- أتاها إبليس- لعنه الله- فقال: إنى صاحبكما الذى أخرجتكما من الجنة، لتطيعانى أو لأجعلن له قرنى إيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن، ولأفعلن -يخوفهما- فسمياه "عبد الحارث" فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت -يعنى الثانية- فأتاهما، فقال: أنا صاحبكما الذى فعلت ما فعلت، لتفعلن أو لأفعلن -يخوفهما- فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت الثالثة، فأتاهما

١- سورة الأعراف : ١٨٩ - ١٩١.

أيضاً، فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه عبد الحارث، فذلك قوله تعالى :﴿جعلا له شركاء فيما ءاتاهما﴾.

أقول: وهذه الآثار - ونحوها - يظهر عليها - والله أعلم - أنها من آثار أهل الكتاب، ومن العجب أن ترفع إلى رسول الله ﷺ ، وإذا نسبت الى الصحابة، فإنها تنسب إلى الكبار منهم، ابن عباس، وابن مسعود ..الخ.

وتكون من كلام كعب الأحبار أو وهب بن منبه وغيرهما الذين زجوا بهذه الإسرائيليات في كتاب الله تعالى.

هذا، وكيف يليق بآدم -عليه السلام- وهو نبى، اجتباه الله وهداه -أن يشرك بالله تعالى؟!!

وكيف يصح لآدم وحواء أن يسمعا كلام إبليس ونصحه بعد ما فعل معهما ما فعل، وكان سبباً فى إخراجهما من الجنة وقد ذكرهما بذلك، ثم يسمعا كلامه ونصحه؟!!

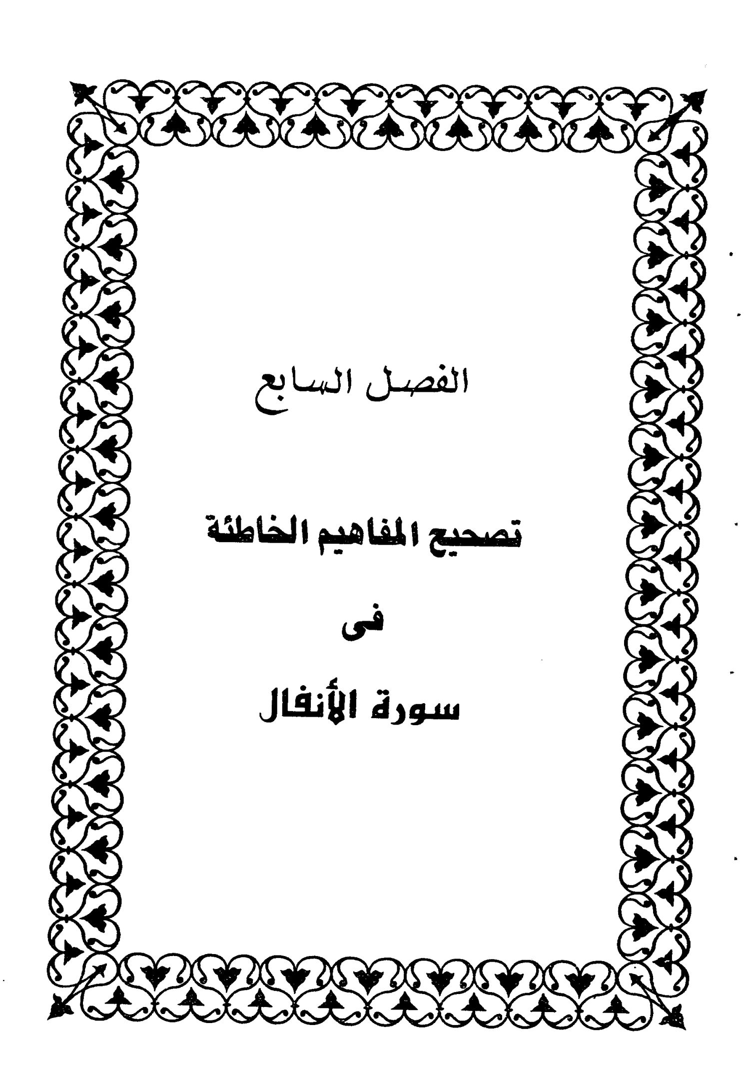
ورحم الله الحسن البصرى قال -فى تفسير الآية-، ﴿جعلا له شركاء فيما ءاتاهما﴾: كان هذا فى بعض أهل الملل، ولم يكن بآدم، كما قال: عَنَى بها ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده، وكان يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا، وهذه أسانيد صحيحة عن الحسن ﷺ، أنه فسر الآية بذلك.

قال ابن كثير- تعليقا على ذلك: وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية، ولو صح فى ذلك حديث عن رسول الله ﷺ لما عدل عنه هو ولا غيره، ولا سيما مع تقواه لله وورعه، ثم قال: وأما نحن فعلى مذهب

الحسن البصرى - رحمه الله - فى هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته، ولهذا قال الله ﴿**فتعالى الله عما يشركون**﴾، ثم قال: فذكر آدم وحواء أولاً كالتوطئة لما بعدهما من الوالدين، وهو كالاستطراد من ذكر الشخص إلى الجنس(١) ونحن على ما عليه الحسن البصرى وابن كثير، ومعهما فى ذلك.

ونسأل الله أن يحشرنا مع الصالحين. أ. هـ

١- تفسير ابن كثير جـ٢، ص ٢٧٤، ٢٧٥ بتصرف.



الفصل السابع

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة الأنفال



الفصل السابع

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى " سورة الأنفال "

" متى يجنح للسلم؟ "

(١) قال تعالى: ﴿**وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم**﴾[1].

وظلم هذه الآية تمثل فى رفعها شعارا لصلحنا مع اليهود، ومعاهدة اليهود، وقد قاسوا ذلك على "صلح الحديبية" !!

أقول: ولو كانوا هم الذين جنحوا للسلام وطلبوه لصح الاستدلال بالآية.

ولو كان سلاما عادلا فيه رد المظالم لأهلها، ودفع الحقوق لأصحابها، فلا بأس،

أما وأن نجنح نحن للسلام، عن ضعف واستسلام، فى صلح جائر، انقلبت فيه المعايير، وانعكست الحقائق، وخسرت الموازين، وصار المظلوم ظالما، والظالم مظلوما، وصار أبناء الوطن معتدين، والذين يدافعون عن أراضيهم وحقوقهم ومقدساتهم وأعراضهم متطرفين، ثم يستشهد بهذه الآية من كتاب الله على هذا الوضع المتردى، فهذا ما لا نرضاه أبدا، ولا نرضى لكتاب الله أن يتلطخ بهذا الظلم .

يسالمون أو لا يسالمون. ولكن يستشهد على هذا الجور بكتاب الله، فلا

---

١ - سورة الأنفال : ٦١.

ومن هذا الذى يزعم أن اليهود أهل وفاء للعهود، أو أصحاب سلام؟

إنه لو تركت الحيات لدغها، والحمر نهيقها. والكلاب نباحها، ما ترك اليهود نقضهم للعهود، وإن اليهود إذا سالموا، فإنما هو سلام مصلحة، وتأمين جبهة، وهدنة إلى حين.

وقياس ذلك على صلح الحديبية مردود، فإن صلح الحديبية كان نصرا للإسلام بكل المقاييس، فأين هذا من ذاك؟ والمشركون هم الذين طلبوا الصلح ووضع الحرب بينهم، وما يعقلها إلا العالمون.

ولو قيس ذلك على معاهدة الرسول ﷺ لليهود فى المدينة، لكان له وجه، ولكن كيف كان حال اليهود فى تلك العهود؟ لقد نقضوا العهود، وخالفوا المواثيق، وأرادوا التخلص من النبى ﷺ والمسلمين، فأدبهم النبى ﷺ، وكانت غزوة بنى قينقاع، وبنى النضير وبنى قريظة، وأجلاهم النبى ﷺ عن المدينة المنورة، وما تركوا خداعهم ونقضهم حتى أجلاهم سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عن جزيرة العرب.

إنه لا سلام مع اليهود حتى يجنحوا إليه، وإن جنحوا إليه فلا سلام حتى تستبين الحقائق وترد الأمور إلى نصابها الطبيعى، فافهموا ذلك يا أولى الألباب.

" اجتهاد الرسول ﷺ ليس خطأ "

(٢) قال تعالى: ﴿**ماكان للنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**﴾[١].

والفهم الخاطئ فى هذا، ما عَرَضُّوا بالنبى ﷺ فيه، وقالوا: خالف حكم الله، ورغب فى عرض الدنيا،

وقد توعده الله مع أصحابه بالعذاب العظيم، وهذا يدل على عدم عصمته من الخطأ والمعصية. !!

بهذا زعم قوم من المستشرقين، ورددها بعض المتكلمين، وهى فرصة وشبهة لكل المغرضين، وإنما يقول بهذا القول قوم فى قلوبهم مرض، يكنون البغض - فى نفوسهم- لرسول الله ﷺ.

والآية ليست على نحو ما ذهبوا إليه، أو توصلوا إليه.

فإن الرسول ﷺ كان شأنه كله من الوحى ﴿**وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى**﴾[٢].

ولكن كانت تصدر عنه بعض التصرفات التى لم يوح إليه شئ بخصوصها، بل كان أمرها متروكا إلى اجتهاده الخاص، فكان فى بعض الأحيان يؤديه اجتهاده إلى ما هو حسن، متجاوزا ما هو أحسن منه، فاعتبر

---

١ - سورة الأنفال : ٦٧، ٦٨.

٢- سورة النجم : ٣، ٤.

وقوفه عند الرأى الحسن وعدم إصابته ما هو أحسن منه ذنبا بالنسبة إليه. وبالإضافة إلى مكانته من العلم والعقل والفقه.

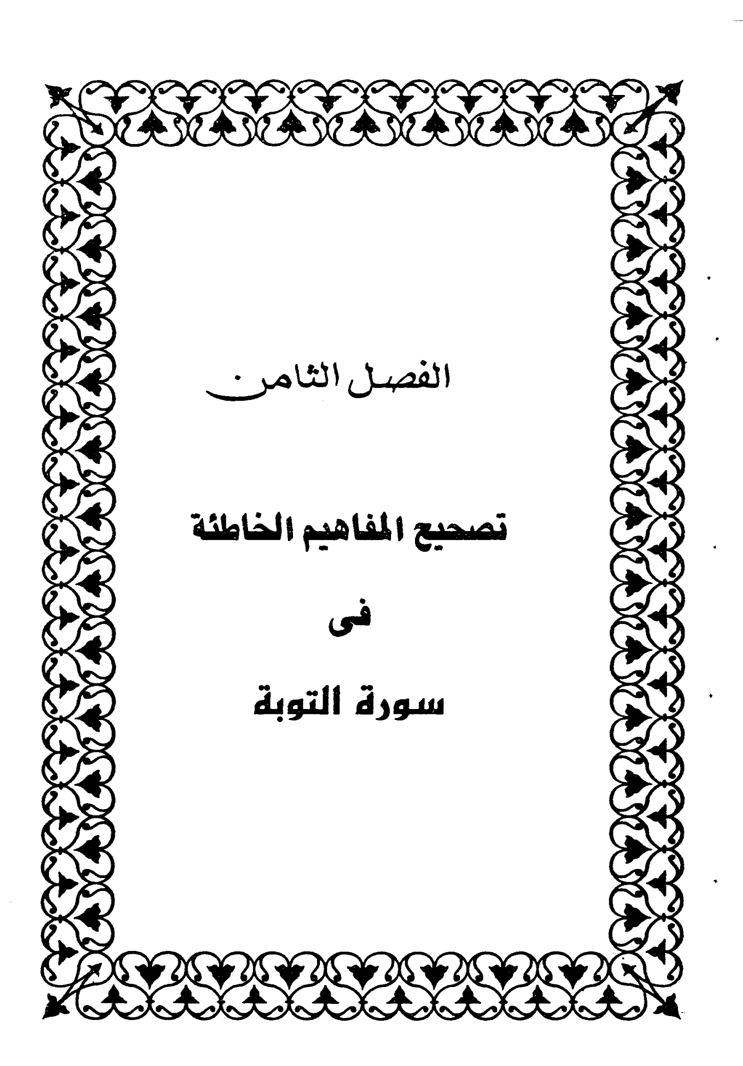
فمن هذا القبيل كان اجتهاده فى أسرى بدر، وقبول الفداء، قبل أن يوحى إليه فى ذلك، ثم نزلت الآيات بمثابة عتب خفيف من الله تعالى، لكنه لحساسية الرسول ﷺ المفرطة بكى، وبكى معه "أبو بكر" بكاءا شديدا، وقال: "لو نزل عذاب من السماء ما نجا غير عمر" وهذا من شدة خوفه ﷺ من ربه، وفى هذه الحادثة لم يكن من الرسول ﷺ إلا الاجتهاد فى قضية لم يوح إليه فيها بشئ، ولم يخطئ فى حكمه فيها، لأن الرسول ﷺ لا يقر على خطأ، وإنما عدل عما هو أحسن إلى ما هو حسن.

ولذلك فقوله تعالى: ﴿**لولا كتاب من الله سبق**﴾ أى بعدم مؤاخذة المجتهد على اجتهاده، أو أنه فى أم الكتاب الأول أن المغانم والأسارى حلال لكم، أو سبق حكمه بالمغفرة لكم لمن شهد بدرا. لمسكم فيما أخذتم عظيم، أى أخذتم من الأسارى والغنائم، أو قبول الفداء وعدم الإثخان فى الأرض.

ولما أقر الله تعالى فعلهم أكد ذلك بقوله: " **فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم**"[1].

---

١ - سورة الأنفال : ٦٩.



الفصل الثامن

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة التوبة

الفصل الثامن

تصحيح المفاهيم الخاطئة " سورة التوبة "

" العذر بالجهل "

(١) قال تعالى: **﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون﴾**[1]، قالوا: أى لا يعلمون أنهم مشركون.

وظلم هذه الآية، فى تلك الزيادة التى قالوها، بالاضافة إلى معناها - فى نظرهم - أن الشخص قد يكون مشركا من أصحاب النار الخالدين فيها، الذين أمرنا الله بقتالهم وأحل لنا دماءهم وأموالهم، وهو مع ذلك لا يعلم أنه كافر أو مشرك، وأن ذلك دليل على أن المسلم الذى نطق بالشهادتين، يرتد كافرا إن وقع فى أى نوع من أنواع الشرك حتى وإن جهل ذلك، وإن لم يكن عامدا، وكان جاهلا متأولا، والآية حجة فى ذلك.

يعنى هى حجة عندهم فى عدم العذر بالجهل، وهذا هو الفهم الخاطئ للآية

وتعجب لفهمهم لهذه الآية - بادئ ذى بدء - فهم يفسرونها بتلك الزيادة المزعومة "لايعلمون أنهم مشركون" فهو إدخال على الآية ما ليس فيها، أما إنهم لا يعلمون فحق، وصدق الله العظيم، فهم لا يعلمون عظمة

---

١ - سورة التوبة : ٦.

الله وجلاله، وما يجب أن ينزه عنه من المثيل والشريك، فهم قوم لا يعلمون.

والذى يطلب من هؤلاء المقاتلين الأمان ليعرف حقيقة دعوة الإسلام وما جاء به الرسول ﷺ، جاهل ظاهره أنه غير معاند ولا متكبر، حرى بأنه يُعَلَّم ويُعرَّف، وتقام عليه الحجة ، ويوضح له الأمر حتى يعلم بعد أن لم يكن يعلم، فالآية حجة عليهم -وليست لهم- ففيها الدليل على إقامة الحجة والعذر بالجهل ..

يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية: "يقول تعالى لنبيه ﷺ: ﴿**وإن أحد من المشركين**﴾ الذين أمرتك بقتالهم، فأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم "**استجارك**" أى استأمنك فأجبه إلى طلبه ﴿**حتى يسمع كلام الله**﴾ أى القرآن، تقرؤه عليه، وتذكر له شيئا من أمر الدين، تقيم به عليه حجة الله، ﴿**ثم أبلغه مأمنه**﴾ أى هو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده وداره ومأمنه، ﴿**ذلك بأنهم قوم لا يعلمون**﴾ أى إنما شرعنا أمان مثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوة الله فى عباده" أ. هـ (١).

وإن الأحكام إنما هى لله تعالى وحده، فما سماه الله تعالى كفرا وشركا فهو كما قال الله تعالى، والذى لا شك فيه، أخذا بالنصوص الثابتة، أنه ليس فى الناس إلا مسلم أو كافر مشرك، وليس فى أحكام هذه الدنيا دون هاتين الصفتين صفة ثالثة، والمسلم هو المؤمن وقد يكون عاصيا فاسقا، وهو

---

١ - تفسير ابن كثير جـ٢، ص ٣٣٧.

مـا لـم تظهـر منـه ردة.بـاق فـى أحكـام هـذه الدنيـا مـن المسـلمين المؤمنيـن.وأن مـن لـم ينطـق بالشهادتيـن ليـس مسـلما، وهـو فـى أحكـام هذه الدنيا فى عـداد الكـافرين المشـركين. وأمـا المسـلم الـذى جهـل معنـى الشهادتين ومضمونهما لا يقدح فى إسـلامه، ووجـوب حرمـة دمـه ومالـه، وعلـى القـادريـن تعليمـه، فمـا أبلـغ بـه مـن الحـق وقـامت عليـه بـه الحجـة وجـب عليـه اعتقـاده، فـإن عـانـد فهـو مـرتـد كـافـر.

والمشكلة تكمن فـى شـباب مـن الأمـة جهـلاء، ومـع ذلـك لا يعـذرون بـالجهل، ونحـن إذا لم نعـذر بـالجهل مثلهـم، كـانوا هـم أول ضحيـة لذلـك المعتقد، أى يحكم عليهم بـالكفر، لجهلهـم بكثـير مـن قضايـا الديـن، بـل إن الواحد منهم يسأل: نُعَذّر بالجهل أم لا؟ وهو لا يفرق بين العذر والتعزير.

فهذا عن العنوان، أما عـن المضمـون فـلا شـئ، إلا كلمـات حفظهـا، أو نتف من العلم مشوشا ومشبوها !

وقضيـة العـذر بـالجهل، وعـدم العـذر بـه، أخـذت أكـبر مـن حجمهـا، واستغرقت وقتا كبيرا فى حياة أبناء الصحوة الإسلامية!

واختلاف العلماء فيها بـين العـذر وعدمـه، ضيـع أوقـات شـباب الأمـة، فكأنها هى كل القضية!!

وليته إذا لم يعذر وقف عند هـذا الحـد، ولكنـه راح يـوزع الكفـر علـى الناس جزافا. بلا ضوابط !!

ثم هل قضية العذر بالجهل من عدمه تهم كل إنسان؟ أم أنها تهم المفتي والقاضي والحاكم، لما ينبني على ذلك من أحكام، تختلف بمعرفة هذه القضية، العذر من عدمه؟

ثم يقال : هذا الذي لا يعذر بالجهل ويحكم على إنسان بالكفر، هل يستطيع أن يقيم عليه حد الردة؟

إننا نحن المسلمين نحتاج إلى من يدعو ، ويُعَلِّم، لا من يقضي ويحكم، فنحن دعاة لا قضاة، لسنا مطالبين بأن نحكم على الناس، فالقضية قضية مبادئ، لا أشخاص، والحكم على العموم، لا على التعيين، فنقول: تارك الصلاة كافر.

ولا نقول : فلانا بعينه من تاركي الصلاة كافر، حتى يستتاب، وتقام عليه الحجة، ولا بد -قبل- من الدعوة والنصيحة.

ونقول: من سجد لغير الله كفر، ولا نقول على فلان بعينه سجد لنبي أو ولي، أو حاكم أو ظالم، بأنه كفر، حتى تقام الحجة باستيفاء الشروط وانتفاء الموانع، واستيفاء الشروط بنصب الأدلة ورد الشبهات، وانتفاء الموانع برفع الأعذار عنه من الجهل والتأويل والخطأ والنسيان والاكراه والجنون،

وبعد إقامة الحجة عليه -بكامل شروطها-، ثم عاد لأمر من أمور الكفر، عن علم -لا عن جهل- وعن قصد -لا عن تأويل- وعن عمد -لا عن خطأ- وعن تذكر -لا عن نسيان- وعن حرية -لا عن إكراه- وعن

عقل -لا عن جنون-، فهذا يمكن الحكم عليه بالردة، ثم تطبق عليه أحكامه- فى حياته وبعد مماته. لا أنه مرتد، ويترك، فماذا أفاد الحكم؟!!

ولابد من أن نضع فى الحسبان : ادرءوا الحدود بالشبهات، وكذلك : الخطأ فى العفو خير من الخطأ فى العقوبة.

وللعلم أن أدلة العذر بالجهل كثيرة، لا يمكن استيفاؤها فى هذا المجال، فلتراجع فى مظانها [١].

---

١ - راجع بتوسع : شبهات التكفير.

" حقيقة الجزية "

(٢) قال تعالى: ﴿ **قاتلوا الذين لا يؤمنون بـا لله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم ا لله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون** ﴾[1].

الفهم الخاطئ للآية: أن بعض المستشرقين أثاروا شبهات حول الجزية، وفهموها على غير وجهها،

واتهموا عدل الإسلام وسماحته، وقالوا: هل من التسامح الإسلامى إذلال أهل الكتاب، وأخذ الجزية منهم ظلما وعدوانا، مع ذلتهم وصغارهم؟ أليس هذا التضييق على الذميين منبعثا عن تعصب أو عن بغضاء.

إنها فى نظرهم ضريبة ذل وهوان، وعقوبة فرضت عليهم مقابل الامتناع عن الإسلام !!

وزيادة فى الإيضاح والبيان، ودفعا للشبهة، وردا لهذه الفرية، وتبيانا للحقيقة، أقول : ما الجزية ؟ ولماذا فرضت ؟ ومتى فرضت ؟ وما معنى الصغار فى الآية؟

أ- الجزية من جزى يجزى، إذا كافأ عما أسدى إليه، وهى مال يدفعه أهل الكتاب، ومن يلحق بهم إلى المسلمين، مقابل حق أو خدمة أو واجب يقوم به الطرف الآخر.

---

١ - سورة التوبة : ٢٩.

ب– لماذ فرضت؟ ذلك أن أهل الكتاب هم جزء من الدولة الإسلامية، يعيشون فى كنفها، ويستمتعون بخيراتها، والدولة الإسلامية يجب عليها أن تكفل لهم الحماية والأمن وسبل المعيشة الكريمة.

فضلا عن أن المسلم يقوم بواجب الجهاد، دفاعا عن البلاد، فالجزية جزاء حمايتهم وكفايتهم، فهم يكفون مؤنة القتال مع المسلم، فالدولة الإسلامية لها حدود وفيها ثغرات، وتحتاج إلى مقاتلين يدافعون عنها ويحافظون على حدودها، ويؤمنون أهلها، والذى يقوم بهذا الدور إنما هم المسلمون، لأنهم يؤمنون بمبدأ دولتهم، ويعلمون أن الجهاد فرض عليهم، ويعلمون ما للجهاد من فضل يزيد عن أجر صائم النهار وقائم الليل، فهم يجاهدون عن عقيدة،

وليس ثمة شئ من ذلك لدى أهل الكتاب، لذا لا يجبرهم الإسلام على أن يقاتلوا مع المسلمين وكيف يجبر الإسلام أناساً يحملون أرواحهم على أكفهم فى سبيل دين لايؤمنون به، وبمبادئ لا يعتنقونها ومن ثم خفف عنهم عبء القتال بأنفسهم، فبقى المقابل أن يقدموا شيئا من أموالهم فى سبيل حماية الدولة التى يعيشون فى كنفها وظلالها.

هذا .. ويوم أن تتاح الفرصة لأهل الكتاب أن يقاتلوا مع المسلمين، فإن الجزية تسقط عنهم، لأنها شرعت فى مقابل الدفاع عنهم، فيوم أن يقوموا بواجب الدفاع عن أنفسهم مع الدولة الإسلامية الكبرى التى يعيشون فى ظلالها، فإن الجزية تسقط عنهم،

كما أنه من أسباب فرضية الجزية على أهل الكتاب تحقيق العدل بين أفراد الدولة الإسلامية، مسلمين وغير مسلمين، إذ تقدم لهم الدولة الامتيازات المطلوبة للحماية والخدمة وسبل الحياة الكريمة فهي تفرض على المسلمين أن يقدموا الزكاة، وعلى الذين أعطوا من أرضها أن يقدموا الخراج ، وأما الذين لم تفرض عليهم الزكاة ، ولم يجب في حقهم الخراج، أن يعطوا الجزية.

إذا كما أنه مفروض على المسلم أن يزكى، فمفروض على أهل الكتاب أن يعطوا الجزية،

فلما كانت الزكاة عبادة وقربى إلى الله -عزوجل-، لا تصح إلا من مسلم، كان البديل عن الزكاة فى حق أهل الكتاب هو اعطاء الجزية.

جـ- متى فرضت؟ يعترف أحد كبار النصارى، المدعو "جورجى زيدان" بأن الجزية ليست من محدثات الإسلام، بل هي قديمة من أول عهد التمدن القديم، وقد وضعها يونان أثينا على سكان سواحل آسيا الصغرى حوالى القرن الخامس قبل الميلاد، مقابل حمايتهم من هجمات الفينيقيين، وفينيقية يومئذ من أعمال الفرس، فهان على سكان تلك السواحل دفع المال فى مقابل حماية الرؤوس.

والرومان وضعوا الجزية على الأمم التى أخضعوها، وكانت أكثر بكثير مما وضعه المسلمون بعدئذ، فإن الرومان لما فتحوا (فرنسا) وضعوا على كل

واحد من أهلها جزية يختلف مقدارهـا مـا بـين ٩جنيهـات، و١٥جنيهـا فـى السنة، أو نحو سبعة أضعاف جزية المسلمين.

وكانت تؤخذ من الأشراف، عنهم وعن عبيدهم وخدمهم.

وكان الفرس أيضا يجبون الجزية من رعاياهم(١).

فماذا عن الجزية فى الإسلام؟

لقد كان النبى ﷺ يقدرها بحسب الأحوال، وعلى مقتضى التراضى الذى كان يقع بين المسلمين وأعدائهم.. فى الوقت الذى لا يؤخذ فيه شئ من النساء والصبيان، ولامن أهل العاهات، فلا تؤخذ من مجنون، ولا مريض مرضا غالبا، ولا من كبير فى السن، ولا من عبد، ولا من الرهبان ونحوهم.

وكثيرا ما كانت تقدر الجزية باعتبار ما يبقى فى أيدى الناس من دخلهم بعد نفقاتهم ..

وجاء فى حديث النبى ﷺ ما يقدر قيمتها " **أن على كل حالم (بالغ) دينارا**"(٢)، أو عدل ذلك.

وقيمة الجزية يمكن أن تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة، والأشخاص والأحوال، والأمر فى ذلك واسع ولكن شرطها يجب ألا يكلف أحد فوق طاقته، وقد يكون الدينار فوق طاقة البعض، بل أن الفقير منهم إذا احتاج

---

١ - تاريخ التمدن الاسلامى، جورجى زيدان، جـ١١ (بتصرف).

٢ - أخرجه أبوداود فى الزكاة (١٥٧٦)، والترمذى فى الزكاة (٦٢٣)، والنسائى فى الزكاة (٢٤٤٩)، وابن ماجة فى الزكاة (١٨٠٣).

يعطى من سهم المصالح، كى يعيش معيشة تتوافر فيها كفايته، كما فعل عمر بن الخطاب ﷺ مع اليهودى المسن الأعمى - إذ رآه يتكفف الناس، فسأله: مالك، قال: ليس لى مال، وإن الجزية تؤخذ منى - وفى رواية قال: من أى أهل الكتاب أنت؟ فقال: يهودى، قال: فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن، فأخذ "عمر" بيده، وذهب به إلى منزله فأعطاه مما وجده، ثم أرسل به إلى خازن بيت المال، وقال له، أنظر هذا وضرباءه، فو الله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم، أو نأخذ منه الجزية عند كبره، قال تعالى: ﴿**إنما الصدقات للفقراء والمساكين**﴾[1] والفقراء هم الفقراء المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ثم وضع الجزية عنه وعن ضربائه.

وفى رحلته إلى دمشق أيضا أمر عمر بن الخطاب ﷺ بعياله المقعدين من أهل الذمة من بيت المال.

وبيت مال المسلمين لم يكن أعز عند "عمر بن عبد العزيز" من ذمى يسلم، وقد شكا إليه بعض الولاة إفقار بيوت الأموال من إقبال أهل الذمة على الإسلام ليسقط عنهم الجزية، فكتب إليهمْ "عمر" يلومهم على الشكوى ويقول : "إن الله أرسل محمدا ﷺ هاديا، ولم يبعثه جابيا"!

ولم يكن إقبال أهل الذمة على الإسلام إلا لأنه رد إليهم ذواتهم التى كانوا فقدوها فى الشرك والوثنية ولو كان الإسلام سلبا للذوات لظلوا على عداوته وما قبلوا دعوته، ولكن المسافة لم تكن بين الذمية والإسلام فى

---

١ - سورة التوبة : ٦٠.

كثير من الأحيان إلا مسافة التجربة والاختلاط، ثم يقبل الذمي على الإسلام مخلصا موفقا.

يذكر التاريخ - من مواقف المسلمين المشرفة - أنه حين فتح "أبو عبيدة ابن الجراح" الشام، وأخذ الجزية من أهلها الذين كانوا يومئذ ما يزالون على دينهم، اشترطوا عليه أن يحميهم من الروم الذين كانوا يسومونهم الخسف والاضطهاد، وقبل "أبو عبيده" الشرط، ولكن "هرقل" أعد جيشا عظيما لاسترداد الشام من المسلمين، وبلغت الأنباء "أبو عبيدة" فرد الجزية إلى الناس، وقال لهم : لقد سمعتم بتجهيز هرقل لنا وقد اشترطتم علينا أن نحميكم وإنا لا نقدر على ذلك، ونحن لكم على الشرط إن نصرنا الله عليهم[1].

إنه حادث فريد في التاريخ، قائد جيش فاتح منتصر يأخذ الجزية من أهل البلاد المفتوحة، ثم يردها إليهم بأى حال من الأحوال، ولم يكن "أبو عبيدة " يصنع ذلك رجاء "مصلحة" بعيدة يقدرها، ويضحى في سبيلها بالمصلحة القريبة، كلا فما كان عنده يقين بأن ينتصر على جيش هرقل الجرار، وتعبيره واضح "إنا لا نقدر على ذلك، وإنما ينطلق من مبدأ الوفاء بالمواثيق، وأخلاق الإسلام، ولذلك نصرهم الله، وراح الناس يعيدون الجزية راضية قلوبهم، ثم - من بعد - صاروا يدخلون في دين الله أفواجا ، إعجابا بهذا الدين الذى يخرج من هو على هذا الخلق العظيم

---

١ - فتوح البلدان للإمام أبى الحسن البلاذرى، والدعوة إلى الإسلام/ توماس أرنولد.

د- ما معنى الصغار الوارد فى الآية ﴿حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون﴾

معناه هنا التسليم وإلقاء السلاح والخضوع لحكم الدولة الإسلامية واعترافهم بالوضع الإسلامى والرضوخ له، من باب الآية الكريمة ﴿**و لله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾[1] أى أن يعترفوا بعزة الإسلام ودولة المسلمين.

وينبغى أن لا يفهم الصغار هنا بمعنى الهوان والذلة والاهانة لهم، أو الزراية عليهم، أو الشماتة فيهم، أو ظلمهم وإيذائهم، أو التكليف فوق طاقتهم، أو عقوبة لهم، فإن كل ذلك لا يتفق وسماحة الإسلام وعظمته وما عرف من حسن معاملة الرسول ﷺ وصحابته لأهل الذمة.

ولو أن المسلمين الأول فعلوا ما قاله أولئك الذين لم يفهموا روح الإسلام، لانفض الناس من حولهم، ولما دخل فى الإسلام هذا الجمع الغفير الذى لم يدخله إلا عن اقتناع منه برحابة صدره، وسماحة تعاليمه، وعدالته مع أتباعه وغير أتباعه، ونظرتة إلى الكل نظرة بر وعدل وإحسان.

ومن يقرأ بتدبر وإمعان ما كتبه "ابن القيم" فى كتابه "أحكام أهل الذمة" عن الجزية يرى عظمة الإسلام وسماحته فى معاملة الذميين.

وقد أورد النهى عن التشديد على أهل الذمة فى الجزية والخراج، والحث على الرفق واللطف بهم فى كل حال، وأن لا يكلفوا ما لا يطيقون، و كان "عمر" ﷺ أمر أن لا يكلفوا فوق طاقتهم ، وأن لا يلزموا من

---

١ - سورة المنافقون : ٨.

أمال مالا يطيقون ، ولا يجوز أن ينادى على أملاكهم للبيع عوضا عن الجزية.

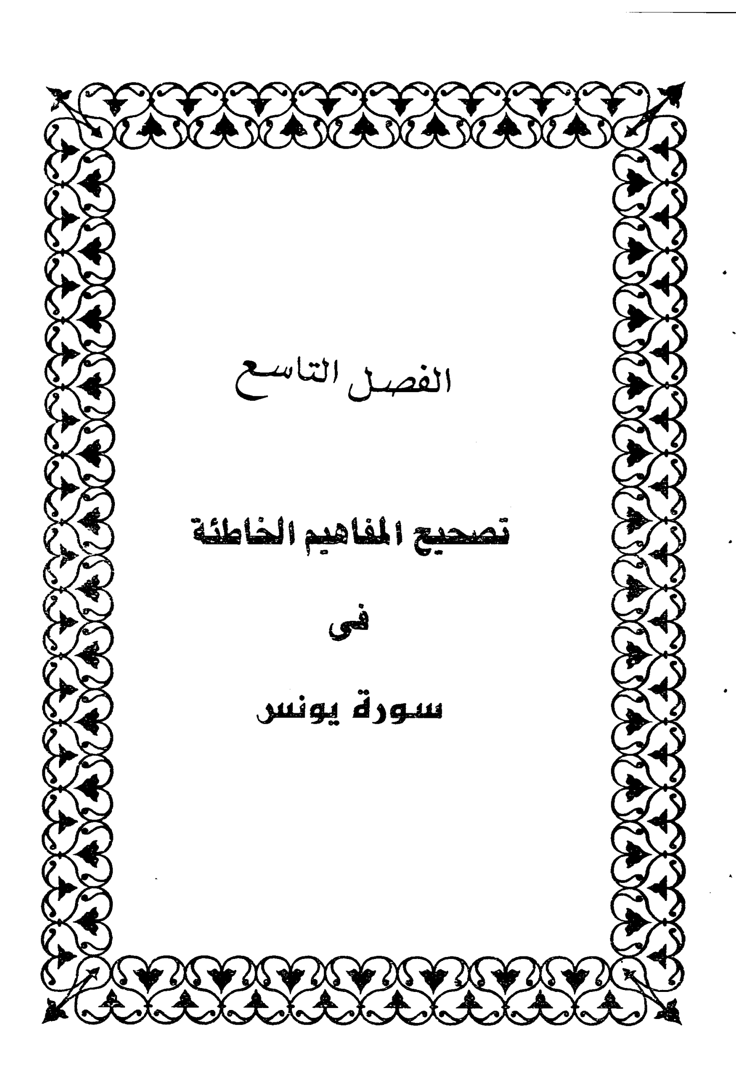
وقد كتب "على بن أبى طالب - ﷺ - إلى بعض عماله : " لا تبيعن لهم فى خراجهم حمارا ولا بقرة، ولا كسوة، شتاء ولا صيفا، ولا رزقا يأكلونه، ولا دابة يعملون عليها، ولا تضربن أحدا منهم سوطا واحدا فى درهم، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم، ولا تبع لأحد منهم عرضا فى شئ من الخراج، فإنا إنما أمرنا أن نأخذ منهم العفو، فإن أنت خالفت ما أمرتك به، يأخذك الله به دونى، وإن بلغنى عنك خلاف ذلك عزلتك".

ومر "عمر" ﷺ فى سفره إلى الشام ببعض عماله وهو يعذب الذميين فى أداء الجزية، فقال: لا تعذب الناس، فإن الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة" [1] وغير ذلك كثير.

فهل ينبغى بعد هذا كله - وهذا بعضه - أن يقال : إن الإسلام بأسلوب فرض الجزية على أهل الكتاب يكرههم على التحول عن دينهم إلى الإسلام. أو أراد إذلالهم، أو ظلمهم؟!!! سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

١ - كتاب "الخراج" لأبى يوسف (بتصرف).



الفصل التاسع

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة يونس

الفصل التاسع

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى " سورة يونس "

"حقيقة الولاية"

(١) قول الله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم**﴾[1].

والفهم الخاطىء فى الآية لمعنى الولاية، الذى ظلم عند المتصوفة، وزعموا فيه مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان، لدرجة أن بعض المتصوفة زعم أن الولاية أفضل من النبوة، وهناك من أعطاهم خصائص الله تعالى، وخاصة فى مسألة النفع والضر، ويعتقدون أن الأولياء هم أصحاب الأضرحة والمقامات، وعندهم تقضى الحاجات، كما يعتقدون أن الولى هو الذى تبيَّن وظهرت له كرامات. وإن الأولياء معدودون فى كل بلد، ومعروفون، وهم محصورون، لأن الولاية مقام رفيع لا يناله إلا فئة قليلة جداً من الناس، لهم عند الله يد ولهم دولة. وزعمت الصوفية لأوليائها مزاعم، عبروا عنها بقولهم: " والنبوة فى برزخ فويق الرسول ودون الولى"!! يعنى الولى أعلى من النبى، الذى هو أعلى درجة من الرسول، قضية معكوسة، عكس ما نعلمه تماما، وهو أن الولى أرقى منه النبى، وأرقى منهما الرسول.

[1] - سورة يونس: ٦٢ - ٦٤.

وقالوا: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنـا عـن الحـى الـذى لا يموت!! وكذا: " خضنا بحراً وقف الأنبياء بساحله"!! ويقول الولى الصوفى: حدثنى قلبى عن ربى!!

حتى صار مقام الولاية عند كثير من الناس، لـه مـن الرغبـة والرهبـة، مـا ليس لله تعالى.

ولذلك وقع كثير من المسلمين فى الشرك با لله، باسـم الأوليـاء، أوحـب الأوليـاء!! والحق يقـال: إن الولايـة، ليسـت -كمـا زعمـوا- بـالتبيين، ولا بالأضرحة، ولا أن الأولياء معدودون فـى كـل بلـد واحـد أو أكـثر، ولا أن الولى أفضل من النبى، ولا أن الولى ينفع ويضر!! لا يصح مـن ذلـك شـىء، وليس فى الإسلام ما يدل على تلك الخرافات التى تؤدى إلى الشرك.

والأمر فى غاية الوضوح، كما بين القرآن الكريم.

فلقد دل القرآن الكريم على أن كل الناس أوليـاء، إمـا أوليـاء لله، وإمـا أولياء للشيطان. فالمؤمن ولى للرحمن، عدو للشيطان، والكافر ولى للشيطان، عدو للرحمن.

قال تعـالى: **﴿ا لله ولى الذيـن آمنـوا يخرجهـم مـن الظلمـات إلى النـور والذيـن كفـروا أوليـاؤهم الطـاغوت يخرجونهـم مـن النـور إلى الظلمـات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾**[1].

---

١ - سورة البقرة: ٢٥٧.

فالولاية تبدأ مع الإيمان بالله تعالى، لمن خرج من الكفر ودخل فى الإسلام، أو لمن أعلن الرضى بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

والولاية -فى اللغة- معناها: القرب والدنو، والمحبة والمعونة، والنصرة والهداية، وهو قاسم مشترك، فالعبد يوالى الله تعالى، فيواليه الله عز وجل.

أى يطلب العبد الهداية، فيهديه الله ويزيده هدى، ويقترب من الله، فيزداد الله منه قربا، ويحب الله، فيحبه الله، ويطلب العون من الله فيعينه الله تعالى.

ولذلك بين القرآن ولاية العبد لله تعالى: فقال: **﴿إن ولىَّ الله الذى نَزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين﴾** (1) .

وكذا ولاية الله تعالى للعبد فقال: **﴿الله ولى الذين آمنوا﴾**(2). **﴿وهو الولى الحميد﴾**(3).

والفارق بين الولايتين أن ولاية العبد لله تعالى عن ذل وافتقار، وأما ولاية الله تعالى للعبد فعن عز واستغناء، قال تعالى :**﴿وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولىمن الذل وكبره تكبيرا﴾**(4).

---

1 - سورة الأعراف: ١٩٦.
2 - سورة البقرة: ٢٥٧.
3 - سورة الشورى: ٢٨.
4 - سورة الإسراء : ١١.

وهذه الولاية التى تبدأ مع الإيمان با لله، أو تعم كل مسلم، تُسمى بالولاية العامة، فإذا ارتقى المسلم إلى درجة الإيمان، وكذا التقوى والإحسان، فقد ارتقى إلى الولاية الخاصة، التى ذكرتها الآية الكريمة التى نحن بصددها، ﴿**ألا إن أولياء ا لله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون**﴾.

فقد بينت أن الولاية هى الإيمان والتقوى، وأن الولى بحق هو المؤمن المتقى

وبهذا يستبين لك بوضوح أن الولاية ليست غامضة ولا شاقة، وإنما يستطيع المسلم أن يكون وليا بإيمانه وتقواه لله تعالى.

" درجات الولاية "

هذا، ولكن الولاية على درجات تبدأ مع الإسلام، ثم ترقى مع الإيمان، ثم تعلو مع التقوى وتصل الى الذروة مع الإحسان .

فالأولياء منهم المسلم فقط الذى يقصر فى بعض الطاعات، ويرتكب بعض المعاصى والسيئات، وهذا هو الظالم لنفسه، فى أدنى درجات الولاية، يدخل فيها، ولا تطلق عليه.

ومنهم المقتصد الذى يؤدى الفرائض -وإن قصَّر فى النوافل، ويترك المحرمات، وإن وقع فى المكروهات، وهو مسلم أيضا لا يوصف بإيمان مطلق، وكذا لا يطلق عليه اسم ولى.

ومنهم المؤمن الذى يؤدى الفرائض ومعها النوافل، ويترك المحرمات، وكذا المكروهات فهذا مؤمن ولى، يطلق عليه اسم ولى، كما يطلق عليه اسم مؤمن.

ومنهم التقى المحسن، الذى يؤدى الفرائض ومعها النوافل، ويلتزم بالورع، ويترك المحرمات وكذلك المكروهات، ويبتعد عن المتشابهات، ويحول العادات إلى عبادات، ويجعل المباحات طاعات، وهذا الصنف هم السابقون بالخيرات وهذا هو الذى قاله ا لله تعالى **﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن ا لله ذلك هو الفضل الكبير.جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير. وقالوا الحمد لله**

الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور. الذى أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب﴾(١).

فالآية الكريمة بينت أن الله تعالى أورث كتابه من اصطفى من عباده، والله تعالى يصطفى رسلا، كما قال ﴿**الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس﴾**(٢).

وكذلك يجتبى أولياء كما قال ﴿**الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب﴾**(٣)

ولذلك طريق النبوة لا يكون إلا اصطفاء، فلا يكون اكتسابا.

وأما الولاية فلها طريقان: الاجتباء ويكون منحة، والإنابة وتكون اكتسابا.

هؤلاء المصطفون من العباد درجات: أعلاهم درجة الأنبياء والرسل ﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده﴾**(٤)، والأنبياء والرسل هم أولياء من باب أولى، فكل نبى ولى وليس كل ولى نبيا، كما أن كل رسول نبى، وليس كل نبى رسولا.

وهذه الدرجة للأنبياء والرسل قد وصلوا فيها القمة فى الهداية، كما أن لهم العصمة التى ليست لغيرهم من الأولياء، فالولى ليس معصوما بخلاف النبى.

١- وهذه الدرجة تعرف بالدرجة العليا.

---

(١) - سورة فاطر : ٣٢ - ٣٥.
(٢) - سورة الحج : ٧٥.
(٣) - سورة الشورى : ١٣.
(٤) - سورة الأنعام : ٩٠.

٢- ودونها الدرجة "العالية" لمن أدى الفرائض والسنن، وابتعد عن الحرام والمكروه، وهذه الدرجة للصديقين والشهداء والصالحين، فهاتان الدرجتان "العليا والعالية" هما اللتان أشارت إليهما الآية ﴿**ومنهم سابق بالخيرات**﴾ وبينتهما الآية الكريمة ﴿**ومن يطع ا لله والرسول فأولئك مع الذين أنعم ا لله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا. ذلك الفضل من ا لله وكفى با لله عليما**﴾[1].

وفي سورة الواقعة بينت الجزاء: ﴿**والسابقون السابقون. أولئك المقربون في جنات النعيم. ثلة من الأولين. وقليل من الآخرين. على سرر موضونة. متكئين عليها متقابلين. يطوف عليهم ولدان مخلدون. بأكواب وأباريق وكأس من معين. لا يصدعون عنها ولا ينزفون. وفاكهة مما يتخيرون. ولحم طير مما يشتهون. وحور عين. كأمثال اللؤلؤ المكنون. جزاء بما كانوا يعملون. لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما. إلا قيلا سلاما سلاما**﴾[2]. فاللهم اجعلنا منهم بفضلك.

٣- ثم الدرجة الوسطى، وهم المقتصدون، أصحاب اليمين، كما وصفتهم سورة الواقعة، وبينت جزاءهم فقالت :﴿**وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود. وطلح منضود. وظل ممدود. وماء مسكوب وفاكهة كثيرة. لا مقطوعة ولا ممنوعة. وفرش مرفوعه. إنا**

١-سورة النساء : ٦٩،٧٠.
٢- سورة الواقعة : ١٠ - ٢٦.

أنشأناهن إنشاء. فجعلناهن أبكارا عربا أترابا. لأصحاب اليمين. ثلة من الأولين. وثلة من الآخرين﴾[١].

٤- ثم الدرجة الدنيا: درجة الظالمى لأنفسهم الذين يقصرون فى الطاعات، ويرتكبون السيئات، وهذا الصنف، ولى أيضا، ولكنه فى أقل درجات الولاية، ولا يحكم عليه بأنه من أصحاب الشمال، بل هو من أهل الجنة، بمشيئة الله تعالى **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾**[٢].

وإما بالشفاعة لقوله ﷺ: " **لكل نبى دعوة مستجابة فتعجل كل نبى دعوته، وإنى قد اختبأت دعوتى لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة -إن شاء الله- من مات من أمتى لا يشرك با لله شيئا**"[٣].

وإما أن يعذب فى النار بذنوبه، ثم يخرج منها بإيمانه، لقوله ﷺ: "**يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من ايمان**" [٤].

ولذلك قالت الآية -بعد ذكر هذه الأصناف- **﴿ذلك الفضل الكبير. جنات عدن يدخلونها ..﴾**، فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فاللهم عاملنا بفضلك وجودك وكرمك، آمين.

---

١ - سورة الواقعة : ٢٧ - ٤٠. ٢ - سورة النساء : ٤٨.
٣ - أخرجه البخارى فى التوحيد (٧٤٧٤)، ومسلم فى الإيمان (١٩٨).
٤ - سبق تخريجه.

" شـرط الـولاية "

هذا وبعد أن عرفنا معنى الولاية وأقسامها، ودرجاتها، نذكر شرطها فالولاية لها شرط وهو الموافقة أى المتابعة لما جاء عن رسول الله ﷺ.

ولذلك قال تعالى :﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم**﴾[1].

وقال -ﷺ-: "من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الايمان" [2].

وفى الحديث القدسى " **من عادى لى وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب عبدى بشئ أحب إلىّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى عليها، ولئن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه وما ترددت فى شئ أنا فاعله ترددى فى قبض نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه**"[3].

ومعناه أن العبد لما وافق الله تعالى فى محابه ومساخطه، وفى كل شئ،

---

[1] - سورة آل عمران: ٣١.

[2] - أخرجه أبو داود فى السنة (٤٦٨١)، والطبرانى فى الكبير (٧٦١٣)، والبغوى فى شرح السنة (٣٩/١)، وأحمد (٤٣٨/٣)، وصححه الشيخ الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٣٨٠).

[3] - أخرجه البخارى فى الرقاق (٦٥٠٢).

وفقه الله تعالى فيما يأتى وفيما يذر وفيما يسمع وفيما يبصر وفى كل شيء، فهذا عن الموافقة، التى يكون معها التوفيق. **"وما توفيقى إلا با لله عليه توكلت وإليه أنيب"** (١)

إذن الولاية أساسها : الإيمان والتقوى.

وشرطها : الموافقة

وأقسامها : عامة وخاصة.

ودرجاتها : عليا، وعالية، ووسطى، ودنيا. كما سبق تفصيل ذلك.

ولذلك فالإنسان منا الآن فى درجة من درجات الولاية، والسعيد من جاهد نفسه، فارتقى من درجة الظالم لنفسه إلى درجة المقتصد، أو فى درجة المقتصد فارتقى إلى درجة السابق بالخيرات.

لا أنَّ الولاية إنتهت بأصحاب الأضرحة، كما زعم الصوفية، أو ختمت بالتيجانى أو الشعرانى !!، أو أن الأولياء هم الصوفية فقط أو مشايخ الطرق أو أصحاب الأضرحة، وبقية الناس أعداء لله تعالى، لأنه من لم يكن وليا لله، فهو عدو له، فانظر ماذا تكون؟

هذا ومن كرامة الله تعالى للولى -بخلاف ما ذكر فى الحديث القدسى السابق- أنه لا خوف على ما يأتون إليه، ولا حزن على ما يتركون **﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ... لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة﴾**.

---

١ - سورة هود : ٨٨

وقال تعالى: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون. نحن أولياءكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون نزلا من غفور رحيم**﴾[١].

وكذلك ﴿**يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة**﴾[٢].

وأيضا ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا. ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره**﴾(٣).

ومن إكرام الله للولى هدايته إلى الايمان، وتوفيقه إلى الطاعة بفعل المأمورات وترك المنهيات، فهذه الاستقامة على الايمان والطاعة من أعظم الكرامات الموصلة إلى دخول جنات عرضها الأرض والسموات، ولما استقاموا على أمر ربهم واستجابوا له استجاب لهم فيما يسألونه ويطلبونه، فلو سألوه زوال جبل لزال، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل، وشفاء العليل، وكإكساب المعدوم، والانقاذ من الهلاك المحتوم، أو خوض البحار وعدم الاحتراق بالنار، ونحو ذلك[٤].

فاللهم إنا نسألك من عميم فضلك، وواسع جودك وكرمك.

١- سورة فصلت : ٣٠ : ٣٣ . ٢- سورة إبراهيم : ٢٧ .

٣- سورة الطلاق : ٣،٢ .

٤- راجع : الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان لابن تيميه .

"هل شك الرسول فيما أنزل إليه ؟ "

(٢) قوله تعالى: ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ...﴾[1].

زعم قوم من النصارى أو المنصرين أن هذه الآية تدل على أن الإسلام ليس حقا، أو أن النبي-ﷺ- شك فيما أنزل إليه، أو قالوا: هل كان نبيكم يشك فيما أنزل إليه؟

والجواب على ذلك سهل وميسور: ذلك أن السائل لم يفرق بين (إن) الشرطية، وبين (إذا) الشرطية، ذلك لأن (إن) لاتفيد تحقق الوقوع، وإنما تفيد احتمال الوقوع، وافتراض الوقوع.

يعني: على افتراض أنك شككت -ولن تشك - فسئل الذين يقرءون الكتاب من قبلك من العلماء، الذين قرأوا صفاتك، وعلموا الحق الذى أنت عليه، وصدقوا بذلك، أمثال "عبد الله بن سلام" ونحوه،

ولذلك قال تعالى: **﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لايهدى القوم الظالمين﴾**[2].

---

١ - سورة يونس : ٩٤.
٢ - سورة الأحقاق : ١٠.

وأما (إذا) فإنها تفيد تحقيق الوقوع، و(إن) تفيد الاحتمال أو الافـتراض، من باب قوله تعالى: ﴿**قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين**﴾[١].

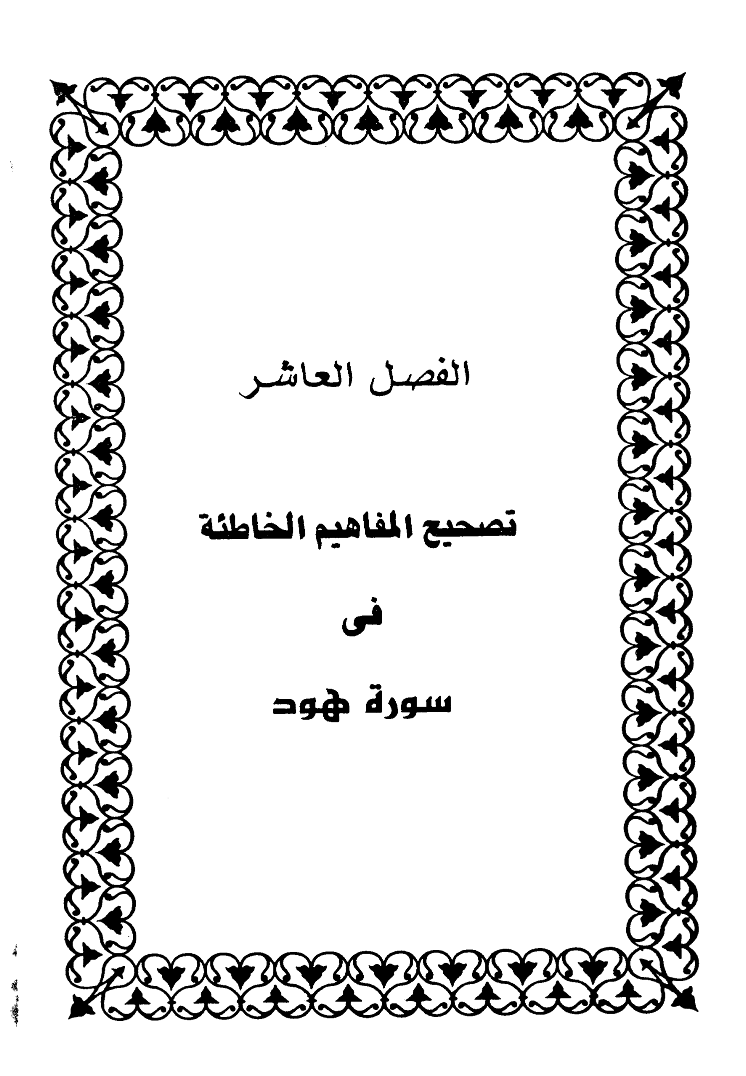
ولن يكون للرحمن ولد، وإنما هو من باب الافتراض، والآية هنا صدرت "بإن" التى هى للافتراض وليست "إذا" التى هى لتحقيق الوقـوع، والفـارق بينهما واضح.

هذا، ثم يقال للسائل: لماذا لم تكمل الآية؟ كمن قرأ ﴿**فويل للمصلين**﴾ ثم سكت، فحكم على المصلين بالويل، أو قرأ ﴿**لا تقربـوا الصـلاة**﴾ فمنـع فريضة الله !، وفى آخر الآية قوله تعالى: ﴿**لقد جاءك الحق مـن ربـك فـلا تكونن من الممترين**﴾[٢].

وقـد ورد أن النبى ﷺ قـال - لـمـا نـزلـت الآيـة -: "**والله لا أشك ولا أسأل**"[٣].

---

[١] - سورة الزخرف : ٨١.
[٢] - سورة يونس : ٩٤.
[٣] - أخرجه عبد الرزاق فى مصنفه (١٠٢١١)، والطبرى فى التفسير (١٠٨/١١)، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (٥٧١/٣).



الفصل العاشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة هود

الفصل العاشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى "سورة هود"

"هـل تفنـى الجنـة والنـار؟"

(١)قال تعالى ﴿**يوم يأت لا تكلم نفس إلا باذنه فمنهم شقى وسعيد. فأما الذين شقوا ففى النار هم فيها زفير وشهيق خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ**﴾[١].

الفهم الخاطئ للآيات يتمثل فى قول أناس: بفناء الجنة والنار، وعدم خلودهما، أو خلود أهلهما،!!

وذلك لأن الآيات قالت: "**مادامت السموات والأرض**" ولن يدوما لقول الله تعالى :﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات**﴾[٢].

ولأن الله تعالى قال ﴿**إلا ما شاء ربك**﴾ فى الآيتين، فهذا استثناء، لا يصح مع الخلود !!

ونسارع بالرد فنقول: إن الجنة والنار خالدتان وباقيتان ببقاء الله تعالى.

وكل ما ورد فى القرآن والسنة يدل على ذلك. كما يدل على خلود

---

١ - سورة هود : ١٠٥ - ١٠٨.
٢ - سورة ابراهيم : ٤٨.

أهلهما فيها أبدا، فأهل الجنة خالدون فيها أبدا، كما دل على ذلك القرآن، وأهل النار -باستثناء عصاة المؤمنين الذين يخرجون من النار بما بقى معهم من إيمان، كما دلت على ذلك السنة الصحيحة- هم كذلك خالدون فيها أبدا، وأما ما جاء في الآيتين هنا بتعليق الخلود على دوام السموات والأرض، والمشيئة كذلك، فهذا يحتاج إلى فهم صحيح، فإن قوله تعالى **﴿مادامت السموات والأرض﴾** فمعناه ليست هذه السموات، ولا تلك الأرض، وإلا فإنهما سيفنيان قبل يوم القيامة، يوم تنفطر السموات، وتزلزل الأرض، وكذلك كما قال تعالى **﴿يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين﴾**[١].

وأيضا **﴿وما قدروا الله حق قدره.والأرض جميعا قضبته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون﴾**[٢].

فليس المعنى إذاً هو هذه السموات والأرض التى نعهدها فى الدنيا، بل هناك سموات غير السموات وأرض غير الأرض، كما قال تعالى **﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار﴾**[٣].وهذه السموات والأرض تبقى وتدوم، ثم قول ربنا عز وجل **﴿ما دامت السموات والأرض﴾** هو تعبير قرآنى، يناسب لغة العرب، الذين كانوا

---

[١] - سورة الأنبياء : ١٠٤.
[٢] - سورة الزمر : ٦٧.
[٣] - سورة ابراهيم : ٤٨.

يعبرون عن ديمومة الشئ بدوام السموات فخاطبهم القرآن بلغتهم، وكذلك هو بمعنى مادمت السموات سماوات، والأرض أرضا.

كما قيل: لكل جنة سماء وأرض، فهى دائمة بدوام سمائها وأرضها.

وأما قوله تعالى﴿**إلا ما شاء ربك**﴾ فكل شئ يقع فى الكون إنما هو بمحض مشيئته وإرادته ﴿**لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون**﴾[1]، ولا يجبر على شئ، سبحانه وتعالى.

ولذلك قوله تعالى ﴿**فأما الذين شقوا ففى النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد**﴾ فهو على وجهه، لأن مشيئة الله تعالى اقتضت ألا يخلد فى النار من مات على التوحيد، فهم المستثنون من الخلود فى النار، وهذا واضح.

وأما قوله تعالى ﴿**وأما الذين سعدوا ففى الجنة خالدين فيها مادامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك**﴾، أى خلود أهل الجنة فى الجنة بمشيئته تعالى، لا بإجبار ولا إرغام، ولا بقهر أو إلزام. وإنما هى مشيئة الملك العلام. اقتضت خلودهم فى الجنة بلا انقطاع أو انتهاء، ولذلك قال﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾ غير مقطوع ولا منتهى، فدلت تلك الصيغة على تأكيد الخلود فى الجنة ، والله أعلم .

---

[1] - سورة الأنبياء : ٢٣.

" سنة الله في الاختلاف بين الناس "

(٢) قال تعالى **﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين. إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾**[1].

والفهم الخاطىء في الآية في قوله سبحانه **﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾** فظن قوم أن الاختلاف بين الناس، وبين المسلمين أمر حتمي لابد منه، وسنة من سنن الله في خلقه، لا تجد لها تبديلا أو تحويلا، ولذلك فدعوة الناس إلى التوحيد والوحدة، والاعتصام والألفة، إنما هو ضرب من العبث، ومحصلته لا شيء .

ولذلك إذا نظر بعض المسلمين إلى الخلافات القائمة بينهم -والتي هي من جنس الخلاف المذموم- راح يفسر هذه الاختلافات بتلك الآية، فيرضى بالواقع، ولا يعمل على التغيير.

وهو في ذلك يضرب بالآيات والأحاديث التي دعت إلى الوحدة والاعتصام والألفة والجماعة والبعد عن الخلاف والفرقة، عرض الحائط.

أقول: ولو كان الأمر على نحو ما ذهبوا إليه، لما كان هناك وجه للآيات والأحاديث التي تدعو إلى الاعتصام والوحدة، ونبذ الانقسام والفرقة، وما أكثر ذلك في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

---

[1] - سورة هود: ١١٨ - ١١٩.

ومنه قول الله تعالى ﴿**واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا**﴾[١]، وكذلك ﴿**ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم**﴾[٢]، وأيضاً: ﴿**وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون**﴾[٣]. وقوله سبحانه ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء إنما أمرهم إلى الله**﴾[٤]، ونحو ذلك من آيات، وفي السنة يقول النبي محمد ﷺ: "**مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر**"[٥]. وقوله ﷺ: "**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا، وشبك أصابعه**"[٦].وكذلك قوله ﷺ: "**عليكم بالجماعة، فإن يد الله مع الجماعة إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية، ومن شذ شذ في النار**"[٧]. وغير ذلك من الأحاديث.

وأما هذه الآية الكريمة -التي نحن بصددها- فإنها ليست على نحو ما

---

١ – سورة آل عمران: ١٠٣.

٢– سورة الأنفال /٤٦

٢ – سورة الأنعام: ١٥٣.

٤ – سورة الأنعام: ١٥٩.

٥ – أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٥٨٦)، وأحمد (٤/٢٧٠).

٦ – أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٦)، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٥).

٧ – أخرجه الطبراني في الكبير (١٣٦٢٣) مختصرا، وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥/٢٢١) وقال: "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما ثقات رجال الصحيح خلا مرزوق مولى آل طلحة وهو ثقة"، والحاكم في المستدرك (١/١١٥)، وابن أبي عاصم في السنة(١/٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في صحيحه الجامع الصغير (٨٠٦٥) بلفظ " يد الله على الجماعة".

ذهبوا إليه، أو زعموه، وإنما هى بيان لسنة الله عزوجل فى الاختلاف بين الناس فى مللهم ونحلهم وأديانهم ومعتقداتهم، ومذاهبهم وآرائهم، وكذا الاختلاف فى الهدى، وفى الرزق، وهو اختلاف فى اللغات والألوان، فهذا كله من جنس الاختلاف القائم بين الخلائق، ولا سبيل إلى رفعه أو منعه، لأنه من سنن الله الثابته، ولا يعنى به أبدا أن يقع الخلاف بين المسلمين، أو التخاصم بين المؤمنين، على نحو ما احتج به رجلان، على "طاوس" إختصما إليه فأكثرا فقال طاوس: اختلفتما وأكثرتما، فقال أحد الرجلين: لذلك خلقنا، فقال طاوس: كذبت، فقال: أليس الله يقول ﴿**ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم**﴾؟ قال: لم يخلقهم ليختلفوا، ولكن خلقهم للجماعة والرحمة.

كما قال ابن عباس ﷺ: للرحمة خلقهم، ولم يخلقهم للعذاب، وكذا قال مجاهد والضحاك وقتادة وجاء فى تفسيرها: الناس مختلفون على أديان شتى، إلا من رحم ربك فهو غير مختلف، وقوله ﴿**ولذلك خلقهم**﴾ أى خلق هؤلاء لجنته وخلق هؤلاء لناره وعذابه، قاله حسن البصرى.

وجاء أيضاً أنه ﴿**ولا يزالون مختلفين**﴾ يعنى اليهود والنصارى والمجوس ﴿**إلا من رحم ربك**﴾يعنى الحنيفية، وقال قتادة: أهل رحمة الله أهل الجماعة، وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فرقة وإن

اجتمعت ديارهم وأبدانهم. وقول ربنا ﴿**ولذلك خلقهم**﴾ قيل المراد هو للرحمة وليس للاختلاف.

ومن قال: للاختلاف خلقهم، فإنه عنى بذلك أهل الإيمان والكفران، وفريق فى الجنة، وفريق فى السعير، ولذلك قال بعدها ﴿**وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين**﴾ فأخبر سبحانه وتعالى أنه قد سبق فى قضائه وقدره -لعلمه التام وحكمته النافذة- أن ممن خلقه من يستحق الجنة، ومنهم من يستحق النار، وأنه لابد أن يملأ من هذين الثقلين -الجن والإنس- وله الحجة البالغة والحكمة التامة.

وفى الصحيحين، عن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ "إختصمت الجنة والنار، فقالت الجنة: مالى لا يدخلنى إلا ضعفاء الناس وسقطهم، وقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين، فقال الله -عزوجل- للجنة: أنت رحمتى أرحم بك من أشاء، وقال للنار: أنت عذابى أنتقم بك ممن أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها، فأما الجنة فلا يزال فيها فضل حتى ينشىء الله لها خلقا يسكن فضل الجنة، وأما النار فلا تزال تقول: هل من مزيد حتى يضع رب العزة قدمه، فتقول: قط قط وعزتك"[١].

هذا وقضية الاختلاف والفرقة، وبيان ما يجوز فيه الاختلاف وما لا يجوز، وما هو من جنس المحمود، وما هو من جنس المذموم، وما يرتبط

---

[١] - أنظر تفسير ابن كثير جـ٢ صـ٤٦٥ بتصرف.

بالعقائد والأصول الذى يختلف عما هو فى الشرائع والفروع.

ومعرفة الكليات والجزئيات، وما هو ثابت ومتغير، وما هو جامد ومرن، فهذه القضية لها تفصيل فى مجال آخر إن شاء الله تعالى.

وهل يمكن الاعتراض على المختلفين فى المسائل الاجتهادية بهذه الآية، والقول بأن الآية تنطبق عليهم! ومن ثم الإنكار عليهم، يجيب الإمام الشاطبى قائلا: لا يصح أن يدخل تحت مقتضاها أهل هذا الاختلاف من أوجه:

أحدها: أن الآية اقتضت أن اهل الاختلاف المذكورين مباينون لأهل الرحمة لقوله تعالى **﴿إلا من رحم ربك﴾**، فإنها اقتضت قسمين: أهل الاختلاف، والمرحومين، فظاهر التقسيم أن أهل الرحمة ليسوا من أهل الاختلاف، وإلا كان قسم الشيء قسيما له، و لم يستقم معنى الاستثناء.

والثانى: أنه قال فيها **﴿ولا يزالون مختلفين﴾**، فظاهر هذا أن وصف الاختلاف لازم لهم حتى أطلق عليهم لفظ اسم الفاعل المشعر بالثبوت، وأهل الرحمة مبرؤون من ذلك، لأن وصف الرحمة ينافى الثبوت على المخالفة، بل إن خالف أحدهم فى مسألة فإنما يخالف فيها تحريا لقصد الشارع فيها، حتى إذا تبين له الخطأ فيها راجع نفسه وتلافى أمره، فلم يكن وصف الاختلاف لازماً ولا ثابتاً عليهم.

والثالث: أنا نقطع بأن الخلاف فى مسائل الاجتهاد واقع ممن حصل له محض الرحمة، وهم الصحابة ومن اتبعهم بإحسان رضى الله عنهم، بحيث لا

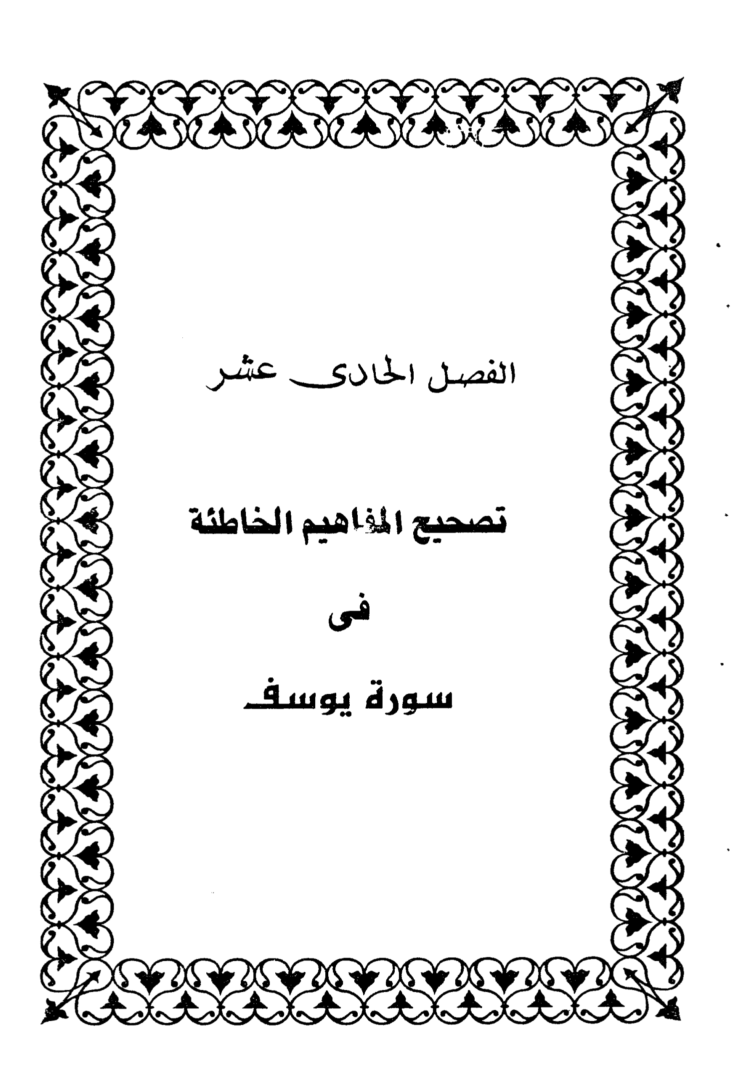
يصح إدخالهم فى قسم المختلفين بوجه، فلو كان المخالف منهم فى بعض المسائل معدوداً من أهل الاختلاف المذكورين -ولو بوجه ما- لم يصح إطلاق القول فى حقه: إنه من أهل الرحمة، وذلك باطل بإجماع أهل السنة.

والرابع: أن جماعة من السلف الصالح جعلوا اختلاف **الأمة** فى الفروع ضرباً من ضروب الرحمة، وإذا كان من جملة الرحمة، فلا يمكن أن يكون صاحبه خارجا من قسم أهل الرحمة.

ثم يقول: وبيان كون الاختلاف المذكور رحمة، ما روى عن القاسم بن محمد قال: "لقد نفع الله باختلاف أصحاب رسول الله ﷺ فى العمل، لا يعمل العامل بعمل رجل منهم إلا رأى أنه فى سعة"[1].

---

[1] - الاعتصام للإمام الشاطبى جـ٢صـ٣٩٤.



الفصل الحادى عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة يوسف

الفصل الحادى عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى "سورة يوسف"

" عصمة الأنبياء "

(١) قال تعالى ﴿**ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين**﴾[1].

والفهم الخاطىء لهذه الآية الكريمة يتضح لك من إلحاح الشباب على معرفة هذه الآية، وكثرة السوال عنها، وذلك لأن الآية الكريمة فيها ذكر وأنثى، وفيها إيحاءات جنسية، شاب فى غاية الجمال والقوة، وامرأة ذات منصب وجمال، قد تهيأت لعبدها الذى تأمره فما يملك إلا السمع والطاعة، وقد هيأت المكان أيضاً فغلقت الأبواب، وأرخت الستور، وأخلت المكان من الخدم والحشم، وقد غاب رجل البيت، وصارت كل الأمور مهيأة لارتكاب الفاحشة، ﴿**ولقد همت به وهم بها**﴾ فالشباب عندما يتخيل هذه الأمور يرى أنه سيشاهد مشهدا من فيلم، أو جزءا من مسلسل وهذا بعض إيحاءات البيئة، يساعد على ذلك كثرة الإسرائيليات فى تفسير تلك الآية التى ملئت بها كتب التفاسير، فهو يقرأ قوله تعالى: ﴿**ولقد همت به**﴾ تريد الفاحشة، ﴿**وهم بها**﴾ كما يهم الرجل بزوجة يريد جماعها، وهنا يريد الزنا، ويقال: إنه كان منها كما يكون الرجل من زوجته، وقد حل

١- سورة يوسف: ٢٤.

سروالـه، وخلـع ثيـابه، ﴿**ولـولا أن رأى برهـان ربـه**﴾ أى رأى الملـك "جبريل" يقول له: يا يوسف مكتوب فى سجل أو ديوان الأنبياء، وتفعل فعل السفهاء!!

أو رأى صورة أبيه "يعقوب" عاضا على أصبعه، يحذره من صنيعه هذا، أو أنه ضربه حتى أفرغ شهوته!!

أو رأى مكتوباً على الجدار ﴿ **لا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا**﴾[1]، وكذا ﴿**وإن عليكم لحافظين . كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون**﴾[2] وكذا قوله ﴿**ما تكون فى شأن**﴾[3]، أو ﴿**أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت..**﴾[4]، أو أحس بمجيء سيده وهو "العزيز" فأسرع نحو الباب!!

فما أعجب هذه الإسرائيليات، أو تلك التناقضات.

وأكبر الخطأ وأبلغه أنك تتخيل يوسف عليه السلام كأنه ممثل أو فنان!!.

أو أنه إنسان عادى، أو تتخيل نفسك مكان "يوسف عليه السلام" فى مثل هذا الجو، أو تلك الظروف!! ونسى أنك أمام نبى معصوم، ورسول كريم من سلالة أنبياء تجمعت فيهم كل خصال الكرم، كما سئل ﷺ عن

١- سورة الإسراء: ٣٢.
٢- سورة الانفطار: ١٠ - ١٢.
٣- سورة يونس: ٦١.
٤- سورة الرعد: ٣٣.

أكرم الناس فقال: "الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، نبى الله يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم" عليهم الصلاة وأزكى التسليم.

كيف ننفى العصمة عن الأنبياء، وقد اتفقت كلمة علماء الأمة على أن الأنبياء معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها، ومن الصغائر أيضاً بعد النبوة،

وهذه كبيرة من الكبائر، فضلاً عما فيها من إخلال بالشرف والمروءة، وكيف يليق بمسلم أن يفكر مثل هذا التفكير فى حق نبى من الأنبياء؟ إن هذا ليدل على نقص فى الدين، ثم إنه ماذكر فى هذا الشأن إنما هو من الإسرائليات التى لا يجوز للمسلم أن يصدقها إذا صادمت النصوص، وخالفت قواعد الدين.

وهذه الإسرائليات من هذا النوع، وكيف لا؟ وقد أدت إلى اتهام نبى كريم!!

إن أمر الزنا مستبعد تماماً من القصة، كما أنه مستحيل على الأنبياء.

ولم نذهب بعيداً، والقصة كلها تدل على عكس ما ذكرته الإسرائليات، فقول ربنا عز وجل ﴿**ولقد همت بـه وهـم بهـا لـولا أن رأى برهـان**﴾ لا يخرج فى تفسيره ومعناه عن الآتى:

١- ﴿**ولقد همت به**﴾ تريد الفاحشة ﴿**وهم بها**﴾ يفر منها، لما أحس بمجيء العزيز يجد معه منقذا.

٢- لما راودته امرأة العزيز وتهيأت له، وطلبته للفاحشة، فتأبى وامتنع.

وقال: "معاذ الله"، اغتاظت منه، وهى سيدته، صاحبة السلطان، وسيدة القصر الأولى، وهو لا يعدو إلا أن يكون "عبداً" لا يملك إلا السمع والطاعة، ولذلك **"همت به"** تضربه، فهَّم بها يضربها، ثم رأى عدم ضربها أولى، إحتراماً منه لسيده الذى أحسن مثواه وأكرم معيشته.

٣- قوله تعالى: ﴿**وهَمَّ بها**﴾ الهم أحد مراحل الفعل، فكل فعل له خطوات، يبدأ بالهم أو الخاطر أو حديث النفس ثم الإرادة، ثم العزيمة، ثم الفعل.

فإذا كان وقع"هَمٌ" من يوسف عليه السلام، فهو لا يعدو إلا أن يكون خاطرا، أو حديث نفس فى ظل جو مهيأ مع الإلحاح والطلب ونحو ذلك، ولكنه سرعان ما عاد يذكر الله عز وجل، ويقول: "معاذ الله"، ﴿**إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**﴾[1].

ومثل هذا منطبق عليه حديث النبى ﷺ فيما يرويه عن رب العزة جل وعلا: "يقول الله تعالى: **إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة فإن فعلها فاكتبوها له بعشر أمثالها، وإن هم بسيئة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإنما تركها من أجلى، فإن عملها فاكتبوها بمثلها**"[2]، وليس الهم كالعزم، وليس العزم كالفعل.

فعلى افتراض أنه وقع "هم" من يوسف، فهو حسنة فى حقه، لأنه ترك

١- سورة الأعراف: ٢٠١.
٢- أخرجه البخارى فى الرقاق (٦٤٩١)، ومسلم فى الإيمان (١٢٨).

تلك المعصية من أجل الله، ولكن يوسف لم يقع منه هم كما يفسر هـذا المعنى اللغوى الآتى.

٤- قوله تعالى ﴿**وهم بها لولا أن رأى برهان ربه**﴾ لـولا -فـى اللغـة- حرف امتناع لوجود، فبوجود برهان ربه، امتنع منه الهم، أو أن فـى الكـلام تقديما وتأخـيرا: أى ولقـد همـت بـه، ولـولا أن رأى برهـان ربـه لهـم بهـا، كقولك: قد كنت هلكت لولا أن تداركته.

وهو كقوله تعالى: ﴿**وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن** كادت **لتبـدى بـه لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين**﴾[1]، أى فلما ربطنا على قلبها لم تبدِ به.

وكقولك: وددت زيارتك لولا حضـورك، فبحضـورك امتنعـت زيـارتى لك، وهكذا.

وما هو برهان ربه الذى رآه، فمنعه من الوقوع فى الفاحشة؟

ليس كما زعمت الإسرائيليات برؤية جبريل أو يعقوب، أو آيات قرأهـا، أو غير ذلك!! وإنما هـى الفطرة المغروسـة فيـه، والعصمـة التى جعلهـا الله للأنبياء، وبرهان الطاعة والأخلاق صرفه عما كان فيه، كذلك نقيـه السـوء والفحشاء فى جميع أموره ﴿**إنه من عبادنا المخلصين**﴾ أى المجتبين المطهرين المختارين المصطفين الأخيار صلوات الله وسلامه عليه.

١- سورة القصص: ١٠.

وإذا كان هذا فى تفسير تلك الآية، فإن بقية القصة كلها تدل على براءة يوسف عليه السلام، وهذه السورة الكريمة وقد ذكرت ثمانية براءات ليوسف عليه السلام:

أولاً: يوسف عليه السلام -الطرف الأول فى القضية- قال: **﴿معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون﴾**(١)، كما قال: **﴿هى راودتنى عن نفسى﴾**(٢).

ثانياً: امرأة العزيز -صاحبة القضية- شهدت على نفسها أمام جمع من النساء **﴿قالت فذالكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكوناً من الصاغرين﴾**(٣).

وكذا شهدت أمام الملك فقالت: **﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين. ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين.وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم﴾**(٤).

ثالثاً: شهادة الشاهد من أهل امرأة العزيز: **﴿وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين. وإن كان قميصة قد**

١- سورة يوسف: ٢٣.
٢- سورة يوسف: ٢٦.
٣- سورة يوسف: ٣٢.
٤- سورة يوسف: ٥١ - ٥٣.

من دبر فكذبت وهو من الصادقين. فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم﴾(١).

رابعاً: شهادة العزيز نفسه، إذ قال: ﴿يوسف أعرض عن هذا واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾(٢).

خامساً: شهادة الملأ من نسوة المدينة ﴿وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين﴾(٣).

وكذلك شهدن أمام الملك فى ساحة القضاء ﴿قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاشا لله ما علمنا عليه من سوء﴾(٤).

سادساً: شهادة الملك -لما رأى تلك البراءات كلها- ﴿وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين. قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم﴾(٥).

سابعاً: شهادة من إبليس ببراءة يوسف عليه السلام، إذ أقسم بعزة الله عز وجل فقال: ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين.إلا عبادك منهم المخلصين﴾(٦). ويوسف عليه السلام من المخلصين، بشهادة رب العالمين،

١- سورة يوسف: ٢٦ - ٢٨.
٢- سورة يوسف: ٢٩.
٣- سورة يوسف: ٣٠.
٤- سورة يوسف: ٥١.
٥- سورة يوسف: ٥٤ - ٥٥.
٦- سورة ص: ٨٢ - ٨٣.

ولذلك نأتى إلى حسن الختام.

ثامناً: شهادة رب الأنام والملك العلام، ببراءة يوسف عليه السلام، إذ قال الله تعالى ﴿**كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين**﴾[١]. وفارق بين قوله ﴿**لنصرف عنه السوء**﴾ فهو لا يقترب منه البتة، وبين: لنصرفه عن السوء والفحشاء..

وكذلك قال الله تعالى: ﴿**قال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين. فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم. ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين**﴾[٢].

ولما قدر ليوسف عليه السلام أن يدخل السجن ظلما قال له صاحباه فى السجن ﴿**إنا نراك من المحسنين**﴾[٣].

فماذا بعد هذه البراءات كلها، والشهادات بأسرها، من يستطيع أن يتهم يوسف عليه السلام؟

وعليه أن يختار، إذا كان من حزب الله ، فإن حزب الله قد برأه، وإن كان من حزب الشيطان، فإن الشيطان قد شهد له بالبراءة، فماذا بعد ذلك؟!! فلا مفر من الإقرار بالحق على أى حال وهو براءة يوسف عليه السلام.

١- سورة يوسف: ٢٤.
٢- سورة يوسف: ٣٣ - ٣٥.
٣- سورة يوسف: ٣٦.

" من الذى نسى؟ "

(٢) قال تعالى: ﴿وقال الذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين﴾[١].

زعم قوم أن الضمير فى قوله تعالى ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ عائد على يوسف عليه السلام، وأنه قد نسى فى ظل المحنة التوكل على الله والاعتماد عليه، فلجأ إلى بشر يطلب منه حل مشكلته، فجازاه الله بتلك الكلمة وأدبه بطول لبثه فى السجن، حيث ابتغى الزج من عند غير الله !!.

وهذا غير صحيح، فيوسف عليه السلام لم ينس ذكر ربه، وليس للشيطان عليه من سبيل -كما هو معلوم- وإن هذه المحنة لم تهز يقين يوسف عليه السلام و لم تؤثر على إيمانه .

ويوسف عليه السلام بقوله لصاحب السجن "الساقى" الذى اعتقد نجاته ﴿اذكرنى عند ربك﴾ أى اذكر قصتى عند الملك، فإنما هو بذلك يأخذ بالأسباب المشروعة، والتى لا تؤثر على التوكل على الله تعالى، بل هى من جنس التوكل، وبترك الأسباب يكون ذلك من التواكل ويكون صاحبه متكلا، لا متوكلا، والضمير فى قوله تعالى ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ يعود على ذلك الموصى الذى نسى أن يذكره لمولاه الملك بذلك، وكان ذلك من جملة مكايد الشيطان، لئلا يطلع نبى الله من السجن، فهذا هو الصحيح الذى لم يصح غيره، لا مرفوعاً ولا موقوفاً ولا مقطوعاً.

١- سورة يوسف: ٤٢.

" إعتراف إمرأة العزيز "

(٣) قوله تعالى: ﴿وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم﴾[1].

زعم قوم أن هذا من كلام "يوسف عليه السلام" وصاغوا الحكاية كالآتى: الملك يسأل النسوة وامرأة العزيز حتى شهدن شهادة الحق، وقالت: **﴿الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾**، فبادر يوسف بقوله: **﴿ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب﴾** أى لم أخن العزيز فى زوجته، وإنما رددت الرسول ليعلم الملك براءتى، وليعلم العزيز أنى لم أخنه فى زوجته بالغيب، قالوا: فنزل جبريل عليه السلام فى ذلك الوقت يقول ليوسف عليه السلام: ولا يوم هممت بما هممت به؟ أو قال: أو ما تذكر إذ حللت السروال؟ فقال: يوسف: **﴿وما أبرىء نفسى..﴾** الآية.

وكأن الحكاية بهذه الصيغة تصلح أن تكون جزءا من مسلسل، أو حلقة من ألف ليلة وليلة!!

وقديما قيل: إن كنت كذوبا فكن ذكورا، فكيف يصح ذلك المشهد الملفق، مع وجود يوسف فى السجن، إذ حضرت النسوة، وشهدن شهادة الحق فى غيبة "يوسف عليه السلام"، وكيف يقول يوسف ذلك أثناء التحقيق، وهو الذى أبى أن يخرج من السجن حتى تظهر براءته كاملة؟!

١- سورة يوسف: ٥٣.

والقول الصحيح والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام، أن هذا من قول امرأة العزيز فيكون كالآتي:

قالت امرأة العزيز: ﴿**الآن حصحص الحق**﴾ تبين وظهر وبرز، بعد كل هذه الشهادات والبراءات، أنا راودته عن نفسه، وإنه لمن الصادقين يوم أن قال: هي راودتنى عن نفسي، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب، أى إن كنت كذبت عليه فى حضرته يوم أن قلت لزوجى: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا..

ولكن اليوم لا أكذب عليه، وإن كان فى غيبته، كما أننى إذ اعترفت بهذا على نفسى ليعلم زوجى أيضاً أنى لم أخنه بالغيب فى نفس الأمر، ولا وقع المحذور الأكبر، وإنما راودت هذا الشاب مراودة فامتنع، فلهذا اعترفت ليعلم أنى بريئة، وأن الله لا يهدى كيد الخائنين، وإذا وقع ما وقع فلضعف منى، وما أبرئ نفسي، فإن النفس تحدث وتتمنى. ولهذا راودته، لأن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم ربى، ومن عصمه الله تعالى، إن ربى غفور رحيم" فهذا هو الصحيح، وفى النهاية لا يصح إلا الصحيح[1].

١ - أنظر: تفسير ابن كثير ج٢ ص٤٨١، بتصرف.

" ما اسم أخي يوسف؟ "

(٤) قال تعالى ﴿فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون﴾(١).

والفهم الخاطئ في هذه الآية هو من المضحكات؟ إذ زعم قوم أن قوله تعالى ﴿**فأرسل معنا أخانا نكتل**﴾ أن "**نكتل**" اسم لأخيهم.

والمعروف أن أخاهم اسمه "**بنيامين**" وليس "نكتل"!!

وإنما نكتل من الكيل، وقرأ بعضهم بالياء "**يكتل**" أي هو يصبح له كيل معنا، وإنا له لحافظون.

١- **سورة يوسف** : ٦٣.

" كيد الله ليوسف "

(د) قوله تعالى ﴿**فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم**﴾(١).

قال قوم: كيف يحق ليوسف أن يتهم أخاه بالسرقة، بتلك الحيلة الماكرة؟ وهل يليق ذلك الصنيع بالأنبياء؟ إن جاز لغيرهم فلا يجوز لهم!! وكيف يدخله فى دين الملك؟!

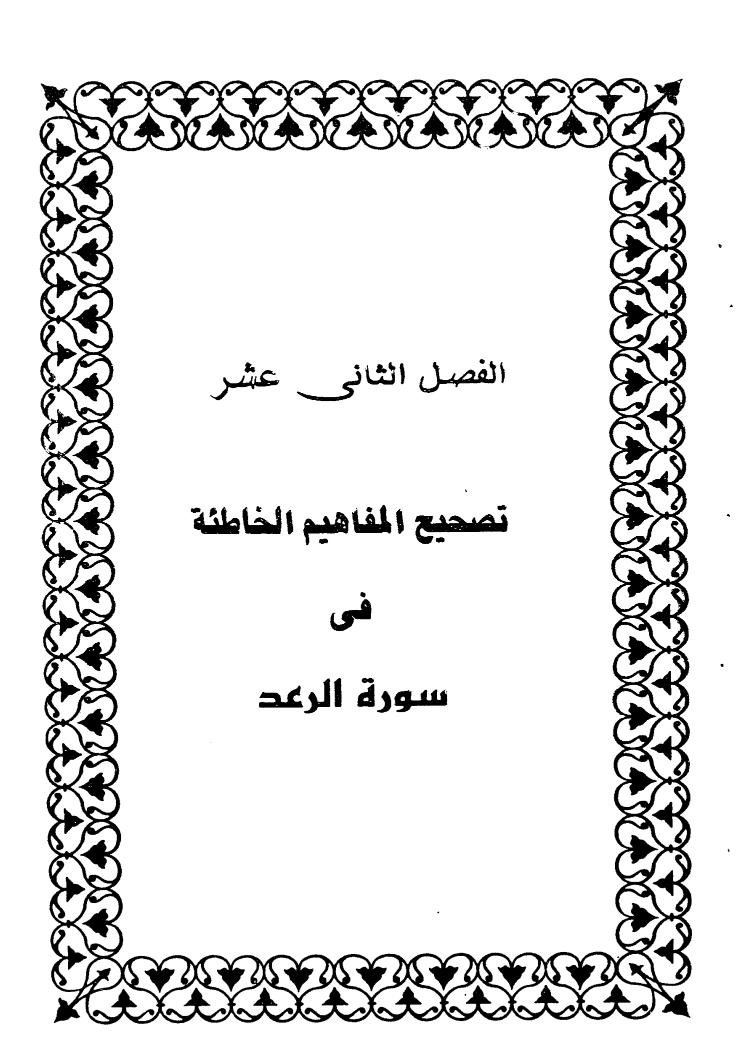
والحق أن هذا الذى تم إنما هو من تدبير الله عز وجل ليوسف عليه السلام، فهذه الحيلة التى تمت، والتى استطاع عن طريقها يوسف أن يأخذ أخاه، فهذا من كيد الله ليوسف، وهو من الكيد المحبوب المراد الذى يحبه الله ويرضاه لما فيه من الحكمة والمصلحة المطلوبة.

وقوله: ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك، أى لم يكن له أخذه فى حكم ملك مصر، فتطلق كلمة الدين ويراد بها المُلْك والحكم، كهذه الآية.

وكقوله تعالى ﴿**ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله**﴾(٢).

أى فى حكم الله.وانما قيض الله له إن التزم له إخوته بما التزموه وهو كان يعلم ذلك من شريعتهم، ولهذا مدحه الله تعالى فقال: ﴿**نرفع درجات من نشاء**﴾ كما قال تعالى ﴿**يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات**﴾(٣). ثم قال: ﴿**وفوق كل ذى علم عليم**﴾ أى ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهى إلى الله عز وجل.

١- سورة يوسف : ٧٦.
٢- سورة النور : ٢.
٣- سورة المجادلة : ١١.



الفصل الثانى عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة الرعد

الفصل الثانى عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى "سورة الرعد"

" هل كل كتاب ينسخ ما قبله ؟ "

(١) قال تعالى:﴿**ولقدأرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله لكل أجل كتاب . يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾[١].

والشاهد هو قوله تعالى:﴿**لكل أجل كتاب يمحو الله مايشاء ويثبت وعنده أم الكتاب**﴾.

والفهم الخاطئ يتمثل فى سؤال الناس: كيف يمحو الله ما يشاء ويثبت؟وكيف يمحو الله ماسطره وقدره؟وهل ماكتب يتغير؟وهل القضاء يتخلف؟وكيف ذلك وقد رفعت الأقلام وطويت الصحف؟

وكذلك يتمثل فى اعتقاد بعض الناس أن القضاء المبرم يتخلف،فيدعو قائلا: اللهم إن كنت كتبتنى عندك شقيا أو محروما أو مطرودا أو مقترا علىَّ فى الرزق،فامح بفضلك شقاوتى وحرمانى وطردى واقتار رزقى،واجلنى عندك سعيدا...

.بما يعرف بدعاء ليلة النصف من شعبان "المبتدع"

١- سورة الرعد:٣٨،٣٩ .

والحق يقال: إن الآية الكريمة ليست مرتبطة بالقضاء والقدر -كما يفهم البعض- وإنما تفسير الآية الكريمة كالآتى: "**لكل أجل كتاب**" إما أنه بمعنى لكل أمة فترة مضروبة ومحددة كتاب سُطر فيه أحوال تلك المدة المحددة،والفترة المعينة "**لكل أجل كتاب**".

وإما بمعنى"**لكل كتاب أجل** "- فيه تقديم وتأخير، أى لكل كتاب نزل من السماء أجل محدد، فى فترة معينة، لأمة مخصوصة، إلى أن يمحو الله هذا الكتاب بانتهاء مهمته، ويأتى الكتاب الذى بعده، وتظل تنسخ الكتب إلى أن يثبت منها ماشاء الله له أن يثبت وهو كلمته الأخيرة لخلقه، ألا وهو القرآن الكريم، فمعناه: لكل كتاب أجل.

وكلا التفسيرين لايتناقض مع الآخر، لكل أجل: كل فترة من الزمان لها كتاب، أو هذا الكتاب له أجل محدد، ثم يمحى أو ينسخ إلى أن يأتى كتاب هو الكتاب الخاتم المصدق لما سبق، والمهيمن على الكتب، فيثبت بإذن الله **﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾**.

ولذلك قال بعض المفسرين فى معناها هو كقوله تعالى: **﴿ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شئ قدير﴾**[1].

١- سورة البقرة /١٠٦

وجاء فى تفسيرها أيضا: أن الله تعالى لـه الارادة والقـدرة فـى أن يمحـو مايشاء، ويثبت مايشاء، وهو سبحانه وتعالى قد يمحـو كـل شئ إلا المـوت والحياة، والشقاوة والسعادة، لأنها أمور مبرمة، وثابتة لاتتغـير، وقضـاء مـبرم فصل الله عز وجل فيه القول قبل أن يخلق الخلق.

وهناك أشياء أخرى ليسـت مـن جنـس القضـاء المـبرم، وإنمـا هـو قضـاء معلق،مرتبط بأسبابه، ومرتهن بشروطه، فهـذا يمكـن أن يمحـى ويدخـل فـى دائرة ﴿**يمحو الله مايشاء**﴾.

كما جاء فى الحديث "إن الرجل ليحرم الرزق بـالذنب يصيبـه، ولايـرد القدر الا الدعاء، ولايزيد فىالعمرإلا البر"[1].

والـزيـادة هنـا بـمعنـى البـركـة، كمـا فـى الحديـث "**إن صلـة الرحـم تـزيـد فـى الـعمـر**"[2].

وفـى الـحـديـث أيضـاً "**إن الـدعــاء والـقضــاء ليعتلجــان بيـــن السـمـاء والأرض**"[3].

٢- أخرجه أحمد (٢٧٧/٥)، وابن حبان فى الموارد (١٠٩٠)، وابن المبارك فى الزهد(٢٩) وابن ماجة فى الفتن(٤٠٢٢)وقال فى الزوائد: إسناده صحيح.
٣- أخرجه ابن عساكر فى التاريخ (٢١٠/٥).
١- أورده : ابـن كثير فـى التفسير (٣٩٠/٤) ، والحـاكـم (٤٩٢/١)، وهـو حـديـث حسـن لـغيـره.

وفى معنى الآية كذلك: لكل انسان كتابان: كتاب تسطر فيه أعمال العبد لِتَوِّها ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾(٢).

فيكتب فيه كل شيء، وَمن الأشياء التى تكتب أنه فعل سيئة، فإذا بملك الحسنات يأمر ملك السيئات أن ينتظر لعله أن يستغفر، فإذا استغفر محيت ولم تكتب حتى وإن كتبت فاستغفر غفر له فمحيت أيضاً، فهو معنى: ﴿يمحو الله ما يشاء..﴾.

وفى نفس المعنى أن الكتاب الذى تسجل فيه الأعمال فيه قول الرجل: هات، وخذ، وأكلت وشربت، وفعلت كذا، وتركت كذا، من جنس الكلام المباح الذى لا ثواب فيه ولا عقاب.

فإذا رفعت الأعمال إلى الله عز وجل فى كل يوم خميس من كل اسبوع، محى كل كلام لا ثواب عليه، ولا عقاب فيه.

قيل : وهذا من معنى ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ أى الكتاب الذى عند الله عز وجل، ولذلك إذا صعدت الملائكة ، بأعمال العبد. فراجعت ما فعل على ما فى أم الكتاب -الذى سطر بعلم الله- وجدت الأمر كما هو مسطر، ما زاد ولا نقص، وهذا من كمال الله عز وجل، وتمام علمه وعظمته سبحانه وتعالى. وقد جاء فى تفسير الآية أيضاً: أن الرجل يعمل بطاعة الله عز وجل زمناً، ثم يضل،

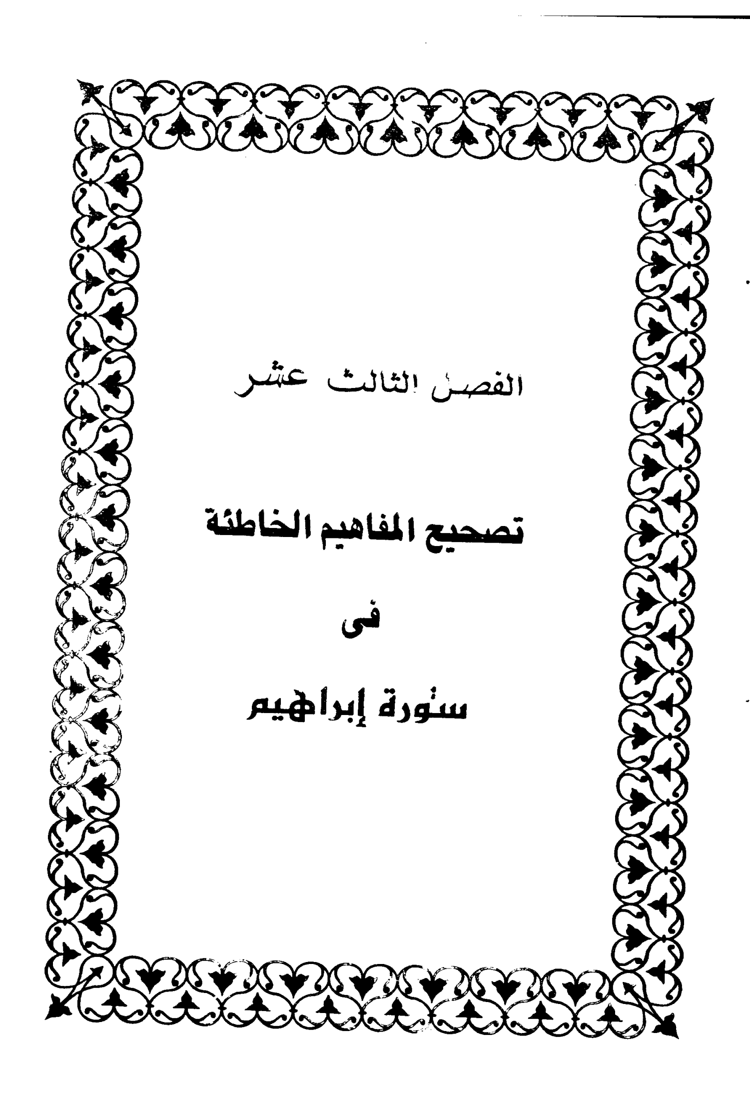
١-سورة ق : ١٨

فيأتيه الموت وهو على حاله هذا، فتضيع أعماله الصالحة، ويمحوها الله عز وجل **﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثورا﴾**(١).

فهذا الذى يمحوه الله، وأما الذى يثبته، فهو الرجل يعمل بمعصية الله عز وجل زمناً، ومعها بعض الطاعات، فهو خلط عملاً صالحاً وآخر سيئا، إلا أن أعماله السيئة أكثر من أعماله الصالحة، ثم تاب، فتاب الله عز وجل عليه، واستقام على أمر ربه ومات وهو فى طاعة ربه، فهذا هو الذى يثبت الله عز وجل له ما عمل صالحاً أيام أن كان يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئا، ويثبت له الأعمال الصالحة بعد أن تاب واستقام.

فهذه المعانى التى وردت فى الآية الكريمة **﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾**، وليست الآية كالمعنى المتبادر إلى الذهن: أن الله يمحو أعمال أناس وأرزاقهم وآجالهم، ويثبتها لآخرين، بلا ضابط ولا رابط، فهذا -والعياذ بالله- سوء أدب مع الله يورث الكفر.

١- سورة الفرقان: ٢٣.



الفصل الثالث عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة إبراهيم

الفصل الثالث عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى "سورة ابراهيم"

" ما معنى الهداية و الاضلال ؟ "

(١) قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيضل ا لله من يشاء ويهدى من يشاء وهو العزيز الحكيم**﴾ [١].

والشاهد ﴿**فيضل ا لله من يشاء ويهدى من يشاء**﴾.

فكثير من الناس يفهم معنى الهداية والضلال خطأ، خاصه إذا ارتبطا بالمشيئة، ولذلك كثيرا ما يسأل الناس عن معنى هذه الآية الكريمة، وما جاء على شاكلتها فى القرآن الكريم لأنه يفهم الآية على ظاهرها فيظن أن ا لله عز وجل أضل أناسا وكتب عليهم الضلال، فهم كذلك ما شاء ا لله، وأن أناسا آخرين كتب لهم الهداية، فهم كذلك ما شاء ا لله.

ولذلك فالمهتدى مهتد بهداية ا لله له. والضال ضال بإضلال ا لله له!!

وإذا نصحته يقول لك : لما يشاء ا لله. أو إذا أراد ا لله!!

فهو بهذا جبرى المذهب، ينفى الأسباب ، ويزعم أن الأنسان مسير وليس مخيرا، وما هو إلا كالريشة فى مهب الريح تسيرها كيف شاءت!!

ويقول : المكتوب على الجبين، لا بد تراه العين ، وربنا كتب علينا ، ونحو هذا.!!

١- سورة ابراهيم:٤.

ونسارع بالرد فنقول: أول ما يجب أن توقن به أن الله عز وجل عدل. وأنه حرم الظلم على نفسه وجعله بين العباد محرما، وإذا كان كذلك فمحال أن يهدى قوما بمشيئته، دون أخذ منهم بأسباب الهداية، ويدخلهم الجنة، ويضل قوما آخرين بمشيئته، دون دخل منهم، ويدخلهم النار.!!

إذا قضية الهداية والضلال مرتبطة بأسبابها، ولن تخرج -في ذات الوقت- عن مشيئة الله تعالى.

﴿لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين﴾[1].

إن الله عز وجل يهدى من أخذ بأسباب الهداية، كما يضل من أخذ بأسباب الضلال، ولذلك نقول: هذه الآيات مطلقة، ولها آيات أخرى مقيدة لها فى القرآن الكريم .

فقوله تعالى: **﴿فيضل الله من يشاء﴾** يفسرها قوله تعالى: **﴿وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون﴾**[2].

وكذلك **﴿ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾**[3]. وأيضا **﴿كذلك يضل الله الكافرين﴾**[4].

١- سورة التكوير: ٢٨-٢٩.
٢- سورة البقرة: ٢٦-٢٧.
٣- سورة إبراهيم: ٢٧.
٤- سورة غافر: ٧٤.

وفى مثل قولـه تعـالى: ﴿**إن الله لا يهـدى القـوم الفاسـقين**﴾[١]، ﴿**إن الله لا يهدى القوم الظالمين**﴾[٢].

وأما قوله تعالى: ﴿**ويهدى من يشاء**﴾، فيفسرها قوله تعـالى: ﴿**ويهـدى إليه من أناب**﴾[٣].

ثم يقال: الله عز وجل خلق الإنسان وأودع فيه بعض خصائص الجماد والنبات والحيوان، ففيه جمادية، إذ لـه حيز يشغله، ويتحكـم فيـه قـانون الجاذبية الأرضية، وفيه نباتية، لأنه ينمو ويتطـور، وفيـه حيوانيـة، لأنـه يحس ويتحرك، وما هو كذلك فالإنسان فيه مسير.

ثم هو مكرم على سائر تلك المخلوقات بـأن الله منحـه عقـلا، وأرسـل إليه رسلا، وأنزل له كتبا، وحمله أمانة التكاليف، وهداه السبيل، وأمـره أن يختار، فهو فى هذا الجانب مخير، وحسب اختياره يكون جزاؤه، فـإن اختـار طريق الهداية يسرت له ﴿**فسنيسره لليسرى**﴾[٤]، وإن اختار طريق الضـلال يسر له ﴿**فسنيسره للعسرى**﴾[٥].

وهذا معنى قول النبى ﷺ "اعملوا فكل ميسر لما خلق له"، ثـم قرأ ﷺ:

١- سورة المنافقون: ٦.
٢- سورة الأحقاف: ١٠.
٣- سورة الرعد: ٢٧.
٤- سورة الليل: ٧.
٥- سورة الليل: ١٠.

﴿فأما من أعطى واتقى. وصدق بالحسنى. فسنيسره لليسرى.وأما من بخل واستغنى.وكذب بالحسنى.فسنيسره للعسرى﴾(١).

وحسب كسب الإنسان واختياره يكون جزاؤه.

قال تعالى: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومـن شـاء فليكفـر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشـراب وسـاءت مرتفقـا.إن الذين آمنـوا وعملـوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عمل.أولئك لهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهـب ويلبسـون ثيابـا خضـراً من سندس واستبرق متكئـين فيهـا علـى الأرائـك نعـم الثـواب وحسـنت مرتفقا﴾(٢).

إن قضاء الله وقدره لا يجبر النـاس علـى شـيء، ولا يحملهـم علـى فعـل شيء حملا أو جبرا، إن الإنسان إذا أكره على شيء رفع عنه الإثـم والحـرج ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾(٣).

وإذا كـان كذلك فكيف يكره الله النـاس على المعصية ويعاقبهم عليها،

١- أخرجه البخارى فى التوحيد (٧٥٥١)، ومسلم فى القدر (٢٦٤٩)، والآيات من سورة الليل: ٥-١٠.
٢- سورة الكهف: ٢٩-٣١.
٣- سورة النحل: ١٠٦.

أو على الكفر ويعذبهم به. إن الله عز وجل لو أكره الناس على شيء، لأكرههم على الإيمان الذى ارتضاه، لا على الكفر الذى لا يرتضيه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم**﴾[1].

وهو الذى عاتب رسوله ﷺ الذى ألح على الناس فى الإيمان، فقال له: ﴿**ولوشاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين**﴾[2].

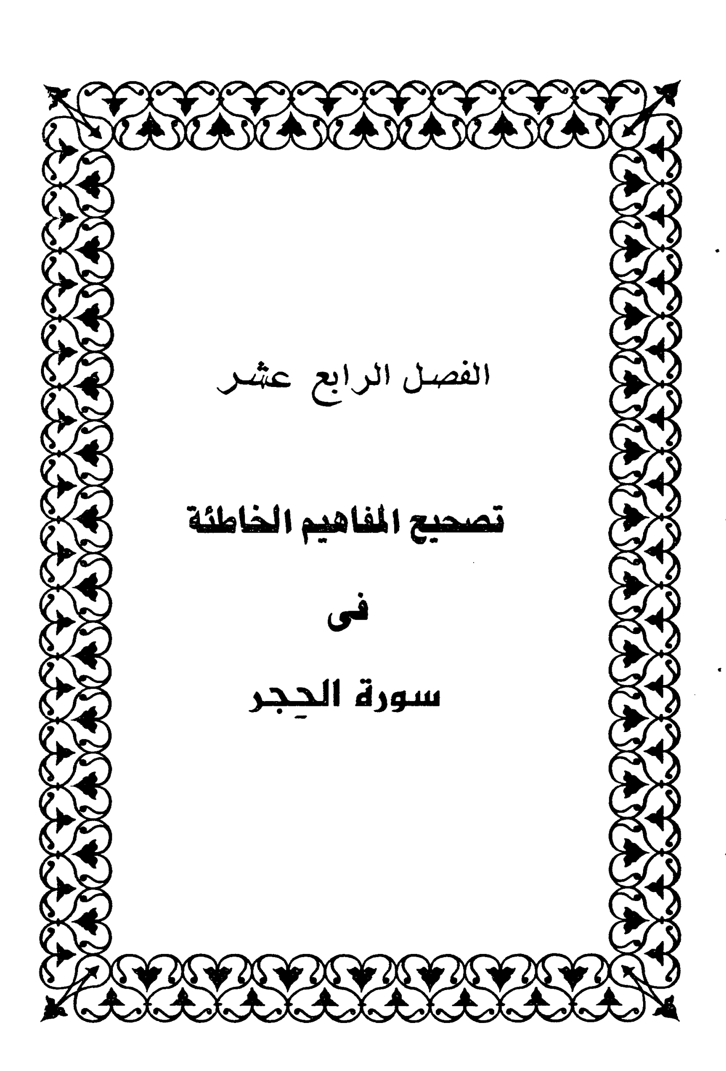
ولو أجبرهم فإنما هى كلمة واحدة "كن" فيكون الأمر كما أراد الله تعالى، ولكن الله عز وجل له إرادة شرعية - هى محل الاختيار، تختلف عن إرادته الكونية التى لا معقب لها، فقضاء الله تعالى: إنما هو علم انكشاف، لا علم إجبار، وهذا ما يجب أن يفهمه كل إنسان.

هذا وقضية القضاء والقدر أكبر من أن نستوعبها فى هده السطور[3].

١- سورة الزمر: ٧.

٢- سورة يونس: ٩٩.

٣- راجع بتوسع: مفهوم القضاء والقدر فى كتابنا "حقيقة الإيمان" ج٢.



الفصل الرابع عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة الحِجر

الفصل الرابع عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى " سورة الحجر "

" ما معنى اليقين ؟ "

(١) قال تعالى: ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾[١].

هذه الآية الكريمة الواضحة المحكمة فهمت خطأ، واستغلها بعض الجهال فى اسقاط التكاليف الشرعية عن نفسه: فزعم قوم أن من وصل إلى حد المعرفة سقطت عنه التكاليف، وفسروا اليقين على أنه درجة إيمانية معينة إذا وصل إليها شيخ الطريقة مثلا رفع عنه التكليف، ويستدلون على ذلك بهذه الآيةالكريمة ﴿**واعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾.

وإذا كان الأمر كذلك فهل هذا معناه أن النبى ﷺ لم يصل إلى اليقين الذى وصل إليه مشايخ الطرق،إذا كان يصلى ﷺ وهو فى مرض موته، حتى قبل سكرات الموت؟!! وكان ﷺ أعبد الناس، وكذلك كان الصحابة رضوان الله عليهم وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون -رضى الله عنهم-، وهم أعلم الناس بالله وأعرفهم به وبحقوقه وصفاته وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة.

نحن لا ننكر أن هناك يقينا إيمانيا، يبدأ بعلم اليقين، ويرتقى إلى عين

---

[١] - سورة الحجر : ٩٩.

اليقين، ويصل إلى حق اليقين، فالذى يصدق ما يسمع، ويجزم بصدقه، فهذا علم يقين، فإذا رآه فهذا عين يقين، فإذا عايشه أو دخل فيه، فهذا حق يقين، فا لله عز وجل يحدثنا عن النار -مثلا- فيقول:﴿**كلا لوتعلمون علم اليقين لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين**﴾(١).

وفى سورة الواقعة قال: ﴿**وأما إن كان من المكذبين الضالين.فنزلٌ من حميم.وتصليه جحيم.إن هذا هو حق اليقين**﴾(٢).

ولكن ليس هذا هو المراد فى الآية، وإنما الآية الكريمة تتكلم عن يقين آخر معناه الموت كما كانت العرب تقول: فلان جاءه اليقين، أى الموت، فخاطبهم القرآن الكريم بلغتهم، ومما يدل على هذا ويفسره ما قاله الله تعالى عن المجرمين أهل سقر، فى سورة المدثر ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة. إلا أصحاب اليمين.فى جنات يتساءلون.عن المجرمين.ما سلككم فى سقر.قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين.وكنا نخوض مع الخائضين.وكنا نكذب بيوم الدين حتى آتانا اليقين.فما تنفعهم شفاعة الشافعين**﴾(٣).

فاليقين هنا بمعنى الموت يقينا، ولا يمكن أن يكون بمعنى الإيمان اليقينى

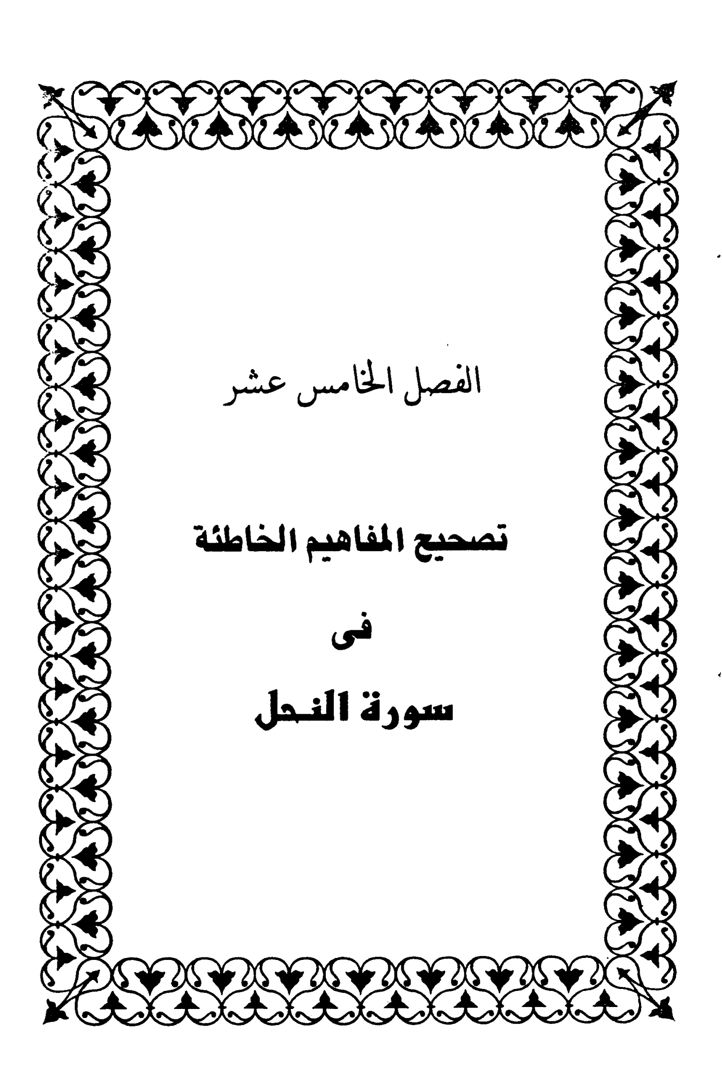
١- سورة التكاثر: ٥-٧.
٢- سورة الواقعة ٩٢-٩٥.
٣- سورة المدثر: ٣٨-٤٧.

مطلقا، ولو كان اليقين هنا بالمعنى الصوفى لانقلبت الحقـائق رأسا على عقب، لأن أناساً هذه صفاتهم لا يمكن أن يصلـوا إلى اليقـين الإيمانى أبـدا، وهذا هو الذى قاله الله تعالى : ﴿ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ وبهـــذا فســـرهـــا جمهـــرة المفســـرين ، وشـــذ

من فسر اليقين هنا بالمعرفة ، وانبنى عليه متى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم ، وهذا كفر وضلال وجهل ، قالـه الملاحـدة ، وأخـذه عنهم ضلال الصوفية ، فأسقطوا عن أنفسهم التكاليف الشرعية!! وإنما المراد باليقبن ههنا الموت كما قدمناه ، و لله الحمد والمنة ، والحمد لله على الهداية، وعلى الاستعانة والتوكـل وهـو المسئول أن يتوفانـا على أكمـل الأحـوال وأحسنها ، فإنه جواد كريم[1].

---

[1] - انظر تفسير ابن كثير ج٢، ص ٥٦٠، بتصرف.



الفصل الخامس عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة

فى

سورة النحل

الفصل الخامس عشر

تصحيح المفاهيم الخاطئة فى " سورة النحل"

"بلاغة القرآن"

(١) قول الله تعالى: ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾[1].

الفهم الخاطئ فى هذه الآية هو استفسار من بعض المسلمين وجاء فى صوره اعتراض من قبل بعض المستشرقين ونحوهم: كيف يقول الله تعالى ﴿**أتى أمر الله فلا تستعجلوه**﴾؟ (**أتى**) فعل ماضى، (**أمر الله**)، بمعنى: الساعة يعنى جاءت الساعة ،وبعد ذلك يقول (**فلا تستعجلوه**) وهذا فى المستقبل!!، فزعموا أن هذا من التناقض فى القرآن الكريم ، وما عرفوا أن هذا من بلاغة القرآن العظيم.

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود

فالله سبحانه وتعالى يخبرعن اقتراب الساعة ودنوها ، معبرا بصيغة الماضى الدال على التحقيق والوقوع لا محالة ، كقوله ﴿**اقترب للناس**

---

١ - سورة النحل: ١.

حسابهم وهم فى غفلة معرضون﴾[١]، وكقوله ﴿**اقتربت الساعة وانشق القمر**﴾[٢]، وقوله ﴿**فلا تستعجلوه**﴾ أى قرب ما تباعد .

ولكن قوله ﴿**اقترب للناس حسابهم**﴾ وكذا قوله ﴿**اقتربت الساعة**﴾ واضح لا يحتمل اللبس، بخلاف قوله تعالى ﴿**أتى أمر الله**﴾ قلنا هو تعبير بصيغة الماضى لأمر محقق الوقوع، وهو أسلوب يعرفه أهل اللغة ، وهو من البلاغة بمكان، ثم نحن نستعمله فيما نثق منه تماما ،كمن يكلف واحد منا آخر بمهمة معينة، فإذا كان على ثقة من قضائها، قال له: هذا أمر فُرِغ منه، أو منتهى، أو اعتبره قضى أو مفروغ منه أو نحو ذلك.

فإذا قال الله تعالى: ﴿**أتى أمر الله**﴾ فهو أمر لا شك فيه ولا ريب، لأنه ما الذى يحول دون إتيانه؟

وقد تقرر فى علم الله تعالى، وأصبح فى حكم المقضى المفروغ منه -إنه لا شيء يحول دون وقوعه.

هل هوالزمان؟ أم المكان؟ أم صاحب سلطان؟ أم ماذا؟ لاشيء من ذلك.

لأن الله تعالى هو خالق الزمان والمكان، وصاحب السلطان، وصاحب الخلق والأمر، والقهر والحكم.

---

[١] - سورة الأنبياء: ١.

[٢] - سورة القمر: ١.

أما أنا وأنت لا نملك أن نقول: نفعل هذا الشيء غدا، إلا أن يشاء الله.

﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله﴾[1]، لماذا ؟

لأنه يتحكم فينا الزمان، فلا نملك آجالنا، ويتحكم فينا المكان، فإذا انتقلنا من مكان إلى مكان حال بيننا وبين الوصول إليه عدو إنس أو وحش، أو ظالم أو نحو ذلك، وإن تيسر لنا الزمان والمكان، فنذهب إلى المكان الذى نريد، فنجد صاحبنا قد مات أو سافر أو نحو ذلك، فلا تقضى الحاجة.

لأن كل هذه الأشياء تتحكم فينا، وليس ثمة شيء من ذلك تتحكم فى إرادة الله تعالى، فالله تعالى إذا أراد أمرا أنفذه، ولا معقب لحكمه، لذلك فأمره متحقق الوقوع، فهو (قد أتى) فى علم الله، ولن يحول دون إتيانه شيء.

أما بالنسبة لنا فهو لا يزال مستقبلا، فلما كان مستقبلا بالنسبة لنا، والبعض يستعجله كما قال تعالى: **﴿وما يدريك لعل الساعة قريب يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ألا إن الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد﴾**[2].

---

١ - سورة الكهف : ٢٣، ٢٤.

٢ - سورة الشورى: ١٧، ١٨.

وهنا قال: ﴿**فلا تستعجلوه**﴾ أى فلا تستعجلوا يوم القيامة، ولا إتيان أمر الله، ولا عذاب الله، ولا وعد الله، لأنه أتى فعلا، فلا مفر ولا حيلة، لذلك عبر بصيغة الماضى لتحقق الشيء ووقوعه يقينا.

ثم قال: ﴿**سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ لأن فعل الله ليس كأفعال الخلق، ولأن علم الله ليس كعلم الخلق، فهو سبحانه وتعالى عما يشركون به، وعما يشبهونه به، أو يمثلونه به.

فهو سبحانه له علم وقدرة جعلت علمه وأفعاله ليست كعلم أحد من خلقه، ولا علم أحد من الخلق كعلمه، ولا أفعاله كأفعال خلقه، كما أن أفعال خلقه ليست كأفعاله، ومن ذلك على سبيل المثال -كان إسراؤه ومعراجه برسوله محمد ﷺ، ولذلك قال أيضا ﴿**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى...**﴾ الآية[1].

---

[1] - سورة الإسراء: ١.

" هل الانسان يحمل وزر غيره "

(٢) قوله تعالى ﴿**وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الأولين ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون**﴾[١].

كذا قال ربنا ﴿**وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم وليسئلن يوم القيامة عما كانوا يفترون**﴾[٢].

قال قوم: كيف يتفق هذا مع قول الله تعالى: ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾[٣]، وكذا قوله ﴿**ألا تزر وازرة وزر أخرى.وأن ليس للإنسان إلا ما سعى.وأن سعيه سوف يرى**﴾ [٤]، وقوله تعالى: ﴿**كل امرئ بما كسب**﴾[٥]، وقوله: ﴿**كل نفس بما كسبت رهينة**﴾ [٦]؟!!

والضابط بين الأمرين هو وجود إنسان ضال في نفسه. لا يتعدى ضلاله

[١] – سورة النحل : ٢٤، ٢٥.
[٢] – سورة العنكبوت: ٣.
[٣] – سورة فاطر : ١٨.، الإسراء : ١٥.
[٤] – سورة النجم: ٣٨ – ٤٠.
[٥] – سورة الطور : ٢١.
[٦] – سورة المدثر : ٢٨.

إلى غيره، فهذا وزره خاص به، ورهين بكسبه. وليس له إلا سعيه.

وهناك إنسان ضال مضل، فهو ضل فى نفسه، ثم أضل غيره، فهل يكون مثل الأول، ويستوى به؟ كلا ليس من العدل أن يستوى هذا بذاك، فهذا الأخير الذى ضل فى نفسه، ولم يكتف بهذا، بل أضل غيره ودعا الناس إلى الضلال. فهو يحمل وزره ووزر من أضله، وثقله وثقل من نهاه عن الإيمان،

فهو من جنس من قال الله عنهم ﴿**وهم ينهون عنه وينئون عنه**﴾(١).

وكذلك ﴿**الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم**﴾(٢).

فالذين كفروا فقط ينطبق عليهم ﴿**ولا تزر وازرة وزر أخرى**﴾، لكن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ﴿**يحملون أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم**﴾، وهم يتحملون أوزارهم ومن أوزار الذين يتبعونهم ويوافقونهم، أى يصير عليهم خطيئة ضلالهم فى أنفسهم وخطيئة إغوائهم لغيرهم، واقتداء أولئك بهم.

كما جاء فى الحديث "**من دعا إلى هدى، كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن دعا إلى ضلاله كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا**"(٣).

١- سورة الأنعام: ٢٦.
٢- سورة محمد : ١.
٣- أخرجه مسلم فى العلم (٢٦٧٤)، والبغوى فى شرح السنة (١٠٩).

وكقوله ﷺ: "**من سن فى الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شىء، ومن سن فى الإسلام سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شىء**" [١].

وبذلك اتضح المعنى ، والحمد لله رب العالمين

١- أخرجه مسلم فى الزكاة (١٠١٧)، والنسائى فى الزكاة (٢٥٥٣)، وابن ماجة فى المقدمة (٢٠٣)، والبغوى فى شرح السنة (١٦٦١).

الخاتمــــة

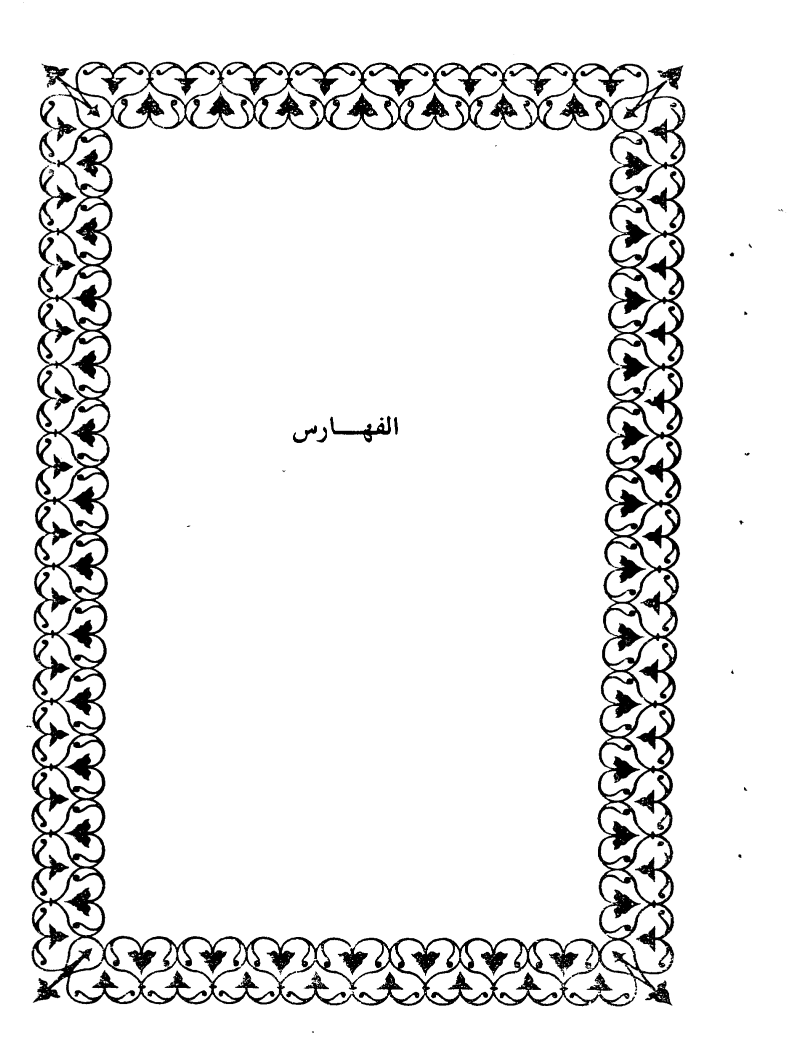
الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه

أمــا بعــد ..

فهذا ما تيسر من تصحيح المفاهيم الخاطئة حول الآيات المظلومة بين جهل المسلمين وحقد المستشرقين .

فى الجزء الأول من السلسلة ، بلغنا فيه سورة النحل ، ويبدأ الجزء الثانى بإذن الله تعالى – من سورة الإسراء وحتى قصار السور لنواصل به مسيرة الفهم الصحيح للكتاب ، ثم السنة إن شاء الله تعالى فحتى نلتقى أستودعكم الله الذى لا تضيع ودائعه .

عمر بن عبد العزيز قريشى



الفهـــارس

فهـرس الأحاديث

فهرس الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب
٨٥٤٧/١٩٩٥م
I.S.B.N : 977 /009852 /3